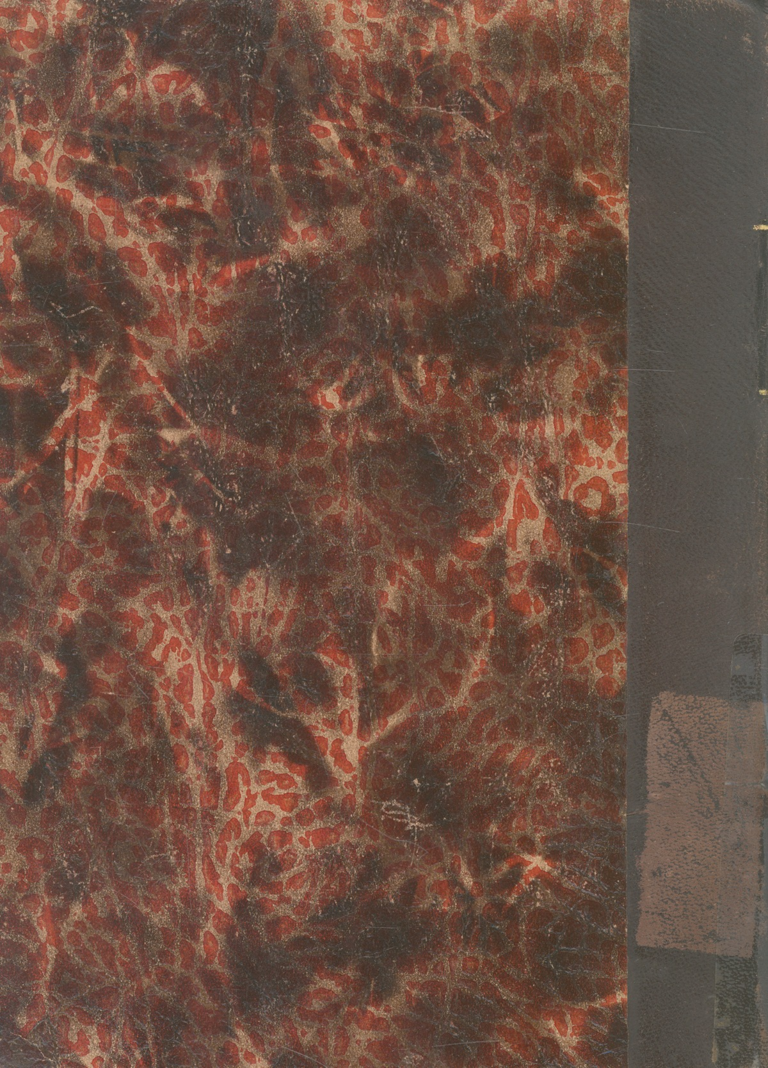
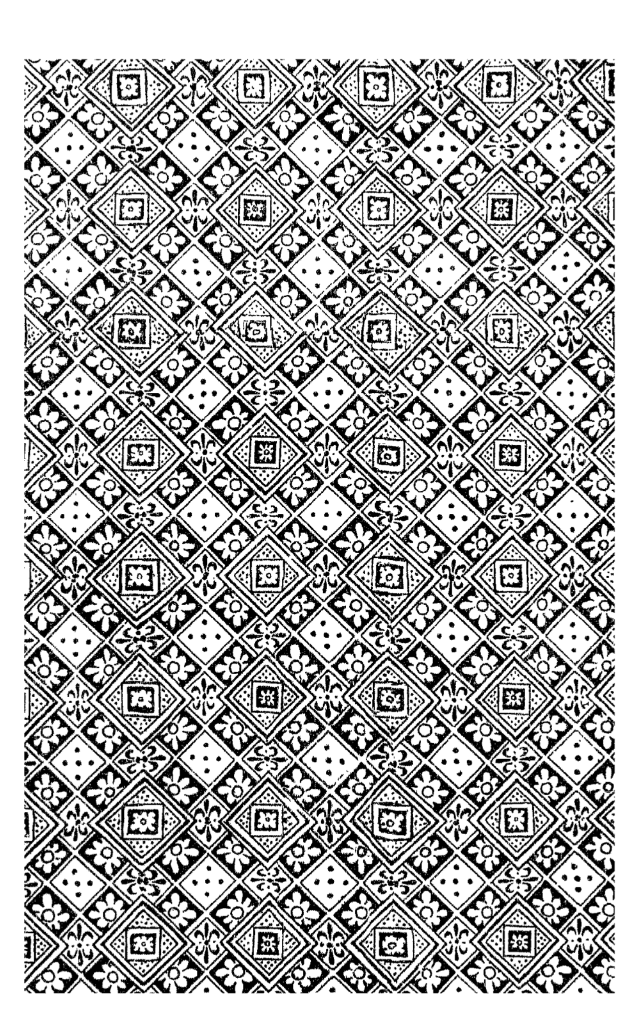
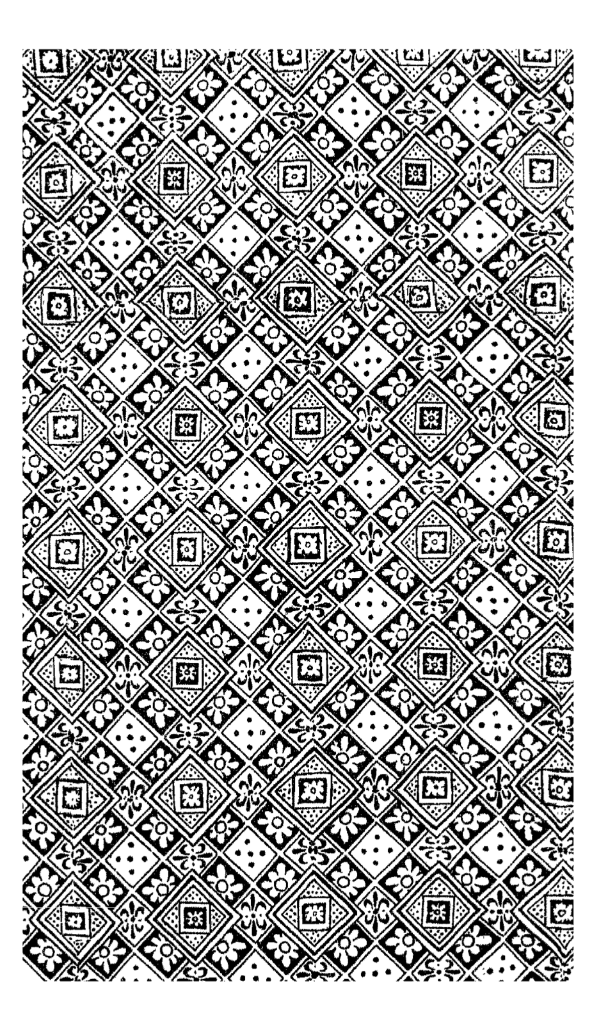






تاريخ المؤامرات السياسية

وتطوراتها الاجتماعية والقانونية

من أقدم العصور الى أحدثها

ألفه

محمد عبد الله عنان

المحامى

مؤلف « تاريخ الجمعيات السرية » و « قضايا التاريخ الكبرى » .. الخ

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٨

« ان مؤامرة تقرن بالتردد محاولة خاسرة » .

مكيافيللي

« قد تكون المؤامرة عمل بطولة وطنية ولكنها ليست في الغالب الا جريمة معاقباً عليها »

روسو

« قد تكون المؤامرة بطولة أو قطع طريق »

برودون

« سنرى دائماً روح التحزب تخلق المؤامرات لتسبغ على نفسها صون العقاب والأهلية »

دي سيجور

« كثرة المؤامرات دليل على فساد المجتمع أو اضطراب الحكومة أو هما معاً »

جيزو

« لقد غدت المؤامرة كلمة جوفاء منذ أعلنت سيادة الامة »

راسباي

كلمة للمؤلف

هذا مجهود جديد في ناحية من نواحي التاريخ المظلمة ، أتقدم به الى أبناء العربية . وللمؤامرت السياسية خواص في الخفاء وبعد الأثر في سير المجتمع ، ولكنها تميل في ذلك الى جانبه المادي ، بينما تقصد الجمعيات السرية الى غزو المجتمع من طريق العقول والاهواء فتطبع بذلك وجهته الفكرية بما تقصد اليه . ومن ثم قد نجد المؤامرة السياسية تسخر في أحيان كثيرة لخدمة الدعوات السرية أو نجد الدعوة السرية تسلح المتآمر باداة النضال المادي

ولما كنت قد كتبت « تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة » ، فان هذا السفر الذي جمعت فيه أخبار المؤامرات السياسية منذ أقدم العصور الى أحدثها ، قد يعتبر قريناً له وتتمة . ففي الاول يقف القارىء على سير الخفاء المعنوي ، وفي الثاني على سير الخفاء المادي اذا صح التعبير

على اني لم أقدم الى القارىء مجموعة من أخبار هذه المحاولات والمغامرات الدموية التي تعرف في التاريخ بالمؤامرات السياسية مجردة عن نواحيها المعنوية ، بل حاولت في نفس الوقت ان الم بهذه

النواحي ، وان أحيط بالعوامل والبواعث والظروف الاجتماعية التي ازدهرت في مهادها المؤامرات السياسية ، فخصصت لذلك في فاتحة الكتاب فصلين كاملين بحثت فيهما تطور المؤامرة في التاريخ والاجتماع بصفة عامة ، ثم مركزها وتطورها في الشرائع المختلفة. هذا الى ما اقتضاه المقام بعد ذلك فيفرص عدة من شرح وتحليل في هذا الميدان

كذلك رأيت ألا أخرج سير هذه المؤامرات السياسية في ثوب أعزل ، بل حاولت جهد الاستطاعة أن أخرجها في ثوب قطع من التاريخ القومي لكل أمة على حدتها . ولهذا عنيت بان أمهد اليها في كل فصل بما يتخلله من مقدمات ونبذ في سيرة كل أمة من الامم التي يتناولها الكلام بحيث يستطيع القارىء أن يلم بلمحة عامة في تاريخ هذه الامة . وهذا ما عنيت به خاصة في الفصل الذي أفردته للتاريخ الروماني ، ففيه بيان كامل لتاريخ النظم الرومانية والعوامل السياسية والاجتماعية التي مهدت الى وثوب المؤامرات السياسية في رومة ، ولم اغفل مثل هذا البيان في معظم الفصول الاخرى

ولعلى نائل بهذا المجهود الجديد من عطف الخاصة والمفكرين ما اعتبره خير جزاء م

القاهرة في ابريل سنة ١٩٢٨

محمد عبد الله عنان

الكتاب الاول

المؤامرة في التاريخ والشرائع

الفصل الاول

تطور المؤامرة الاجتماعى والتاريخى

(١) معركة الحرية والطغيان (٢) بواعث المؤامرة السياسية
(٣) المؤامرة فى العصور القديمة (٤) المؤامرة فى الاسلام
(٥) المؤامرة فى العصور الوسطى . المؤامرة فى عهد الفروسية
(٦) ازدهار المؤامرة بنهوض الملوكية (٧) لمحة فى مؤامرات العصر
الحديث . أشهر المؤامرات فى ايطاليا وفرنسا وروسيا وانجلترا

١ ـ معركة السلطان والملك من بين عناصر التاريخ أخصبها مورداً وأغزرها مادة . وليس تاريخ الحروب التي خضبت بالدماء بسائط الامم منذ أقدم العصور ، ونكبت المجتمع في جميع أطواره ، الا نضال الدول والافراد ، وصراع الاحزاب والطوائف في سبيل الغلبة والسيادة . وليس بين المطامع البشرية مذ قامت المجتمعات المنظمة أرفع وأنفس من الرياسة . وقد كان السلطان في كل العصور غاية كل طامح مضطرم . وكان نظام المجتمع القديم نفسه يحمل أسباب الاغراء على التفاني في سبيل احراز هذه الغاية المثلى . ففيه كان الملك مقدساً أو يدنو من القدسية ، وكانت نعمه باذخة ، وامتيازاته مطلقة ، وسلطانه لا حد لها ، وكانت المسئولية معدومة أو صورية ، وكان

الامير كل شيء ، والشعب كله لا شيء . ولـكن السلطان اذا كان أثمن ما يكلل جبين الطامعين والمغتصبين فان الحرية أثمن ما يتوق اليه الشعب . وما دام شغف الحرية يجثم في نفس شعب برمتـه ، وما دامت كل طائفة بل كل انسان يشعر بمقت العبودية ، فان العواطف ما تزال تضطرم ، والسخط ما يزال يزكو حتى تتفجر أسباب الثورة حول المغتصب أو المستبد وتحطم نير استبداده . وقد يفلح المتغلب في توطيد سلطانه ، واخماد الشعب الذى استرقه بالارهاب ، ولـكنه لا يأنس مع ذلك طمأنينة ، بل يشعر ان ذلك الشعب الذي ظلمه واستباح حريته ما يزال يشهر عليه حربا خفية ، هي حرب النقمة ، ويرقب الفرصة لسحقه

ولـكن الطغيان اذا تأثل واستطال حتى نسيت أسبابه وظروفه وشق الطاغية لنفسه طريقاً بين شعب ضعيف أعزل ، وأحاط عرشه بعصابة من المداهنين والمرتزقة ، فان صفة الاغتصاب تختفي رويداً ، ويقوم خلـف المغتصب على تراث مشروع ، وملك قائم ، ويخلف الجيل الناقم الذي شهد اعتداء الطاغية جيل مغتفر لم يذق طعم الحرية ولم يشهد حالة أفضل من حالته . وعندئذ تلتف حول الطاغية طائفة من الشعب هي العنصر المسير الذي لا يرى الا رأي الحـكومة ولا ينظر الا بنظرها . على ان الحرية لا تعدم تأييداً في أي عصر وأي مكان وأية ظروف ، فان أولئك الذين تسمو أرواحهم ، ويعرفون ماضي أمتهم وحاضرها ، ويقارنون ما يرزح فيه من صنوف الاستعباد بما تنعم فيه الامم الاخرى من صنوف الحرية ، ويقدرون ما يصيب النفس المستعبدة من الانحلال المعنوي ، يروعهم شبح الخضوع

والاستكانة أكثر مما يروعهم بطش المغتصب ، ويرون في الاستسلام نهاية السقوط ، وفي الذلة اهداراً للنفس وقتلة للروح ، وقد يثور هؤلاء اذا استطاعوا الى الثورة سبيلاً ، ولكنهم يجدون الجند الذي يحشد بمالهم دائماً على قدم الاهبة لسحقهم وحماية الطاغية ، ويرون سيف القوانين التي شرعت لحماية السلطان المغتصب معلقة على رقابهم ، والمعاهدات التي تعقد باسم البلاد ترمى قبل كل شيء الى تبادل الحماية بين مختلف الطغاة ضد الشعوب التي استعبدوها ، ويعلمون أنهم اذا استطاعوا الاعتماد على عطف كل مهذب مستنير ، فان الطاغية يستطيع ان يحشد لقتالهم كل جاهل ووغد وهم السواد في كل شعب . فتنتهي النقمة من ظفر الجور والبطش ، ومن اضطهاد رجال لا يحكمون الا بحواسهم لرجال تسيرهم عواطف الروح ، بتسليح الاذهان المستنيرة بفكرة المؤامرة . ويكون باعثها على سلوك هذا السبيل الخطر هو التماس العدل والاصلاح ، واستبدال طغيان مرهق بحكم رفيق خير ، وتحرير شعب مهيض من بطش طاغية أو مغتصب

٢ ـ نستطيع ان نجد بواعث المؤامرة السياسية إذن في عاملين جوهريين : الاول تحقيق المطامع الشخصية في نيل السلطان والملك أو الرياسة أياً كان نوعها. والثاني استرداد الحريات المفقودة ، ورفع نير الظلم مهما كان لونه . وقد تكون المؤامرة جريمة أو عمل بطولة وفقاً للاثر الذي تحدثه ، والمصير الذي يقدر لمدبريها ، والغايات التي تقصد الى تحقيقها . ففي عصور الحكم المطلق نرى المؤامرة وسيلة ذائعة لانتزاع الملك ، ونري المتآمر الظافر يرقى عرش الحكم ومن

وورائه هتاف الشعب . فاذا كان نصيبه الفشل كان عمله جريمة ، وكان مصيره الموت واللعنات . والخاسر في مثل هذه الفورات الدموية هو الشعب إذ ما غايتها سوى ابدال شخص بشخص وظالم بآخر . وهذا هو الشأن دائماً في حكومات الطغيان المطلق . ولكن المؤامرة قد تقصد الى تحقيق الخير العام ، واستبدال نظام بآخر . بيد ان هذه المحاولات قد ترتد في معظمها ضد الخير العام خصوصاً في المجتمعات التي بلغت أنظمتها شأواً بعيداً من الرقي والمتانة . ويرينا التاريخ ان الذي يفيد الخير العام حقاً في مثل هذه الحالة هو التطور الهادىء المعقول الذي يتم رويداً في غير ما عنف على يد الاحزاب التي تتولى الحكم تباعاً ، ويحمل كل منها الى النظم ما استطاع من صقل وتهذيب ، فتسير النظم سيرها الحر ، وتدفع بالمجتمع الى الامام في طريقها الطبيعي. أما تبادل الاسر والمتغلبين عرش الحكم بطريق التآمر ، فإضطراب لا يقصد به الا تحقيق المطامع الشخصية ، ولا يضير سوى المحكومين

٣ — وسير الامم كلها حافلة باخبار المؤامرات السياسية ، وما منها الا من شهدت عدة من المؤامرات الشهيرة لاهميتها أو لما اقترن بها من الحوادث والانقلابات . واذا كان تاريخ الشعوب ليس الا سلسلة من المعارك الدامية والنضال المستمر ، فان تاريخ الملوك والمتغلبين والطغاة على وجه العموم هو قصة أهباتهم لمقاومة الاقارب والطامعين والنبلاء المنافسين لهم ، أو مغالبة الشعب الثائر من جراء ظلمهم وجورهم

* * *

وقد وجدت المؤامرة مذ تحول البشر الى مجتمعات منظمة تتميز بوجود الحاكم والمحكوم . ففي مصر القديمة ، وفي بابل ، نرى المؤامرة ماثلة في معظم الانقلابات التي تؤدي الى استبدال الاسر والطغاة وان لم نظفر بتفصيل واضح عن سير المؤامرة السياسية في هذه المجتمعات القديمة

وفي بني اسرائيل تبدأ المؤامرة منذ عهد الملوكية الاولى ، فان داود لم يظفر بانتزاع الملك من يد شاءول الا بالمؤامرة ، وقد آزره في تدبيرها النبي صموئيل . ذلك لأن رجال الدين لم يترفعوا في عصر من العصور عن الاشتراك في هذه المشروعات السرية خصوصاً لما كانوا يزعمونه من الاتصال بالسماء ومخاطبة الله ، واستماعه لدعائهم . ثم نرى متآمراً آخر هو أبشالوم ولد داود ينزع داود من عرشه حينا فيفر امامه نادماً مستغفراً . ونعلم من اخبار فارس أن قصورها كانت مهاد مؤامرات عدة أعظمها واشهرها مؤامرة سمرديس الساحر الذي سلب قمبيز عرشه وهو غائب . فلما علم قمبيز بذلك ، واراد العودة لعقاب المغتصب أصيب في ساقه وهو يثب الى جواده بالجرح الذي اماته . ثم ائتمر بسمرديس سبعة من أعظم سادة فارس ، ونزعوه من الملك وفاز به « دارا » أحد السبعة لفوز جواده في المباراة التي اقيمت بينهم . غير انه لم يلبث أن اضطر أن يدفع عن نفسه كيد زملائه السابقين ومؤامراتهم

وفي اليونان ترجع المؤامرة الى عهد الاساطير ، وتختفي في عهد الجمهوريات الحرة ، ولكنها تزدهر في عصور الطغيان والحكم المطلق . ونرى — في كل عهد تعاني فيه هذه الجمهوريات العريقة في

الحرية والديمقراطية بطش الطغاة ـ يد النقمة تسلح أذهان الاحرار الذين يؤثرون الموت على العبودية بفكرة التآمر فيصبح الطغاة ولا شاغل لهم غير الدفاع عن انفسهم مما يدبر لسحقهم من المؤامرات . ولنا ما يوضح ذلك في مؤامرة « هرمو ديوس » الذي حرر اثينا من طغيان بسستراث ، ومؤامرة تموليون محرر كورنث . ومما ينسب الى افلاطون في ذلك قوله على اثر عوده من رحلة قام بها في جميع المدن اليونانية ان اغرب ما رأى طاغية شاخ في العمر

وكذلك كان الشأن في رومة . فان المؤامرة لم تظهر ايام الجمهورية والحكم النيابي الا في فرصة واحدة هي مؤامرة كاتلينا التي دبرت لحل مجلس الشيوخ ولم تفلح . ولكن مذ اخذت النظم الجمهورية في الانحلال ، وظهرت بوادر الطغيان ، قويت فكرة المؤامرة حتى سلحت يد بروتوس بالخنجر الذي قتل يوليوس قيصر وسلحت من بعده جميع الطامعين والمنافسين الذين رأوا انه يكفي لانتزاع الملك سحق رجل واحد وتحطيم رأس واحد . وسنرى ان المؤامرة في الواقع من الظواهر البارزة في كل الحكومات الفردية المستبدة ، حيث الغنم اعظم والمخاطر اقل ، وحيث لا يخشى المغامر منافسة النبلاء او ثورة الشعب ولا يرى امامه سوى قصر يغص بالنساء والعبيد والحرس المرتزقة ، وهؤلاء دائما يسجدون امام الظافر مهما كانت ظروف فوزه

٤ ـ وعرف المجتمع الاسلامي المؤامرة كما عرفتها اليونان ورومة . بل عرفها قبل أن يتحول الى مجتمع سياسي ، فقد ائتمرت القبائل العربية الوثنية بالنبي العربي مراراً قبل ان يتم مهمته ، ويوطد

اركان دعوته الجديدة . وذهب عثمان ثالث الخلفاء ضحية المؤامرة ثم كانت مؤامرة الخوارج الشهيرة التي ذهب ضحيتها على بن ابي طالب. وهي على ما نعتقد أهم مؤامرة حدثت في الاسلام لما ترتب عليها من الآثار الحاسمة الكبرى في مصير الدولة الاسلامية . ثم أليست نكبة البرامكة مؤامرة كبيره دبرها الرشيد ليتخلص من أسرة نابهة ذكية شديدة البأس والعزم لم تبق لبني العباس من السلطان ورسومه سوى الاسم ؟ وقد عصفت المؤامرة بسلطة بني العباس ولا سيما حينما ضعفت عصبية الخلافة ، واضطر الخلفاء ان ينشئوا لهم بلاطاً من المرتزقة الاجانب . فكان سيف التآمر معلقاً دائماً على رقاب الخلفاء . وكان المؤتمرون أقرب اليهم من الابناء والاهل وكان الحرس المرتزقة دائماً على أهبة لتنفيذ كل مؤامرة يرونها في مصلحتهم . وهكذا تعاقبت مصائر الخلفاء زهاء قرنين ما بين خلع وسجن وقتل . وهذا ما حدث في مصر في الدول الاسلامية التى تعاقبت منذ الدولة الطولونية . فكثيراً ما كانت المؤامرة سبيل خلع السلطان أو قتله. وكان الحرس المرتزقة يتدخلون في تعيين السلاطين وخلعهم بادىء بدىء ، ولكنهم انتزعوا الملك لانفسهم في النهاية وأسسوا لهم في مصر دولا زاهرة . فعملت المؤامرة فيما بينهم ما عملت فيمن تقدمهم من الدول . ولم تكن الاندلس خلواً من المؤامرات السياسية . وخصوصاً أيام الطوائف ، وحينما أشرفت الدولة الاسلامية على الزوال

ومثل خلفاء بني العباس وسلاطين مصر في خضوعهم أزماناً لبطش الحرس المرتزقة ، ووقوعهم تحت رحمة أولئك الاجانب في

تولية وخلع وقتل ، نتيجة تحدث دائماً كلما ابتعدت الملوكية عن التفاهم مع الشعب ، وآثرت أن تحتمي بقوة أجنبية داخلية أو خارجية . وتأخذ هذه القوة في الداخل دائماً شكل الحرس المرتزق أو جماعة ممتازة من الرجال المسلحين تغدو عضداً أوحد للسلطة بل تغدو صاحبة السلطة الحقيقية . وقد حدث هذا في رومة حينما رأى الامبراطرة أن يتخذوا من الاشراف سياجا لعرشهم ، وحدث في بعض عصور التاريخ الحديث أيضاً ، فقد أنشأ آل عثمان الانكشارية لحماية عرشهم فجاء وقت سقطوا فيه تحت رحمتهم وغدت اقدار السلاطين العوبة في يدهم وكان « الاسترلتزي » في موسكو سياجا لآ ل رومانوف ، فغدوا سادة لهم يتصرفون في مصائرهم وفقاً لاهوائهم ومصالحهم . ونلاحظ أن هذه الهيئات المسلحة الممتازة كانت في حالة انتقاض مستمر ، وان مصلحتها كانت في التغيير الدائم ، لان القياصرة أو الخلفاء أو السلاطين لم يذعنوا تمام الاذعان الا بعد سلسلة طويلة من الثورات كانت تتجدد كلما حاول قيصر أو خليفة أو سلطان أن يستعيد شيئا من السلطة الحقيقية . وهكذا لبثت الثورات او المؤامرة في قصور رومة وبغداد ومصر والقسطنطينية وموسكو قروناً ، طريقاً عاديا لانتزاع السلطة . فكان القياصرة أو الخلفاء أو السلاطين يرقون بواسطتها العرش ثم يسقطون صرعى وثباتها وضرباتها . وفي غمار هذه الاضطرابات انهار صرح الدولة الرومانية فورثت عنها الدولة الشرقية تلك الاساليب الخطرة الفياضة بالمصائب والسفك ، وآلت الى الظلام والعدم سلطات أولئك الملوك الذين كانوا سجناء في قصورهم بين العبيد والخصيان

والنساء . فكان التاج دائماً يرتجف فوق رءوسهم الخافضة في معترك لا نهاية له من الدسائس والمؤامرات

٥ ـ ولكن العصور الوسطى لم تفسح مجالاً كبيراً للمؤامرة وذلك لطبيعة النظم التي سادت هذه العصور ، فقد ساد نظام الاقطاع مجتمعات العصور الوسطى ، ومن طبيعة الاقطاع توزيع السلطة توزيعاً كبيراً . وكثيراً ما نرى سلطة الملوكية تتضاءل في ظل الاقطاع أمام سلطات الأمراء الاقطاعيين . هذا فضلاً عن أن مجتمع العصور الوسطى لم يكن يستند الى اسس ثابتة مستقرة ، بل كان عرضة لكثير من التقلبات التي تثيرها أطماع الأمراء والسادة فكانت المعارك مستمرة بين الملوكية وبين أمرائها الاقطاعيين من جهة وفيما بين أولئك الأمراء أنفسهم من جهة أخرى . وكانت حرب الجهر هي أداة هذا النضال . كانت العصور الوسطى في الواقع عهد الفروسية ، وأمجاد الفرسان والامراء ، فلم تصادف المؤامرة ، وهي محاولة سرية تدبر في الخفاء ، هوى كبيراً في نفوس أولئك الطامعين والمتغلبين والمنافسين الذين كان شغف الفروسية يغلب في جوانحهم كل شغف آخر . وكانت محاولات الامراء والسادة الاقطاعيين في توسيع سلطتهم على حساب الملوكية ثورات سياسية تثب في العلانية والجهر ، وكانت على الاغلب ذات صبغة شعبية ، فان الامراء والسادة في تلك العصور كانوا يمثلون طوائف الشعب في نظام متعاقب متدرج فكانت محاولاتهم هذه في الواقع استرداداً عادلاً لسيادة الأمة ممثلة في طوائفها التي يرتبها نظام الاقطاع . وكانت المعارك المحلية بين السادة أنفسهم ترجع الى عدم استقرار التوازن العام في عصر كانت

القوة فيه وحدها أساساً للحق . فلم تلق المؤامرة في العصور الوسطى مهاداً خصيبة الا في الدول الاسلامية التي كانت تسبق في استقرار النظام والتوازن العام دول النصرانية بمراحل شاسعة وكانت الملوكية المطلقة قد تأثلت فيها . والى تأثل السلطة المطلقة أيضاً ترجع كثرة المؤامرات التي يسجلها تاريخ الدولة البيزنطية . ومع ذلك فقد عرفت الدول الغربية بعض المؤامرات الشهيرة في العصور الوسطى . ولنا مثل في ذلك في المؤامرات الشهيرة التي دبرتها البابوية في منتصف القرن التاسع لتثبت ان انشاء الكنيسة الرومانية والخلافة البابوية يرجع الى ارادة المسيح ذاته ، وذلك بأن أذاعت مجموعة من القرارات الكنسية المزورة ترجع سلسلة البابوات من قسطنطين الى خلف القديس بطرس ذاته . وهذه مؤامرة سياسية في الواقع برغم صبغتها الدينية ، لان البابوية أرادت بها أن تثبت أن وجودها قطعة من الدين ذاته ، وأنها ليست في حاجة لاقرارها وقيامها الى اعتراف أية سلطة سياسية ، أو بعبارة أخرى : أرادت أن توطد سلطتها الزمنية على أساس المزاعم الروحية . ونجد مثل المؤامرة السياسية المحضة في محاولة « أريبودوق ميلان » أن يقاوم سياسة الامبراطور كنراد الثاني في ايطاليا ، وأن يحي حركة الاستقلال اللومباردية بتدبير مؤامرة كبيرة غايتها تحطيم سلطة الامبراطور في إيطاليا وتقديم عرشها لأود دوق شمبانيا ، وهي محاولة نفذت فعلا بزحف الدوق أود على اللورين ، ولكنها انتهت بهزيمته ومقتله . ولكنا قلما نجد في صحف العصور الوسطى مؤامرات أخرى تضارع هاتين في الاهمية والآثار .

٦ ـ فلما انهارت سلطات الامراء الاقطاعيين في غمار المعارك الطاحنة التي ما انفك لظاها يستعر فيما بينهم اشتد ساعد الملوكية واستطاعت ان تقيم صرحها على انقاض سلطات الامراء والسادة، وان تغتصب كل السلطات العامة شيئاً فشيئاً حتى لم تبق ثمة سلطة شعبية تنافسها أو تحد من سيادتها ، وحتى ذهبت الى الزعم بأن سلطانها مستمد من الله . وهكذا قامت الملوكية المطلقة ، واتشح ملوك العصر الحديث بكل ما كان يتشح به القياصرة والامبراطرة القدماء من الوان السيادة والبطش ، وأحاطوا أنفسهم بكل ماأثر عن اولئك الاسلاف من أسباب الحول والبذخ الشاسع . وعادت الملوكية كل شيء والشعب لا شيء ، وغاضت الحريات العامة أمام صولة الملوكية. ولم تكن البرلمانات أو غيرها من الهيئات التي انشئت عندئذ سوى أشباح خلقت لتكون سياجاً للملوكية ، ووسيلة لتضليل الشعوب وخداعها . هنا عادت عوامل الطمع والتنافس القديمة الى النشاط فمن مؤامرات يدبرها النبلاء ضد الملوكية التي أخذت تميل عليهم وتجردهم من نفوذهم. ومن مؤامرات يدبرها ملك معزول أو ولد غير شرعي أو عضو محروم بمؤازرة العناصر الناقمة في الداخل أو أعداء الدولة في الخارج . ثم استحالت هذه المحاولات الخفية الى طور جديد حينما ذهبت الملوكية في البطش والاستهتار بالحريات والحقوق العامة الى أبعد حد. فبدأت المؤامرات الشعبية التي يقصد بها الى مقاومة سلطة طاغية أو استرداد حريات عامة ، أو تحرير وطن مغتصب

٧ ـ وصحف هذه العصور حافلة بسير المؤامرات السياسية من كل ضرب . فمنذ القرن الرابع عشر تعصف المؤامرات بعروش أوربا

وحكوماتها المختلفة. وقد نجد في ايطاليا أخصب مهاد لهذه المؤامرات التي هزت أسس المجتمع وقتئذ وحملت اليه صنوفا جمة من المصائب. ويرجع ذلك من وجوه كثيرة الى تقسيم ايطاليا السياسي في ذلك فان الجمهوريات الايطالية التي استطاعت ان تنزع حريتها من قبضة الاجنبي مثل « البندقية » و « فيرنزا » و « جنوة » كانت ميدانا لغمار طاحنة من معارك النبلاء والاسر ودسائس المتطلعين الى الملك والرياسة. وكانت شعوبها الصغيرة النازعة الى الحرية قليلا ما تصبر على بطش الطغاة المستبدين. هذا الى أنها كانت لصغرها وحداثة عهدها بالحرية مطمح أنظار المتغلبين من الاجانب. ومن ثم فانا نرى المؤامرة تزدهر في هذه الجمهوريات الصغيرة، وتتفجر فيها طائفة كبيرة من المحاولات الدموية. ويكفي ان نشير هنا الى بعضها: ففي البندقية وقعت مؤامرة « مارينو فالييرو » التي اريد بها نزع السلطة من يد النبلاء ووضعها في يد الشعب ثم مؤامرة « بدمار » التي اريد بها القضاء على استقلال الجمهورية ووضعها تحت النير الاجنبي. ووقعت في جنوا مؤامرة « آل فيسكي » وغيرهم من الاسر النبيلة التي لبثت حيناً تتبادل أسباب الائتمار والدس. أما في فيرنزا فان عرش آل مديتشي لم يستقر الا بعد قرنين من النضال دبرت خلالهما مؤامرات عدة أشهرها مؤامرة « بازي » التي اريد بها تحطيم آل مديتشي. ولم تنج البابوية من عصف المؤامرة، بل لعل البابوات كانوا أشد الرؤساء تعرضاً لها لانهم فضلا عما كان يهددهم من الثورات الشعبية، كانوا يعيشون في غمار من الدسائس التي يدبرها الكرادلة من حولهم وكان أولئك الكرادلة أخطر المتآمرين على البابوية، لأنهم خلفاء

هـذا العرش ، وكل يتطلع اليه ويحاول الفوز به دون زملائه . وكانت هذه المؤامرات تلجأ دائماً الى سلاح خفي وضيع هو السم . ومن المستحيل ان نعرف عدد البابوات الذين زهقوا بالسم . ولـكن المحقق أنهم كانوا جميعاً يخشونه ويتخذون ضده أعظم التحوطات .. ومن أشهر هذه المؤامرات تلك التي دبرت لقتل ليون العاشر ، وهلك فيها كردينالان وعدة شركاء آخرين من ألوان العذاب الرائع . ثم مؤامرات آل « بورجيا » سواء منها ما دبروه لسحق بعضهم بعضاً أو لاغتيال غيرهم من الامراء والسادة ، وهي وحدها تكوّن فصلا من أروع فصول التاريخ الايطالى. وكان جنوب ايطاليا أيضاً مسرحاً لبعض المؤامرات الشهيرة مثل مؤامرة « جنة دي نابولي » التي دبرتها لقتل زوجها « أندريا » المجري . وهكذا لبثت المؤامرات تخضب بسائط ايطاليا بالدماء وتجد عواملها وبواعثها في نظم العصر وخواصه وروحه

وكانت فرنسا مسرحا لطائفة من المؤامرات الـكبرى ، كانت في الغالب تقصد الى سحق الملوكية أو تأييد المطامع الاجنبية . وتبدأ هذه المؤامرات مذ توطدت الملوكية وقصدت بالهدم سلطة النبلاء الذين ورثوا لمحة من امتيازات الاقطاع منها مؤامرة « الـكونيتابل دي بوربون » وشريكه « سان فالييه » التي اريد بها حمل هنري الثامن وشارل الخامس على غزو فرنسا ونزع فرانسو الاول من عرشه ، ثم مؤامرات آل « جيز » التي تعاقبت حيناً لاسقاط عرش آل « فالوا » وكانت تجري بأشراف فيليب الثاني . وكان الملك الاسباني يترقب من خلال هذه المحاولات فرصة لتحقيق مطامعه

في العرش الفرنسي . ويغذيها بلاط رومه وأحبارها اضعافاً لشوكة فرنسا وسحقاً لنفوذها في الاراضى الايطالية . ودبرت أيام الفورة الدينية مؤامرة من أشنع مؤامرات التاريخ وهي التي تعرف بمؤامرة القديس « برتلمي » دبرها « آل جيز » و « كاترين دي مديتشي » لاستئصال «الهوجنوت » فهلكت فيها زهرتهم ، وخضبت أرض فرنسا بالدماء من جرائها أعواماً . وتلا ذلك ائتمار الدوق « دي بيرون » بهنري الرابع . ثم جاء « ريشليو » فمال على النبلاء وحطم نفوذهم . فكانت مؤامرة « سنك مارس » الشهيرة عنواناً للسخط الذي أثاره الكردينال في نفوسهم . وشهد لويس الرابع عشر طائفة من المؤامرات أهمها مؤامرة « الشفاليه ده روهان » ودبرت أيام الوصاية مؤامرة شهيرة تعرف بمؤامرة « كلامار » وهو اسم السفير الاسباني الذي اشترك في تدبيرها مع الدوقة « دهماين » وكان روح المؤامرة الكردينال البروني وزير اسبانيا . وكانت ترمي الى خطف الدوق دورليان وصي الملك الطفل لويس الخامس عشر واعلان فيليب الخامس ملك اسبانيا ملكا على عرش فرنسا اذا ما توفى الملك الطفل دون وارث . وكانت هذه آخر المحاولات التي غذيت بالنفوذ الاجنبي . ثم تضاءلت المؤامرات السياسية في عهد لويس الخامس عشر الى دسائس قصر يدبرها النساء القابضات على السلطة مثل « بومبادور » و « دوباري » لاسقاط خصومهن من الوزراء والساسة وهبت بعدئذ على فرنسا ريح من الركود السياسي كانت مقدمة العاصفة الكبرى ونذير الوثبة العامة. ثم انفجر بركان الثورة ، وتمخض عن سلسلة لا نهاية لها من المؤامرات والدسائس من كل ضرب : فمن

مؤامرات ملكية تنظم في الداخل وفي الخارج لسحق الجمهورية ، ومن محاولات يبذلها الجمهوريون لانتزاع السلطة بعضهم من بعض . ثم كانت مؤامرة « بابيف » التي دبرت لسحق الحكومة المؤقتة (الديركتوار) . واضطر نابليون مذ قبض على السلطة المطلقة أن يحمي نفسه من عدة مؤامرات دبرت لتحطيم سلطانه مثل مؤامرة « كادودال » و « مورو » . ودبرت لاسقاط البوربون بعد عودتهم عدة مؤامرات أيضاً . وأخيراً نستطيع أن نعتبر الحركة التي دبرت ضد اليهود في شكل محاكمة « دريفوس » مؤامرة لا سامية كبرى

وليس بين الدول الاوربية الاخرى من لم تشهد في العصور الحديثة طائفة من المؤامرات السياسية الكبرى . ويقدم لنا تاريخ الامم التي لم تنضج حضارتها ونظمها السياسية أكبر عدد من تلك الحوادث المؤسية . ويكفي ان نلقي نظرة على تاريخ القياصرة في روسيا فنرى أن أولئك الطغاة قد عاشوا منذ عصر ايفان الهائل ، في غمر مستمرة من المؤامرات الدموية . ولعل أغرب ما ترويه صحف القيصرية في هذا الشأن قصة تلك المؤامرة العجيبة التي تكررت مراراً عدة في أزمان متعاقبة ، ونعني بها قصة « ديمتري » ولد « ايفان » الهائل المعروف بديمتري الزائف ، فقد اغتصب عرش موسكو عقب وفاة القيصر « فيدور » ولد ايفان الكبير ، وزيره بوريس جودنوف ، ثم دبر جودنوف مؤامرة لقتل « ديمتري » الامير الطفل ، فقتل بالفعل ، وتربع المغتصب على العرش ، ولكنه ظهر بعد ذلك شخص زعم انه ديمتري ولد القيصر ايفان ، وأنه نجا من القتل ، واستولى على العرش ، ثم قتل بدوره . وانتقل العرش

الى آل رومانوف ، فظهر في عهدهم اكثر من دعى يزعم انه ولد ديمتري المذكور فيثير الشغب والاضطراب . ولتلك السيرة نظير في تاريخ الاسلام ، هو سيرة ادعياء الخلافة من أبناء الحسين وفي سيرة المهدي المنتظر . ورأى بطرس الاكبر اخته وولده ألكسي يأتمران به . وتولت القيصرة اليزابيت العرش بالمؤامرة . وأتمرت كاترين الكبرى بزوجها بطرس الثالث فدفعت به الى القبر واستلبت عرشه . ولبث القياصرة منذ اوائل القرن التاسع عشر في نضال مستمر مع المؤامرات العدة التي تدبرها الجماعات الثورية لقتلهم او سحق سلطتهم ، حتى انتهت دولتهم في عصرنا في سيل من الدماء .

وقد مرّ على انجلترا عهد حافل بالمؤامرات بدأ في الاضطرابات الدموية التي عرفت « بحروب الورد » . ولم ينقض الا بعد ان توطدت سيادة الشعب ، وقامت النظم البرلمانية على اسس متينة . واقدم هذه المؤامرات مؤامراة «لمبرت سيمل» و«بركين واربك» اللذان حاول كل منهما ان ينتزع العرش من هنرى السابع . فلما توطدت الملوكية الانجليزية بدأت محاولات النبلاء والمؤامرات الشعبية . وكان لمطامع الاسرة شأن كبير في معظم المؤامرات الانجليزية . فان المؤامرة التي دبرت لاجلاس « اللايدي جان » على العرش وانتزاعه من « ماري تيودور » ، والمحاولات التي اقترنت باسم« ماري استوارت » وأتمار الدوق اسكس « باليزابيت» ومؤامرة « الدوق مونموث » دبرت كلها لتحقيق أماني الاسرة ..

ثم كانت مؤامرة « الديناميت » الشهيرة التي القى فيها كبير اتهام على اليسوعيين . ولكن المؤامرة غاضت منذ بعيد في انجلترا ، ولا سيما مذ غدت الملوكية الانجليزية شبحاً دستوريا فقط ، واجتمعت السلطات العامة كلها في يد البرلمان .

ونستطيع أن نعدد طائفة اخرى من المؤامرات الشهيرة وقعت في مختلف البلاد ، من اعظمها واشهرها مؤامرة « وليم اورانج » « واجمونت » و « هورن » لتحرير الاراضي السفلى (هولنده والبلجيك) من نير اسبانيا ، ثم ائتمار الدون « كارلوس » بابيه فيليب الثاني والمؤامرة السويدية التي قتل فيها جستاف الثالث سنة ١٧٩٢ ، ومحاولات بونتياك الكندي . وكانت المانيا ايام الغزوة النابوليونية مسرحاً لطائفة من المؤامرات الكبيرة التي دبرت لسحق النير الاجنبي . كذلك لبثت ايطاليا مسرحا للمؤامرات التحريرية حتى نجت من النير الاجنبي ، وما تزال البرتغال الى يومنا تضطرم بالمؤامرات الدموية .

على أن تيار المؤامرة السياسية قد ركد في العصر الاخير مذ اسفرت الثورات الشعبية في معظم الامم الاوربية عن سقوط الحكم المطلق وقيام الحكومات البرلمانية ، اللهم الا في روسيا وتركيا حيث استطال أمد الحكم المطلق ولم ينهر صرحه الا في غمار الحرب الكبرى . ومذ قامت الاحزاب السياسية في ظل النظم البرلمانية غدت معارك السياسة تجري جهاراً ، واصبح يؤول الحكم الى الحزب الاقوى بالطرق الدستورية ، وحلت المعارضة المنظمة المشروعة محل

المؤامرة ، وغدت المصلحة العامة محور النضال السياسي ، واصبح التآمر سلاحاً مريباً بغيضاً ينتقص من هيبة الحزب او الهيئة التي تلجأ اليه ويصدع من اخلاصها وصدق نياتها ، وغدت المؤامرة السياسية جريمة عامة يغلب فيها عنصر الاجرام على عناصر الوطنيـة والبطولة التي امتزجت بكثير من المؤامرات في عصور الطغيان والحكم المطلق

الفصل الثاني

المؤامرة فى الشرائع

(١) خطورة المؤامرة فى نظر الشرائع . تعريف المؤامرة . النظرية الحديثة . المؤامرة المعاقب عليها (٢) اركان المؤامرة . المؤامرة فى القانون الانجليزى والامريكى (٣) القانون الفرنسى سعة احكامه فى المؤامرة التحزب الجنائى . احواله ومراحله فى الجريمة والعقوبة . الاعمال التحضيرية (٤) قانون العقوبات المصرى . رجوعه الى النصوص الفرنسية . تعبيره عن المؤامرة بلفظ التحزب . احوال التحزب الجنائى (٥) قانون ١٦ يونية سنة ١٩١٠ وسبب اصداره . المادة ٤٧ مكررة . تعليقات وزارة الحقانية والمستشار القضائى . غاية هذا التشريع سياسية (٦) الشريعة الاسلامية (٧) عقوبة المؤامرة . بعض الامثلة التاريخية

١ ـ لما كان التآمر سلاحاً خطراً يهدد سلامة النظم والسلطات القائمة ويقترن غالباً بفقد الانفس ، والأنفس الغالية بصفة خاصة ، فقد عنيت جميع الشرائع المنظمة منذ أقدم العصور بدرسه وفرضت لمطاردته وقمعه أشد العقوبات . وتنظر الشرائع الحديثة أيضاً الى المؤامرة بعين الخطورة ، وتضعها في صف الجرائم الكبرى . وتعني بتعريفها وتحديد أدوارها وعقابها كل العناية . ولسنا نريد أن نفيض في هذا المقام في درس المؤامرة من الوجهة القانونية ، ولكننا نرى

من الضرورة أن نقدم خلاصة وجيزة عن تعريفها الفقهي واحكامها في مختلف العصور والشرائع

نستطيع أن نعرف المؤامرة على وجه العموم بانها « اتفاق سري ضد الاشخاص العموميين أو الاشياء العامة » وقد اعتبرها القانون الروماني منذ عصر الجمهورية خيانة عظمى ، ونص على أن كل جريمة تهدد سلامة الدولة تعتبر داخلة في هذا القسم من الجرائم ، مثل التآمر على الحكومة ، ومحاولة إقامة السلطة الملوكية ، ومساعدة أعداء رومة والتواطؤ في قيادة الجيوش . وكانت الجمهورية صارمة في عقاب كل من يرتكب إحدى هذه الجرائم مهما كانت مكانته الاجتماعية وخدماته العامة، فان «مركوس مانليوس» الذي أنقذ الجمهورية من غزو الغاليين اتهم بالتآمر على انتزاع الحكم ، فقضى باعدامه ، وأعدم بالالقاء من صخرة تاربيا على قول البعض وجلد حتى الموت على قول البعض الآخر ، وصودرت أملاكه ، وأزيل منزله ازالة تامة . وفي عصر الامبراطورية وسعت نصوص الخيانة العظمى حتى شملت كل اعتداء على حياة الامبراطور وكل أعمال أو الفاظ تعتبر عيباً في ذاته حتى اعتبرت أهانة تمثال الامبراطور عيباً في ذاته . وقد اتخذ الامبراطرة منذ « طيباريوس » من هذا التشريع سلاحاً هائلاً لتوطيد دعائم استبدادهم ومطاردة كل نزعة حرة

يقول دوميشيان : «لا نصدق زعم الامراء بوجود المؤامرة حتى يقتلوا » وهكذا فان الشرائع القديمة لم تكن تعاقب على المؤامرة ذاتها ، وانما على نتائجها المادية . ولكن نظرية حديثة أخذت تنمو منذ القرن السابع عشر ترمى الى فرض العقوبة على المؤامرة ذاتها

حتى ولو لم تسفر عن نتائج مادية . وتطورت هـذه النظرية حتى أصبحت قاعدة من قواعد التشريع الحديث تشمل كل اتفاق على ارتكاب جريمة . بل ذهب بعض الشراح الى أبعد من ذلك فقال بأن اتفاقاً يعقد بين الاشخاص قد يعتبر جريمة حتى ولو كانت الغاية التي يرمي لها مشروعه . ولكن الراجح هو أن الاعمال الفردية في ذاتها يجب أن تكون جريمة اذا لم تكن الغاية في ذاتها جنائية والا فقد عنصر الاجرام

ويعتبر الشراح ان هنالك مؤامرة معاقباً عليها في أحوال ثلاث : الاولى اذا كانت الغاية جنائية في ذاتها ، الثانية اذا كانت الوسائل جنائية وان كانت الغاية مشروعة ، الثالثة اذا كانت الغاية قصد الاضرار بشخص أو طائفة من الناس ، في حين أن نفس الغاية اذا تحراها فرد واحد فقد تترتب على عمله مسئولية مدنية فقط

٢ ـ وأهم أركان المؤامرة هو الاتفاق السري ، أو بعبارة أخرى هو التآمر ، ويجب أن يكون هذا الاتفاق جنائياً سواء من حيث الغاية أو الاعمال الفردية . ووجه الخطر في هذه القاعدة هو أن القانون هنا يكاد يذهب في العقوبة الى حد المعاقبة على النية ذاتها حتى ولو لم تقترن بأي عمل مادي ، في حين أن من المبادىء المقررة أن قانون العقوبات لا يعاقب أصلاً على نية لم تقترن بالتنفيذ . ولكن يرد على ذلك بأن واقعة الاتفاق ذاتها قد تكوّن العمل المادي المطلوب وأن اجتماع النية أو الكلمة من جانب الجماعة على ارتكاب أمر من الامور ، قد يكون في ذاته خطراً ، وقد يخيف أو يضر حيثما لا يستطيع الفرد الواحد ذلك

وتستند معظم الشرائع الحدثة الى هذه المبادىء في تعريف المؤامرة وفي أحكامها فيعرفها القانون الانجليزي مثلاً بأنها : «اتفاق بين شخصين فاكثر على القيام بأعمال غير مشروعة قد لايكون معاقباً عليها اذا ارتكبها شخص واحد لا يعمل بالاتفاق مع آخرين ، أو القيام بأعمال مشروعة بوسائل غير مشروعة »

ويمثل الشراح الانجليز لغايات المؤامرة المعاقب عليها بالأمثلة الآتية : (١) ان تتهم شخصاً آخر كذباً بارتكابه جريمة معاقباً عليها سواء أكانت بقصد الاضرار أم الانتقام أم بقصد اغتصاب المال (٢)، ان تضر بسوء قصد شخصاً أو هيئة من الناس بصورة من الصور (٣) أن ترتكب جريمة معاقباً عليها (٤) أن تقوم بأي عمل لاعتراض سير العدالة (٥) أن يتآمر العمال للعمل على رفع الأجور (٦) أن تدبر مزادات صورية أو تذاع اشاعات كاذبة من شأنها رفع الأثمان في الأسواق. وهذه هي طائفة من أهم الوقائع التي يضعها القانون الانجليزي في صف المؤامرة المعاقب عليها ، وهي الغالبة في سوابق القضاء الانجليزي ، لان المؤامرة السياسية قلما تقع اليوم في انجلترا واذا وقعت طبقت عليها أحكام الخيانة العظمى

ويعرف القانون الامريكي المؤامرة بانها : « اتفاق بين شخصين أو اكثر على تدبير أعمال لتحقيق غاية اجرامية أو غير مشروعة أو تحقيق غرض مشروع أو غير اجرامي ولكن بوسائل غير مشروعة »

٣ ـ والقانون الفرنسي أوسع في النص على أحكام المؤامرة ولا سيما المؤامرة السياسية . ويرجع ذلك الى الظروف التاريخية التي وضعت فيها هذه النصوص ، فان المؤامرة السياسية لبثت ، كما رأيت ،

عنصراً من عناصر النضال السياسي في فرنسا حتى أيام الامبراطورية الثانية . وتعرف النصوص الفرنسية المؤامرة بانها : « اعتزام عمل تقرر ودبر بين شخصين أو عدة أشخاص اما لقلب النظام الجمهوري أو تحريض السكان على رفع السلاح في وجه السلطة الرئيسية أو أية سلطة عامة أخرى ، أو تحريضهم على أعمال التخريب أو السفك أو النهب » وتنفيذ الجريمة أو الشروع فيها وحدها يكونان العمل المعاقب عليه (المواد من ٨٦ ـ ٩١ من قانون العقوبات الفرنسي)

ولكن القانون الفرنسي تناول أيضاً مسألة النية والاعمال التحضيرية التي لم تقترن بالتنفيذ فعبرعنها بلفظة Complot أو التخرب وفصل أحكامها كما فصل أحكام المؤامرة. ويستفاد من نصوص المواد ٨٧ و ٨٩ و ٩١ من قانون العقوبات أن التحزب « الجنائي » قد يقصد به التآمر أو التحريض على الهياج لتحقيق احدى النتائج الآتية : (١) هدم الحكومة القائمة أو تغييرها اعني اقامة حكومة غير تلك التي أقيمت وفقاً لنصوص الدستور كاقامة الحكم الملكي مكان الحكم الجمهوري (٢) تحريض السكان على التسلح ضد السلطة القائمة (٣) اثارة الحرب الاهلية بطريق اشهار السلاح أو تحريض الاهالي على قتال بعضهم بعضاً (٤) التحريض على ارتكاب التخريب أو السفك أو النهب في مقاطعة أو عدة مقاطعات . ويتبع القانون في فرض العقوبة سير التحزب الجنائي أو الاعمال التحضيرية من حيث الاهمية والخطورة فيقسم العقوبة الى أربع مراحل : الأولى مرحلة الاقتراح الذي يصدر لتدبير مؤامرة ولا يعمل به ، ويعتبر ذلك جنحة بسيطة. والثانية مرحلة الاتفاق الجنائي ذاته فأصدار الاقتراح

وقبل ، فان قبول شخص أو أشخاص بغير وجه الجرم

وتنص المادة ٨٩ ، على انه يعتبر ان هنالك تحزباً جنائياً متى وضعت خطة التنفيذ وتقررت بين شخصين أو اكثر ولكن العقوبة هنا لا تتجاوز الحبس أيضاً . والثالثة مرحلة الاعمال التحضيرية للتنفيذ (المادة ٨٩ أيضاً) ، وهنا يتخذ الجرم صفة الخطورة ويغدو جناية معاقباً عليها بالنفي اذا أسفرت الاعمال التحضيرية عن ارتكاب عمل ، أو بدء في ارتكابه بقصد التنفيذ

وتشمل الاعمال التحضيرية كل الخطوات التمهيدية مثل شراء الأسلحة والذخائر ، وتعيين محلات الاجتماع أو مستودعات السلاح ولكن الخطب والمقالات لا تدخل ضمن هذه المرحلة . والرابعة هي الأعمال التنفيذية ذاتها أو الشروع فيها . وتبدأ هذه الأعمال بالبدء في ارتكاب العمل المعاقب عليه ذاته وتنفيذه تنفيذاً جزئياً أو كلياً ، مثل اجتماع المتآمرين ، أو سيرهم الى مكان الهجوم ، او الهجوم ذاته . والشروع كالتنفيذ يكون الجريمة الكاملة ، التي يكون الغرض منها طبقاً لما نصت عليه المادة ٨٧ « هدم الحكومة القائمة أو استبدالها . . . أو تحريض الاهالي على رفع السلاح ضد السلطات القائمة » والعقوبة هنا هي النفي . وتكون العقوبة الاعدام « اذا كان الشروع يراد به اثارة الحرب الاهلية سواء بتسليح الناس أوحملهم على التسلح بعضهم ضد بعض سواء بقصد التخريب أو السفك أو النهب » (مادة ٩١ فقرة أولى) وأما الاتفاق الجنائي الذي يراد به ارتكاب إحدى هذه الجرائم أو الاقتراح الذي يصدر باجراء هذا

الاتفاق فيعاقب كل منهما بالعقوبات التي نص عليها في المادة ٨٩ طبقاً للحدود التي قررتها (مادة ٩١ فقرة ثانية)

القانون المصري

٤ ـ ونقل الشارع المصري هذه النصوص الفرنسية ، ووضعها في باب خاص عنوانه « في الجنايات والجنح المضرة بأمن الحكومة » مبتدئاً بالمادة ٧٠ . ولكننا نجد تعريف المؤامرة الحقيقية في المادة ٨٠ وان كانت لفظة المؤامرة ذاتها لم تذكر . فهي تنص على أنه « اذا تحزب جماعة خفية وصمموا متفقين على فعل احدى الجنايات المذكورة في مادتي ٧٧ و ٧٨ يعاقبون بالاشغال الشاقة المؤقتة اذا ألحقوا هذا التحزب بأفعال مجهزة وشرعوا فيها بقصد تتميم ما صمموا عليه ولو لم يترتب على ذلك حصول مقصودهم . وأما اذا لم يلحق التحزب المذكور بتلك الافعال فيعاقب المتحزبون بالسجن . وأما اذا دعا شخص أحداً الى التحزب على فعل الجنايات المذكورة في المواد السابقة،ولم يجبه الى ذلك عوقب الداعي بالحبس »

والجرائم المذكورة في المادتين ٧٧ و ٧٨ المشار اليهما هي تحريض السكان على حمل السلاح لقتال الحكومة (مادة ٧٧) والاغراء الذي يقصد به تحريض سكان القطر على مقاتلة بعضهم بعضا أو على تخريب جهة أو اكثر أو على قتل أو نهب سكانها (مادة ٧٨) والعقوبة المنصوص عليها هي الاعدام في الحالة الاولى اذا تمت الجريمة والاشغال الشاقة المؤقتة اذا لم تتم ، وفي الثانية هي الاعدام سواء تم المقصود من الجريمة أو ظهرت بعض مباديه فقط . وظاهر

أن هاتين المادتين مأخوذتان مباشرة من المادة ٩١ فرنسي التي تقدم شرحها . وأما المادة ٨٠ ، فهي مادة التآمر على ارتكاب احدى الجرائم المذكورة في هاتين المادتين ، وقد أخذت عن المادة ٨٩ فرنسي التي تقدم شرحها ايضاً ، وهي تضع لسير المؤامرة أو (التحزب) نفس المراحل التي تضعها المادة الفرنسية

٥ ـ وكان قانون العقوبات المصري يقف في النص على المؤامرة وعقوبتها عند هذا الحد إلى سنة ١٩١٠ . ولكن حدثت في فاتحة ذلك العام جريمة مقتل رئيس الوزارة المصرية بطرس باشا غالي ، وارتكبها شاب ثبت انه ينتمي لجماعات سرية معينة ، وأن آخرين اشتركوا معه في التفكير في ارتكاب هذه الجريمة ولكنه انفرد دونهم بالتنفيذ ، ولم يجد القضاء يومئذ سبيلاً إلى معاقبة أولئك الشركاء الذين تبادلوا الرأي مع القاتل ولم يكونوا محرضين له أو شركاء معه في التنفيذ . وعندئذ فكرت الحكومة أن تكمل ماينقصها من التشريع في هذا الشأن بوضع الباب الخامس مكرر من الكتاب الاول من قانون العقوبات وهو باب الاتفاقات الجنائية (قانون ١٦ يونية سنة ١٩١٠) وهو يتألف من مادة واحدة هي المادة ٤٧ مكررة . ولكنها مادة شهيرة في تاريخ التشريع الجنائي المصري ، لانها وضعت في ظروف سياسية معينة ، ولمطاردة نواح معينة من النشاط السياسي وهي فوق ذلك مادة شاملة شديدة المرونة واليك نصها :

« يوجد اتفاق جنائي كلما اتحد شخصان فاكثر على ارتكاب جناية أو جنحة ما أو على الاعمال المجهزة او المسهلة لارتكابها ويعتبر الاتفاق جنائياً سواء أكان الغرض منه جائزاً أم لا إذا كان ارتكاب

الجرائم أو الجنح من الوسائل التي لوحظت في الوصول اليه

« كل من اشترك في اتفاق جنائي سواء كان الغرض منه ارتكاب الجنايات أم اتخاذها وسيلة للوصول إلى الغرض المقصود منه يعاقب لمجرد اشتراكه بالسجن

« فاذا كان الغرض منه ارتكاب الجنح واتخاذها وسيلة للوصول اليه يعاقب الشريك بالحبس

« كل من حرض على اتفاق جنائي أو تداخل في إدارة حركته يعاقب في الحالة الاولى من الفقرة السابقة بالاشغال الشاقة المؤقتة وفي الحالة الثانية بالسجن

« ويعفى من العقوبات المقررة في هذا الباب كل من بادر من الجناة باخبار الحكومة بوجود اتفاق جنائي وبمن اشتركوا قبل وقوع جريمة أو جنحة وقبل بحث وتفتيش الحكومة عن أولئك الجناة »

وقد عددت المذكرة الايضاحية لوزارة الحقانية اسباباً عدة لوضع هـذه المادة منها : ان هذا التشريع موجود في معظم قوانين الامم المتمدنة، إذ الواقع انه قد اشتق من نصوص القوانين الفرنسية والايطالية والبلجيكية ، وان الحكومة أرادت به « أن تضرب على يد الاجتماعات أو الاتفاقات التي يكون العبث بالنفس أو الاموال أو الهيئة الاجتماعية غرضاً من أغراضها أو وسيلة من وسائل تحقيق الغرض المذكور » . ووضعت لجنة مجلس شورى القوانين إذ ذاك ملاحظاتها على هذا التشريع في مذكرة تعارض بها بعض نقط المشروع في ضعف وتردد . ولكن التشريع صدر بنصه الذى

استثارته الحكومة . وأيده المستشار القضائي في فصل مسهب من تقريره عن سنة ١٩١٠ ختمه بهذه العبارة :

« وبالاختصار يجدر بنا أن نلفت الانظار إلى ان القانون الجديد لم يكن ـ كما توهم بعضهم ـ نتيجة رد فعل بقصد التضييق على حرية الاجتماع فان الحكومة لم تفكر مطلقاً في مخالفة سياستها السمحاء في هذا الموضوع وقد حافظت عليها للآن مثل أشد حكومات أوربا تمسكاً بالنظامات الديموقراطية . إنما لا يجوز لاي مجتمع تام النظام أن يبدي من التساهل ما ييسر لمن يتآمر على السوء ارتكاب أفعال منكرة ومضرة أوسبيل تحقيق غايات سياسية بوسائل العنف والاكراه »

على انه مهما كانت قيمة الاسباب التي التمستها الحكومة في مذكرتها الايضاحية والتي اوردها المستشار القضائي في تقريره لتبرير هذا التشريع الاستثنائي الجديد فان وضع المادة ٤٧ مكررة قد أثار بحق ريب المشتغلين بالحركة الوطنية . ولنا بعد كل شيء أن نرى في غموضها ومرونتها الشديدة سلاحاً خطيراً يمكن إشهاره لشل كثير من نواحي النشاط السياسي المشروع وان كان مما يبعث إلى الرضى انها لم تطبق حتى اليوم الا في احوال نادرة قليلة الاهمية

الشريعة الاسلامية

٦ ـ ليس في الشريعة الاسلامية أثر لكلمة التآمر والمؤامرة . ولكننا نستطيع أن نجد في احكام البغاة في كتاب الحدود (العقوبات) ـ من النصوص ما يمكن أن يطبق على المؤامرة السياسية . والمقصود

بالبغاة جماعة الخارجين على الامام أو الحكومة الشرعيـة القائمة . وتقضي الاحكام الشرعية بانه يجب طاعة الامام الكامل في كل مايأمر به ما لم يكن معصية وان أحكام الامام ومن ولاه نافذة . والمقصود بالامام خليفـة المسلمين أو بالحرى حكومته القائمة . فاذا خرج على إمام المسلمين أو عن طاعته طائفة ذات شوكة فانه يباح للامام قتالهم حتى يفيئوا الى امر الله اي يثوبوا او يذعنوا ، فاذا فاءوا كف عنهم . وللائمة والمتشرعين شروح كثيرة في احكام هذا الخروج وفيما يسوغ للامام ان يوقعه بالبغاة من عقاب . وظاهر ان المقصود هنا هو الثورة السياسية العلنية ، ولكن المؤامرة ايضاً وسيلة من وسائل الثورة السياسية . وقد اعتبر الفقهاء اهل صفين المطالبين بدم عثمان ، والخوارج ، بغاة تجب حربهم . وقد تختلف صفة البغي باختلاف الحكومة القائمة وشرعيتها ، غير ان بعض الفقهاء يرى تحريم الخروج على الامام حتى ولو كان جائرا . ولكن بعضهم يقدم عن خروج الحسين على يزيد بن معاوية مثلا اعذاراً لا تتفق مع هذا المبدأ . على ان الحكم بصفة البغي من عدمه على ثورة او مؤامرة تدبر انما يكون للقوة وحدها ، فاذا استطاعت الحكومة القائمة ان تخمد الثورة او المؤامرة كان مدبروها بغاة وعوقبوا ، وان ظفر بها الثوار والمتآمرون كانوا ابطالاً وكانوا منقذين . وقد كان هذا وما يزال مصير كل ثورة وكل مؤامرة خلال العصور . وعلى ذلك فان احكام الشريعة الاسلامية في هذا الشأن ، كاحكام كل تشريع آخر ، تتطور بتطور الظروف السياسية ومزاعم الفرق والاسر المختلفة ، ويتوقف تطبيقها دائماً على ارادة الظافر .

٧ . ـ وقد رأيت ان جميع الشرائع تفرض منذ اقدم العصور للمؤامرة اشد العقوبات . والاعدام عقوبة شائعة للمؤامرة السياسية أو العسكرية الخطرة . وكان الاعدام يتخذ في العصور الغابرة أروع الاشكال . ثم كانت الوان العذاب البربرية ومصادرة الاملاك ، ومعاقبة الاهل ، كلها عقوبات تبعية تقترن بحكم الاعدام . وقد اشرنا فيما تقدم الى ان « ماركوس مانليوس » الذي انقذ رومة من غزو الغاليين ، حينما اتهم بالتآمر على قلب الحكومة ، اعدم بالالقاء من صخرة تاربيا على قول مؤرخ ، وبالجلد حتى الموت على قول آخر ، ونزعت املاكه وازيل منزله . وفي القانون الروماني فوق ذلك خاصة غريبة في عقوبة جرائم الخيانة العظمى ـ والمؤامرة احدى هذه الجرائم ـ هي انه يجوز محاكمة المتهم والحكم عليه حتى بعد موته حتى يقرن اسمه بالعار ، وحتى تنزع املاكه لحساب الدولة . وقد ادخل هذا المبدأ البربري ايام طغيان الامبراطرة . ولكن الغريب انه ادمج في شرائع بعض الامم المحدثة مثل فرنسا ، واسكتلندة ، وبقي يطبق فيهما حتى اوائل القرن السابع عشر . واليك بعض الامثلة :

كان نيقولا لوت وهو موظف بوزارة الداخلية في عهد هنري الرابع ملك فرنسا ينقل الى ملك اسبانيا كل مداولات مجلس الوزارة الفرنسي ، فنما اليه ان امره اكتشف ، وفر في الوقت المناسب ، ولكنه غرق امام مطارديه في نهر المارن . فاخذت جثته

الى باريس ، حيث اتهم بالخيانة العظمى في ١٥ مايو سنة ١٦٠٤ ، وحكم بان توضع جثته على لوحة ، وان يفصلها اربعة جياد الى اربع قطع . وكان تمزيق الجسم الى اربع بواسطة اربعة جياد عقوبة شائعة لجرائم الخيانة في فرنسا . وكانت فوق ذلك تقترن أحياناً بالوان رائعة من العذاب كما حدث في حادثتي « رافياك » قاتل هنري الرابع ، وداميان الذي حاول قتل لويس الخامس عشر . وفي كلتا الحادثتين حكم بازالة المنزل الذي ولد فيه المتهم طبقا للعادة الرومانية وعوض صاحبه عن ثمنه .

ووقعت في اسكتلنده عدة محاكمات عن جرائم الخيانة العظمى بعد الوفاة في عهد جيمس السادس . ففي يناير سنة ١٦٠٣ اتهم فرنسيس موبري بارتكاب الخيانة العظمى وقتل اثناء محاولته الفرار من قصر ايدنبورج فصدر قرار ملكي بان تحمل جثته الى قاعة المحكمة . وصدر الحكم بان « تقطع اطرافه كخائن ، وان تعلق جثته في مشنقة ، ثم تقطع بعد ذلك الى اربع ، وتعلق رأسه واطرافه في جهات ظاهرة من مدينة ايدنبورج ، وان تنزع املاكه كلها » . وحدث في قضيتين أخريين ان اخرجت عظام المتهم الميت من المقبرة وحملت الى قاعة المحكمة . وفي عهد هذا الملك ايضا اتهم ارشبالد كرنوال وهو ضابط في بوليس ايد نبورج بانه حاول ان يعلق صورة الملك فوق المشنقة ، فحكم بشنقه على نفس هذه المشنقة حتى مات ، وقضى بان يبقى معلقا بعد الوفاة اربعا وعشرين ساعة وان تعلق على جبينه ورقة ، يكتب فيها خلاصة تهمته

وقد رأيت أن القانون الفرنسي يفرض الاعدام عقوبة للمؤامرة

في بعض أحوالها ، وقد حذا حذوه القانون المصري في شرعة الاعدام عقوبة لمثل هذه الاحوال (مادة ٧٧ ـ ٨٧)

وسترى فيما نقص عليك من سير المؤامرات السياسية خلال العصور المختلفة ان فقد الحياة كان في أحيان كثيرة أقل ما يصيب متآمراً أخفق. على ان روعة العقوبات البربرية التي تفرض للمؤامرة في تلك العصور كانت ترجع في الواقع الى ضخامة الغايات التي كانت قبلة المتآمرين من المتطلعين الى الرياسة ، فما الحياة شيء في سبيل احراز ملك وسلطان

الكتاب الثانى

المؤامرات السياسية

في العصر القديم

الفصل الاول

المؤامرات السياسية فى فارس واليونان

(١) المؤامرة ترجع الى اقدم عصور المجتمع . المؤامرة فى مصر القديمة . المؤامرة فى عهد الملوكية اليهودية . هيرودوت اقدم مصادر التاريخ . (٢) المؤامرات فى فارس القديمة . مؤامرة سمرديس الزائف استيلاؤه على العرش . مصرع قمبيز . مؤامرة دارا الأكبر . حكمه لفارس (٣) المؤامرة فى الجمهوريات اليونانية . النظم السياسية فى اليونان القديمة مؤامرة بسسترات . اغتصابه لحرية اثينة . بسسترات وصولون (٤) هبياس وهيبارك ولدا بسسترات . هرموديوس وارستجتون بطلا الحرية الاثينية . مقتل هيبارك . فشل المؤامرة . مصرع المتآمرين وتخليد ذكراهم . طغيان هبياس . تغلب آل الكميونيد . تألب الجمهوريات اليونانية على اثينة . خطاب سوسكليس فى الطغيان والحرية (٥) مؤامرة سينادون لتحرير اسبارطة . تموليون محرر كورنث

١ — يرجع تاريخ المؤامرة السياسية ، الى أقدم عصور التاريخ المعروفة ، بل يرجع الى ماوراء ذلك — الى عهد الاساطير ، وماقبل التاريخ . أو بعبارة أخرى يرجع الى يوم انتظم البشر الى مجتمع ، وجازت الانسانية طور البداوة والهمجية الى طور الاستقرار والانتظام . والمؤامرة السياسية كما رأيت وليدة الملك السياسي . وقد

وجد الملك السياسي في أقدم الجماعات البشرية . غير ان التاريخ لم يدوّن من سير العصور الغابرة سوى لمحات ضئيلة لا نظفر منها بآثار شافية من المؤامرات التي كانت بلا ريب تضطرم في هاتيك العصور حول كل عرش وكل ملك . وقد عرفت مصر أقدم ملك سياسي ، وأقدم مجتمع منظم وأقدم مدنية باهرة . ولكن تاريخ مصر القديمة وخصوصاً في عصوره الاولى ، ما زال في كثير من نواحيه موضع الجدل الكثير . وليس من ريب في أن المؤامرة كانت سلاحا ذائعاً في قصور مصر ، وفي معابدها ، وفي جيوشها ، لانتزاع الملك والرياسة ولكنا وتاريخ مصر الغابرة ما يزال مجموعة من ضروب الحدس والاساطير نؤثر الاغضاء عن محاولة استعراض ما أدته المؤامرة في انقلابات مصر الغابرة ، وماكان لها من أثر في قيام دولها وأسرها المختلفة .

وقد أدت المؤامرة السياسية دوراً كبيراً في تاريخ الملوكية اليهودية الغابرة في عصور لم يتوفق الى ضبطها التاريخ ولكن الاساطير الدينية تقدم لنا عنها بعض الروايات . ويكفي أن نمثل هنا بما أشرنا اليه في المقدمة بسيرة داود . فانه لم يكن كما رأيت الا مغتصباً انتزع الملك بالتآمر . وكان ظهوره في أيام شاءول . وكان شاءول ملكاً حازماً شجاعاً انقذ بني اسرائيل مراراً من وثبات القبائل المتوحشة . ولكنه خرق الفروض والنصوص المقدسة ، وخالف أوامر النبي صموئيل . وكان جوليات فارساً من الاعداء شديد البأس لم يجرأ على نزاله أحد من بني اسرائيل . فتقدم لنزاله في النهاية فتى منهم يدعى داود ، جميل الطلعة ، وافر العزم وقتله . وكان شاءول قد هرم

ومرض ، وكان يأنس راحة وسلوى في سماع الموسيقى ، وكان داود بارعاً فيها فقربه اليـه . ثم عينه لمركز في قيادة الجيش . ثم زوجه باحدى بناته . ولبث داود يسمو في المكانة والنفوذ حتى خشي شاءول منه وأضمر له الشر ، ففر الى النبي صمويل ، وأتمر معه على شاءول فبعث شاءول جنده في أثره ولبث يطارده حيناً وهو يفر من قبيلة الى أخرى ، ويجوز من خطب الى آخر حتى نشبت الحرب بين بني اسرائيل وبعض القبائل وفيها قتل شاءول وولده ، فانتهز داود الفرصة لانتزاع السلطة وجلس على عرش بني اسرائيل ، وأسس بيت المقدس ، وأنشأ فيها بلاطاً فخماً . ولـكنه مالبث أن رأى ولده ابشالوم يتآمر ضده لاغتصاب العرش ثم يحشد الجند لقتاله ففر من عاصمته حيناً حتى هزم ابشالوم وقتل . وانفرد بالملك من بعد داود ولده سليمان

وأمثال هذه السير كثيرة في « الرواية المقدسة » ولـكنا لا نقف عندها لانها الى الاسطورة أقرب منها الى التاريخ

والحقيقة أن « تاريخ » هيرودوت هو أقدم وأدق ما لدينا من أنباء العصور الغابرة وفيه فقط نستطيع أن نظفر بكثير من سير المجتمعات القديمة سواء في مصر أو فارس أو في الجمهوريات اليونانية غير ان هيردوت لم يعن في روايته عن مصر الا بشئونها الاجتماعية التي شهدها بنفسه وصورها أقوى تصوير ، ولم يتعرض لتاريخها السياسي . ولـكنه بالعكس يفيض في شرح انقلابات فارس السياسية لارتباطها في العصور التي يتحدث عنها أشد الارتباط بمصائر اليونان ومن ثم فانا نبدأ تاريخنا هذا بالعصور التي يتحدث عنها أب التاريخ

٢ – يفيض هيرودوت في تاريخ فارس في العصر الذي يرتبط فيه بتاريخ اليونان لانه يكاد يكون معاصراً له ، ولانه من أبناء إحدى المقاطعات الفارسية في آسيا الصغرى. وقد عاش حيناً تحت النير الفارسي، وطاف كثيراً من الولايات الفارسية. ومن ثم فانه يسرد باسهاب ودقة تفاصيل المؤامرة الكبرى التي فقد فيها قمبيز فاتح مصر عرشه وحياته وهي من أغرب مؤامرات التاريخ القديم وأعمقها أثراً في سير حوادثه


هيرودوت

وبطل هذه المؤامرة الشهيرة هو سمرديس ، المعروف بالزائف أو الساحر. وسمرديس هو ولد سيروس الكبير ملك فارس، وقد توفي قتيلاً بتحريض أخيه قمبيز حوالي سنة ٥٢٢ ق. م. واستأثر قمبيز بالملك. وسار الى مصر وافتتحها. ولكنه بينما كان في مصر ظهر في فارس شخص زعم أنه سمرديس ولد سيروس وانه نجا من القتل. وهو كاهن مشعوذ ، اتفق مع أخيه بازتيس على الاستفادة من مشابهته العجيبة لسمرديس المقتول ، واغتصب العرش ونادى بنفسه ملكا وحكم بالفعل بضعة أشهر. وكان الكهنة من ورائه يريدون بتلك المحاولة انتزاع السلطة الزمنية. فلما علم قمبيز بذلك الخطب قرر أن يعود من فوره لمحاربة المغتصب. ويقول هيردوت انه حينما أراد الوثوب الى ظهر جواده خرج سيفه من غمده عفواً

وجرحه في فخذه جرحاً بالغاً لم يلبث أن أدى الى وفاته . ولكن الظاهر ان قمبيز آثر الانتحار اتقاء للعار والخيبة كما يستفاد من بعض نقوش فارسية وجدت في بهستان . فكان مصرعه على هذا النحو عقاباً له على ما أوقع بمصر وشعبها من صنوف السفك والاثم . وكاد يطول ملك الساحر لولا ان فتى من أشراف الفرس يدعى دارا بن هيستاب ، وهو سليل أسرة حكمت فارس من قبل ، أقسم أن ينتقم من المغتصب ، وان ينقذ النبلاء والشعب من قبضة الكهنوت . فدبر مع ستة من كبار الاشراف مؤامرة محكمة ، ووثبوا ذات يوم بالساحر وشيعته وقتلوهم جميعاً

وكان نسل سيروس الكبير قد انقرض بموت ولديه سمرديس وقمبيز ، فحار الاشراف السبعة بعد مقتل الساحر في أمر من يتولى العرش ، واختلفوا فيما بينهم . ويقال أنهم اتفقوا على مباراة غريبة هي أن يكون العرش لمن يسبق جواده جياد الآخرين بالصهيل عند مطلع الفجر . ويقال أيضاً ان رائض دارا قاد الى مكان الاجتماع فرساً فسبق جواد دارا بالصهيل، وبذلك فاز في المباراة واستولى على العرش سنة ٥٢١ ق . م .وهو فتى في نحو الرابعة والعشرين . وحاول أن يقوي مركزه بالمصاهرة والتحالف ، فتزوج من بعض بنات سيروس الكبير ، ومن ابنة أوتانيس أحد الاشراف السبعة الذين تآمروا معه على سمرديس . وقسم فارس الى مقاطعات مركزية ، ونظم الجيش ، وامتدت فتوحاته من السند الى مقدونيا ، ولكن اليونانيين هزموا جيوشه في موقعة ماراثون الشهيرة (سنة ٤٩٠ ق م .) واضطر ان يوجه شطراً من جهوده الى اتقاء مؤامرات حلفائه

السابقين . وتوفي وفارس أعظم ما تكون منعة وعظمة ورغداً . وهو الذي يعرف بدارا الاكبر [1]

٣ ـ وكانت الجمهوريات اليونانية القديمة مسرحاً لعدة مؤامرات شهيرة اعتبرت على العصور نماذج سامية للجهاد في سبيل الحرية ، وتقديس قضيتها . وكثيراً ما كانت مثل هرموديوس وارستجاتون وتيموليون وسينادون تذكي خيال عشاق الحرية ، وتدفع بخناجرهم الى صدور الطغاة المستبدين

وكانت المؤامرة أيضاً سلاح الطامعين في انتزاع الحريات من الجمهورية والاستئثار بالحكم المطلق . ويرجع ذيوع المؤامرة في يونان القديمة الى نظم الحكم التي كانت سائدة في مدنها ، فقد كانت مثلاً بديعاً للديموقراطية والشورى ، وكانت سيادة الامة ممثلة في الجماعة والمجلس ، محوطة برعاية خاصة ، فاذا هبت ثمة ريح من الطغيان على مجتمع هذا شأنه من عصور ، فان الكرامة القومية ، وشغف الحرية ، وقدسية السيادة الشعبية لا تلبث أن تذكي روح التآمر ، وتحيط سلطان الطاغية بمعترك من المحاولات والدسائس التي ترمي الى اسقاطه وتحطيم سلطانه . وقد كان هذا شأن اثينة يوم انتزع حرياتها الجمهورية بسسترات ، وفرض عليها طغيانه المطلق . وكان بسسترات معاصراً للمشترع الحكيم صولون ، وُلد حوالي سنة ٦١٢ ق . م . وكان زعيم حزب سياسي معارض ، اذ يجب أن نعلم

---

(١) وهو ليس دارا المقصود بقول ابى البقاء الرندى فى مرثيته الاندلسية الشهيرة :

دار الزمان على دارا وقاتله ولم كسرى فما اواه ايوان

بل المقصود هنا هو دارا الثالث الذى حكم فارس من سنة ٣٣٦ ـ ٣٣١ ق . م ومات قتيلا بيد احد حكام المقاطعات

ان الاحزاب السياسية المختلفة كانت مزدهرة في الجمهوريات اليونانية ، وان النضال الحزبي ظاهرة قوية في الحياة السياسية اليونانية ، بله لقد سنّ صولون قانوناً يعاقب كل فرد لم يلتحق بحزب من الاحزاب السياسية في المعارك التي تدور حول تسيير الشئون العامة.

وكان بسسترات ذكياً ، فصيحاً ، ذلقاً ، وافر الغنى ، ولد اسرة كبيرة ، بارعاً في الخداع والدس ، فاثر في الجماهير ايما تأثير ، واستغل معارك الاحزاب ، وجذب اليه الدهماء والعامة . وجرح ذات مرة فأمر ان يحمل الى الساحة العامة ، وهنالك أثار الشعب المحتشد بمنظره ، وبما اصابه من بطش السلطة القائمة في سبيل الحرص على مصالح الشعب . وعبثاً حاول صولون احد اعضاء المجلس ان يكشف للناس امره ومكره . ولكن احداً لم يصغ الى المشترع الحازم . وانشأ بسسترات لنفسه من الشعب حرساً خاصاً ، اخذ ينمو يوماً فيوما ، حتى غدا هو حاكم المدينة الحقيقي . ثم رفع قناعه ذات يوم ، واستولى على القلعة ، (مركز الحكومة) ونزع سلاح الشعب ، فاحتج صولون على ذلك الغدر ، وخرج شاهراً سلاحه رغم ثمانينه يحاول اثارة الشعب لاسترداد سيادته ، فرأى الرعب قد سمر كل انسان في مكانه ، فعاد الى بيته حزيناً ساخطاً . ولكنه علق سلاحه على جدار بيته دعوة الى الثورة ، محتقراً نصح الاصدقاء الذين حثوه على الفرار اتقاء لبطش الطاغية . على ان بسسترات كان احزم من ان يعرض مركزه للسقوط ، بالاعتداء على شيخ كصولون يوقره الشعب ويجله ، بل رأى ان يلتجيء اليه ليتوج سلطته بالصبغة الشرعية ، فاستماله ، واكرمه ، واستمده النصح .

فرأى صولون ان يذعن للظروف ، وان يعمل ما استطاع لصون قوانين الجمهورية . وابقى بسسترات معظم القوانين التي سنها صولون.


صولون

ولكن الشعب انتبه اخيراً من غفلته والتف حول زعيمين هما ليكورجوس ومجاسليس ، وثار على الطاغية ، وأخرجه من أثينة . ثم تزوج مجاسليس ابنة بسسترات وساعده على العودة . فثار الشعب واخرجه ثانية . ولكنه عاد فاخضع الشعب ، واستعاد سلطته وحكم هادئاً حتى توفي في سنة ٥٢٨ ق . م .

٤ ـ فترك الحكم لولديه هبياس وهيبارك . وكان هبياس حازما صارما . ويقول توسيديد انه انفرد بالحكم ، ولكن هيرودوت يقول ان اخاه هيبارك حكم معه . وفي عهدهما وقعت اشهر مؤامرة سياسية في تاريخ الجمهوريات اليونانية . وهي مؤامرة هرموديوس وارستجتون بطلا الحرية الاثينية . وكان الشعب الاثيني منذ استعبده آل بسسترات يضطرم شوقاً لاستعادة سيادته . فبرز من صفوفه رجلان هما هرموديوس وارستجتون . ويقول هيرودوت انهما ليسا اثينيين خالصين ، بل ينتميان في الاصل الى الفينيقيين الذين هبطوا اليونان منذ بعيد واسرتهما واحدة تسمى « جفرين »

استقرت في المبدأ في « بوتيا » ثم لجأت الى اثينة وحصلت على القومية الاثينية بشروط معينة . وعلى اي حال فقد اخذ هرموديوس وارستجتون على نفسيهما ان ينقذا اثينة من قبضة الطغاة . فدبرا مؤامرة محكمة ، واسعة النطاق ، والتف حولهما جمهور من الاحرار الناقين . ثم وثب المتآمرون ذات يوم بالطغاة ، فقتل هيبارك ، ولكن هيباس نجا وفشلت المؤامرة وقبض على المتآمرين ، وانتقم هيباس لاخيه بتعذيبهم اشنع عذاب واعدامهم جميعا . وكان من بينهم غانية اثينية تدعى ليانا ، هي خليلة هرموديوس او ارستجتون ، فعذبت لتعترف ، ولكنها آثرت ، على ما يروى ، ان تقطع لسانها باسنانها حتى لا تلجأ الى الاعتراف ، فخلدت لها بذلك في صحف الحرية أثراً لا يمحى . ولم ينس الشعب الاثيني ابطاله المجاهدين في سبيل حرياته ، فلما سقطت حكومة الطغيان بادر الى تخليد ذكرى اولئك المجاهدين ، فاحتفى بذكراهم في حفلات شائقة ، ونظم الاناشيد اشادة بشجاعتهم وحثاً على اقتفاء اثرهم ، واقام لهرموديوس وارستجتون تمثالين ما زالا قائمين في الاكروبولوس ، ولم ينس ليانا أيضاً فخلد ذكراها في مدخل الاكروبولوس بتمثال لبوة قطع لسانها

اما هيباس ، فساورته الشكوك ، وشابت الوحشية طباعه ، فمال على الاثينيين ، وبالغ في ارهاقهم . وحاول ان يوطد عرشه بالزوج من ابنة هيبوكليس طاغية لمبساك الذي كان صديقاً لدارا ملك فارس : ولكن الاثينيين لم يصبروا طويلا على بطشه ، فالتفوا حول اسرة « الكميونيد » المنفية وحشد آل الكميونيد جموعهم ، وما زالوا بالطاغية حتى أرغموه على ترك عرشه ، والفرار الى سيجوم على

ضفاف البوسفور. ولكن اللاسيديمونيين حاولوا التغلب على الاثينيين والاستبداد بالامر ، فلم يخضع لهم الشعب الاثيني الذي رأى أنه لم يفعل سوى ان استبدل طغياناً بآخر . فعولوا على استدعاء هيباس من منفاه ليعمل على اذلال الاثينيين ، فلبى الدعوة وأوفد الاسبارطيون ، أعداء الاثينيين ، وفداً لاستقباله ، فالقى الوفد خطاباً قال فيه : « انهم خدعوا واخطأوا بانتزاع الحكومة من صاحبها وتسليمها لشعب جاحد ، وأنهم سيحاولون اصلاح الخطأ الذي ارتكبوه والانتقام من الاثينيين باستدعاء هيباس ، واعادته الى الحكم ، فيردون اليه بذلك ما أخذوا منه». وكان حلفاء الاسبارطيين ماثلين في هذا الاجتماع فصمتوا جميعاً الا سوسكليس الكورنثي فانه نهض والقى خطاباً رناناً استهله بقوله :

« لا ريب ان السماء ستصبح أرضاً والارض سماء ، وسيعيش الناس منذ اليوم في الماء ، وتحل الاسماك مكانهم فوق سطح الارض ما دمتم أيها اللاسيديمونيون ترون اسقاط الحكومات الحرة في مدن اليونان ، واستبدالها بحكومات طاغية . لعمري أنه ليس في العالم كله أشد ظلماً ، وابلغ سفكاً من الاستبداد . فاذا خيل لكم أنتم أنه من المستحب أن تخضع المدن للحكم المطلق ، فابدءوا بطاغية لانفسكم ، ثم ضعوا الطغاة بعدئذ في الدول الاخرى . ولكن بينما نراكم كما كنتم ترغبون عن الطغيان ، وتحرصون كل الحرص على ألا يصيب اسبارطة شيء من شره ، اذا بكم تحاولون الآن أن تعاملوا حلفاءكم معاملة لا تليق بالكرامة . ولو عرفتم ما هو الطغيان كما عرفناه نحن ، لاحسنتم فيه الرأي باكثر مما تفعلون » وختمها

بقوله : « لقد دهشنا نحن الكورنثيون أعظم دهشة حينما علمنا أ أرسلتم الى هبياس ، ونزداد اليوم دهشة اذ نراكم تقولون ماتقولون انا نستحلفكم بآلهة اليونان المشتركة ألا ترفعوا الطغاة فوق مدنها . فاذا أصررتم وخرقتم بذلك كل عدالة بمحاولة اعادة هبياس ، فاعلموا على الاقل ، ان الشعب الكورنثي لن يوافق على تصرفكم » (١)

فلما رأى الحلفاء جرأة سوسكليس وروعة جنانه هتفوا جميعاً بتأييده ، وناشدوا اللاسيديمونيين ألا يضرموا الثورة في اثينة . وعلى ذلك اخفق المشروع وارتدَّ هبياس الى منفاه في سيجوم ثم تقرب من دارا ملك الفرس ليستعين به على استرداد ملكه . وسار مع الفرس الى ماراتون لمحاربة مواطنيه فهلك فيها عام ٤٩٠ ق . م .

٥ ـ ويقدم الينا التاريخ اليوناني مثلين آخرين للمؤامرات التحريرية ، الاول مثل سينادون الذي حاول ان يحرر شعب اسبارطة من بطش الارستوقراطية الحاكمة . وكان سينادون من فتيان لاسيديمونيا الذين تضطرم جوانحهم بشغف الحرية وبغض الطغيان ، وقد نشأ في تلك البيئة المسكينة التي سلخها البؤس من صفوف الحاكمين ودفع بها الى صفوف الضعفاء والمحكومين ، ففكر في تحطيم تلك الاقلية المتغلبة ، المستأثرة بالسلطان والرفاهية التي تسوم شعب الجمهورية بجورها أمرَّ صنوف العسف . ولقيت دعوته تأييداً كبيراً بين الطبقات المهيضة والموالي والمحررين والفقراء ، فدبر مؤامرة كبيرة للوثوب برجال الحكم ، ولكن خائناً فضح سره ، فقبض عليه وعذب ، فاعترف بعد أن جلد مع زملائه في شوارع اسبارطة ومات

(١) هيرودوت ـ الكتاب الخامس ـ فقرة ٩١

في أروع ألوان العذاب . (عام ٣٩٧ ق . م .)

والثاني مثل تموليون محرر كورنث . وهو قائد سياسي كبير ، قاد الجيوش اليونانية لمحاربة القرطاجيين في صقلية وسرقوسة . فلما ثار أخوه تيموفانس واستولى على قلعة كورنث محاولاً أن يغتصب حكومتها ، انضم الى جانب الاحرار المحتجين عليه ، وأقرّ معهم اعدامه . وبذلك أنقذت كورنث من طغيانه . وفي سنة ٣٤٤ ق. م. استغاث اهل سرقوسة بكورنث فانتخب تموليون لقيادة حملة الانجاد ، وسار الى صقلية وأنقذ سرقوسة بعد وقائع وخطوب . ولبث هنالك حتى توفي (عام ٣٣٧ ق . م .)

هذه خلاصة لاشهر المؤامرات السياسية في تاريخ الجمهورية اليونانية القديمة . وقد غاضت هذه النزعات التحريرية منذ استولت رومة على اليونان في القرن الثاني للميلاد وانهارت بذلك شخصيتها السياسية

الفصل الثاني

المؤامرات السياسية في رومة

(١) خواص المؤامرات الرومانية . الملوكيــة فى رومة . النظم الجمهورية . النضال بين الاشراف والكافة (٢) تأييد سبوريوس كاسيوس لمطالب الكافة . الخلاف على توزيع الاراضى . سياسة سبوريوس . اتهامه بالتآمر والخيانة . ماركوس مانليوس . جهاده لمساعدة الكافة . اتهامه وعقابه . سياسة ستولو وسكستيوس (٣) عود النضال . طيباريوس . جراكوس . خطته فى توزيع الاراضى . مقتـله . سبيوايمليانوس . اضطهاد الايطاليين . جايوس جراكوس وسياسته . مقتـله ومصرع أنصاره . ماريوس واحياؤه للنزعة الديموقراطية . الحرب الاجتماعيــة . فوز الايطاليين . نهوض صوللا . سفره الى المشرق . عودة ماريوس ووفاته . عودة صوللا . استئثاره بالسلطة . سياسـته (٤) انسحاب صوللا . نهوض المعارضــة . سرجيوس كاتلينا . أول مؤامراته . اتصاله بقيصر وشيشرون . المؤامرة الثانية . خطة المتآمرين . اطلاع شيشرون على سرالمؤامرة. تأهبه لمحاربة المتآمرين (٥) شيشرون وكاتلينا فى مجلس الشيوخ . بيان شيشرون عن المؤامرة . رد كاتلينا وفراره . استدراج المتامرين . محاكمتهم واعدامهم . خيبـة كاتلينا ومصرعه (٦) يوليوس قيصر . بدء نهوضه . بومبي وفوزه فى المشرق . خصومته لمجلس الشيوخ . اطماع قيصر . تحالفه مع بومبي وكراصوس . الثالوث الاول . فوز قيصر بكرسى القنصلية . سياسته ودعوة أنصاره . عودة شيشرون . تشهيره بسياسة قيصر . انحلال التحالف . وفاة كراصوس . وفاة جوليا ابنة

قيصر . بومبي قنصلا. سياسته فى الحكم . قيصر فى غاله . بدء الخصومة بينه وبين بومبي . الحرب الاهلية . مصرع بومبي وفوز قيصر . عودة قيصر الى الحكم (٧) عهد الطغيان . اطماع قيصر فى الملك . حقد الاشراف عليه . الائتمار لقيصر (٨) نشوء المؤامرة . كايوس كاسيوس . سبب بغضه لقيصر. ماركوس بروتوس. حقيقة دوره فى المؤامرة . نفوذه المعنوى . ازكاء المتآمرين لحماسته . وصف بلوتارخوس لبروتوس . (٩) استخفاف قيصر بالخطر . خواطره فى تحقيق الملك . اهبة المتآمرين . حفلة يدليس ، شهود قيصر للاجتماع . تحرك المتآمرين . احاطتهم بقيصر . الطعنة الاولى . خنجرا كاسكا وبروتوس . مصرع قيصر . فرار الشيوخ . الاضطراب فى رومة . مظاهرة القتلة . تحصنهم فى معبد جوبيتر . انطونيوس . شيشرون يطالب بالعفو العام . الاتفاق. وصية قيصر (١٠) تأملات فى شخصية قيصر . موقف شيشرون ازاء مقتله (١١) قيام الامبراطورية . اوكتافيوس . مؤامرة سنا . طيباريوس. كاليجولا . بطشه وبذخه . مؤامرة كيريا . مصرع كاليجولا (١٢) كلوديوس . نيرون . طغيانه وفجره وجشعه . استلابه للاموال الخاصة . مؤامرة بزو . فشل المؤامرة . مصرع الفيلسوف سنيكا . الامبراطرة . اسرى الحرس الامبراطورى

١ ـ ليس في سِيَر الامم ازهر من تاريخ رومة ، وأخصب في نظمه وحوادثه ، وأغزر في تقلباته السياسية وصوره الاجتماعية. وقلما تسجل سير الامم مؤامرات كالتي يعرضها تاريخ رومة من حيث بواعثها السياسية والاجتماعية وآثارها العميقة الحاسمة فاين يسجل التاريخ مثلاً مؤامرة تضارع في البواعث والخطورة مؤامرة كاسيوس وبروتوس التي ما زالت على كر العصور تعتبر مثلا اعلى للمؤامرات التحريرية ؟ ولهذه المؤامرات الرومانية ظاهرة تلفت النظر هي ان

استرداد الحقوق والحريات العامة ، أو انقاذ الشعب من بطش الطغاة ، كان الباعث لقيام معظمها وأهمها ، وان الاطماع والخصومات الشخصية اذا كانت تجثم من ورائها في احيان كثيرة ، فان الحقوق والحريات العامة كانت دائما ، حجتها ، الظاهرة على الاقل . ويرجع ذلك الى طبيعة النظم الرومانية ، وعراقتها في الحرية والديمقراطية فقد تخلصت رومة من ملوكها الطغاة منذ اواخر القرن السادس قبل الميلاد ، واقام الشعب الروماني لحكمه مجلسين ، يزاولان اثناء قيامهما سلطة ملوكية مطلقة . وكانت سلطة الملك الروماني في ذلك العهد عظيمة جداً ، فهو ملك مدى الحياة . وله حق مطلق في الحياة والموت ، ويد مطلقة في شئون الدولة ، وهو فوق ذلك كاهن الرومانيين الاكبر . وكانت الملوكية وراثية ، ولكن بالاسم ، لان الشعب كان ينتخب ملكه ولكن دائما مع مراعاة روابط الدم والاسرة . فلما نزع الملوك عرشهم ، قامت الجمهورية تستند الى مجلسين ينتخب كل منهما لعام واحد ، وهما « السناتو » (مجلس الشيوخ) واعضاؤه في الاصل ثلثمائة يمثلون القبائل الرومانية . وهذا المجلس هو الذي يختار الملك او الحاكم الاعلى ، ويسدي اليه النصح مدى حكمه ، ويقر القوانين قبل نفاذها . والى جانبه يقوم مجلس آخر هو « الكوريا كوميسيا » او « مجلس الاهالي » يصادق ايضاً على انتخاب الملك وعلى القوانين

وكان الشعب الروماني ينقسم بوجه عام الى قسمين كبيرين هما الاشراف ، والعامة (عامة الشعب) . ولهذا التقسيم أثر عظيم في صوغ الانظمة والشرائع الرومانية كلها وفي مجرى الحوادث في

التاريخ الروماني كله . وكان الاشراف اقلية ، ولكنهم كانوا على الاغلب اصحاب السلطة الحقيقية ، وان كان للعامة شيء من سلطة التصويت . وقد ثبت مما عاناه العامة في عصور الجمهورية الاولى من صنوف الجور والحرمان في كثير من الحقوق السياسية والدينية والاقتصادية ان استئثار طبقة ممتازة بالسلطة قد يكون شراً من استئثار الطاغية . ومن ثم كانت هذه العصور عهد نضال بين الطوائف . ولكن العامة استطاعوا شيئاً فشيئاً ان يستردوا كثيراً من هذه الحقوق ، فبدءوا بالحصول على نصيب في ملكية الاراضي العامة ، ثم على حق اختيار ممثليهم ، ثم استطاعوا ان يحملوا الجمهورية على اصدار قواعد عامة للتشريع هي المعروفة « بالثبوت الاثنى عشرة » وهي التي كانت اساساً لجميع الشرائع الرومانية . وما زال العامه يتقدمون في استرداد الحقوق العامة حتى طرحت المسألة الكبرى على بساط البحث وهو تقرير المساواة التامة بين الفريقين . وكان العامة قد اشتد ساعدهم يومئذ ، فاشتد النضال اعواماً طوالاً بين الفريقين حتى استطاع «كامليوس» الذي اختاره الاشراف حاكما بامره ان يوفق بينهما بدهائه وذكائه فحصل العامة على معظم الحقوق ، واحتفظ الاشراف بشيء من الامتيازات . واخيراً استطاع العامة ان يحرزوا شرف الرياسة وان يختار منهم قناصل وحكام بامرهم ، ومحيت كل الفوارق السياسية من بين الفريقين ولكن الفوارق الاجتماعية بقيت أسَّ النضال قرونا

٢ ــ ولم يكن هذا الايثار رأي جميع الزعماء الاشراف ، فكثيراً ما نرى من يتقدم منهم لتأييد العامة ، والدعوة الى المساواة .

وهذا هو مثل سبوريوس كاسيوس الذي انتخب قنصلا في سنة ٤٩٣ ق . م . فابى الا ان يكون زعيما شعبياً ، وكان جزاؤه ان اتهم بالتآمر وعوقب عقاب الخائن . وكان الاشراف يستأثرون كما قدمنا بملكية الاراضي والعامة يطالبون بالاشتراك في هذا الامتياز . وكان هذا النزاع يلقى تسوية مؤقتة كلما فازت رومة بافتتاح اراض جديدة لان العامة كانوا عندئذ يمنحون قسماً من الارض المفتوحة . فاذا ركدت ريح الفتح تعقد المشكل . وعندئذ يرفع العامة صوتهم بالشكوى ، ويقولون ان خير وسيلة لحسم النزاع هي توزيع الارض من جديد ، واقتطاع قسم مما احرزه الاشراف ليوزع بين العامة . وكان النزاع قد بلغ اشده في عهد سبوريوس كاسيوس فلم ير وسيلة لحله سوى وضع قانون زراعي ينظم توزيع الارض من جديد ، وحمل الدولة على توزيع جزء من املاكها بين الفقراء ، وحمل الاشراف على دفع جزء من ريع اراضيهم للدولة لتستعين به على مسألة الدفاع . ولكن هذه السياسة الحكيمة اثارت سخط مجلس الشيوخ والاشراف لأن الارض كانت مصدر ثروتهم وقوتهم . وكان سبوريوس قوياً ، شديد البأس فلم ير الشيوخ وسيلة لسحقه الا ان ينسبوا اليه تهمة الخيانة والتآمر على تسليم حقوق الدولة الى العدو في الخارج والى المارقين في الداخل ، وما زالوا في هذه الحملة عليه حتى انفض انصاره من حوله . فقبض عليه وتخلى عنه حتى اولئك العامة الذين دعا الى قضيتهم ، وعوقب بالجلد العام ثم بالاعدام

وفي غمار هذا المعترك هلك ماركوس مانليوس بتهمة التآمر ايضاً وكان مانليوس جنديا بارعا انقذ رومة من غزو الغاليين . وكانت

الحرب دائماً تزيد في بؤس الطبقات الدنيا ، وكانت حرب الغاليين شديدة الوطأة عليها بوجه خاص ، فاشتد بها الضيق واثقل كاهلها الدين وقسا الدائنون في المطالبة ، واستعملوا حقهم في الحبس [1] حتى غصت ساحات الأرقاء بالاسرى . فنشط مانليوس ، الى تخفيف البؤس وتقدم في طليعة الطبقات المسكينة ، وأنقذ بنفسه نحو اربعمائة مدين من السجن . فخاف الاغنياء من تلك الحركة ، وعهدوا الى الحاكم بأمره كوسوس أن يقمع الهياج . فقبض كوسوس على مانليوس (سنة ٣٨٥ ق . م) ، ثم أطلق سراحه خوفاً من هياج الشعب . ولكن الحكومة استطاعت أخيراً أن تغري اثنين من النواب باتهام مانليوس بالخيانة والتآمر . فقبض عليه ثانية . ولما سمع الشعب ان الرجل الذي أنقذ الجمهورية انقلب الى التآمر لاسقاطها واستبدالها بالطغيان تخلى عنه كما تخلى عن سبوريوس كاسيوس ، فقضي عليه بالموت ، وأعدم بالالقاء من صخرة تاربيا [2] وأزيل منزله الذي أهدته اليه الدولة من الاساس . ولكن ثائرة المعركة الكبرى بين

---

(١) كان التنفيذ على شخص المدين من خواص القانون الروماني فكان للدائن الذى لم يحصل على دينه ان يستصدر حكماً بان شخص المدين ملك له . وله بعد مهلة معينة أن يستصدر حكماً بسجنه لا فى داره ، ولكن فى احدى السجون العامة المعروفة بساحة الارقاء Ergastula . وفى وسعنا ان نجد نظيراً لهذا المبدأ العتيق فى الشريعة الاسلامية فى النص القاضى بحبس الزوج المحكوم عليه بنفقة شرعية اذا لم يوفق الى الاداء

(٢) نسبة الى « تاربيا » ابنة تاربيوس . وكان حاكم قلعة رومانية تقع على جبل ساتورنيا اوكابيتولين فيما بعد . وتروى الاسطورة ان تاربيا قد بهرت بما رأته فوق فرسان السابين من الاساور والعقود الذهبية ففتحت لهم احد أبواب القلعة ، فالقوا عليها دروعهم فسحقوها سحقاً . وقد سميت أكمة هذا الجبل بصخرة تاربيا نسبة اليها . ومنها كان يلقى الخونة ليلقوا حتفهم

الاشراف والعامة لم تهدأ حتى استطاع العامة أن يحرزوا نصراً حاسماً (سنة ٣٧٧ ق . م .) في عهـد النائبين لسنيوس ستولو وسكستيوس وهما اللذان انتخبا للنيابة عشرة أعوام متوالية واستطاعا بالحكمة والمثابرة أن يرفعا كثيراً من أوجه الايثار بين الفريقين وأن يضعا قاعدة ثابتة للتسوية بينهما في الحقوق العامة

٣ـ ولا بد لنا أن نتتبع سير هذا النضال الشعبي لكي نفهم حقيقة الظروف التي نشأت في مهادها بواعث المؤامرات التحريرية التي وقعت فيما بعد . فان الحروب السامنية والبونيقية واليونانية شغلت الشعب الروماني حيناً ، ووضعت حداً مؤقتاً للمعارك الداخلية . ولكن ريح الحرب ما كادت تخمد ، وتستقر الامور ، حتى عادت هـذه المعارك أشد من ذي قبل . وعاد النزاع القديم على توزيع الاراضي واشتد في عهد طيباريوس جراكوس الذي أحرز شرف النيابة (سنة ١٣٥ ق . م) وكان جراكوس ينتمي الى أشرف الأسر الرومانية ، ولكنه كان زعيماً شعبياً يقدر مطالب العامة ويعطف عليها . فرأى ان يصلح نظام توزيع الاراضي بتحديد المقادير التي تجوز حيازتها للأفراد ونزع جانب من أملاك الاشراف مع التعويض عنه لحساب الدولة وتوزيعه بين الفقراء . فأثارت سياسته كالعادة سخط الشيوخ والاغنياء ولـكنه استطاع ان يصدر القانون وان ينفذه قسراً فكان جزاؤه القتل غيلة . وعمل خلفه سبيوا إيمليانوس على نقض سياسته وتقوية حزب الشيوخ واضعاف الحزب الديموقراطي (الشعبي) . ولكنه توفي بعد قليل . وكان الايطاليون حلفاء رومة يرزحون تحت اعباء جمة من الايثار وانتقاص الحقوق العامة . وكانوا يحملون كل

تبعات الجنسية الرومانية ولا يتمتعون بشيء من امتيازاتها . وكان مجلس الشيوخ يأبى النظر في ظلامتهم حتى حاولوا الثورة سنة ١٢٤ ق . م . ولكن الثورة أخمدت بسهولة . وانتخب جايوس جراكوس أخو طيباريوس لمنصب النيابة بعد معارضة كبيرة سنة ١٢٣ ق . م . وكان مشرعاً عظيماً . وكان يرمي الى الانتقام لمقتل أخيه والى تحطيم سلطة الشيوخ ، وانصاف الايطاليين فنجحت سياسته الى حد كبير . ولكن محاولته انصاف الايطاليين والتسوية بينهم وبين الرومانيين ، أدت الى سقوطه ، فهاجمه حزب الشيوخ وقتل مع آلاف من أنصاره . ولم ينهض مجلس الشيوخ بعد ذلك قط من الضربة التي أنزلها به جراكوس. ولكن ذلك كان في نفس الوقت خطراً على سيادة الشعب ، لأن تحطيم الشيوخ مهد لقيام الملوكية . على ان حزب الشيوخ استطاع ان يهدم عمل الديموقراطية بعد وفاة جراكوس . ولم تحى النزعة الديموقراطية الا على يد ماريوس ارفع قواد الجيش ، فقد ادخل ماريوس عدة قوانين فيها مبادىء شبه ثورية ، ونفذها بالقوة . وعندئذ تألبت الطبقات الوسطى والشيوخ على تحطيم الديموقراطيين ثانية ، وان كان ماريوس قد انتخب بعد ذلك قنصلاً في عدة فرص متوالية . ووقف الشيوخ بعد ذلك في وجه كل اصلاح وتجديد

ثم ثارت الحرب الاجتماعية بين الايطاليين وروما ، ليظفر الايطاليون وحلفاؤهم بالحقوق الاجتماعية وفاز الايطاليون بادىء بدء ولكن لم يمض عام حتى زحفت عليهم الجيوش الرومانية بقيادة صوللا وسحقت الثورة . ولكن الحرب الاهلية ثارت على أثر ذلك . ففي سنة ٨٨ ق . م . انتخب صوللا قنصلاً . فحقد عليه ماريوس

وائتمر به لاسقاطه ، ففر صوللا الى جيشه ثم زحف على رومة ففر منها ماريوس الى افريقية . وعندئذ أعاد صوللا الدستور ، ونظم القبائل ، ثم سار بجيشه إلى آسيا لمحاربة ملك بونطوس فعـاد ماريوس إلى رومه ، وقتل كل خصومه ، وانتخب قنصلاً مع سنّـا سنة ٨٦ . ثم توفي ماريوس وأعيد سنا قنصلا . وفي ذلك الحين كان صوللا قد هزم جيوش بونطوس ثم عاد إلى رومه على رأس جيش ضخم ، واخترق ايطاليا سنة ٨٣ ، وسحق كل خصومه ، ودخل رومة ظـافراً ، واستأثر بكل سلطة ، وحطم كل معارضة ، وأعاد الدستور وعدله حتى يستطيع أن يهيمن على كل شيء ، فنزع « النواب » سلطاتهم ، وحدد سلطات القضـاة ، وجعل تصديق الشيوخ شرطاً لصدور كل قانون . والغى رقابة المراقبين لمجلس الشيوخ فاضحى المجلس كل شيء ، وعلى رأسه صوللا . ونفذ صوللا طائفة من الاصلاحات ، وقوى فروع الادارة ، ثم نزل عن « طغيانه » بعد ذلك .وكانت هذه السياسة خطراً على الحريات الديموقراطية لانها كانت أعظم سند لقيـام حكم قيصر المطلق ، وكانت فوق ذلك مبعث طائفة من المؤامرات الـكبرى

٤ ــ ذلك ان صوللا ماكاد ينسحب من الميدان حتى عاد الحزب الديموقراطي الى الحياة . وكان ثمة بين الديموقراطيين المعارضين شخصيات كبرى مثل يوليوس قيصر وشيشرون ، وكانت المعارضة أيضاً شعار نفر من النبلاء الذين بددوا تراثهم من النبل والمال في حياة البذخ والسفه والخلاعة ، ولم يروا غير المغامرة والتآمر وسيلة لاسترداد الجاه والمال . وكان سرجيوس كاتلينا ينتمي الى أعرق البيوتات

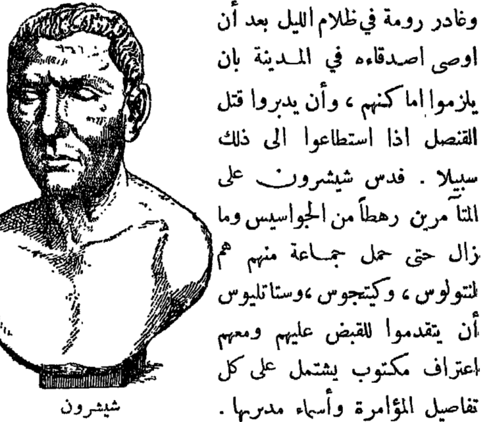
الرومانية ، وقد خدم في جيش صوللا فكان عنوانا للشجاعة والكفاية وكان جميلاً ، قوياً ، جسوراً ، ذلقاً اوكان بالحري نموذجاً خلاباً للفتوة والاناقة الرومانية . ولكنه كان في نفس الوقت خليعاً متهتكاً ، صارم الخلق ، لا يحجم عن اثم في سبيل شهواته . ومع ذلك فقد استطاع في مثل الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تسود المجتمع الروماني يومئذ ان يصل الى مرتبة الرياسة وان يعين حاكما لافريقية . فلما عاد الى رومة في (سنة ٦٥) اعتزم ان يرشح نفسه لشرف « القنصلية » . ولكنه لم يرد ان يقف عند الوسائل المشروعة في الكفاح السياسي ، فيروى انه تآمر جماعة من زملائه النبلاء المتهتكين منهم : بيزو ، واوترينوس ، على قتل المرشحين الفائزين واغتصاب الحكومة ، بل قيل بان هذه المؤامرة كانت تضم كراصوس ، وقيصر ، فيكون احدهما حاكما بأمره ، والثاني قائد الفرسان ، وان بيزو وهو حاكم مقاطعة في اسبانيا اخذ على نفسه امداد المتآمرين بعصابات مسلحة تناهض قوات مجلس الشيوخ التي يقودها بومبي . ثم يقال ان المؤامرة اكتشفت في حينها ، وان بيزو قتل غيلة . ولكن الاجراءات لم تتخذ ضد زملائه خوفا وحذرا . على ان ظروف هذه المؤامرة الكاتلينية الاولى ليست واضحة ، والجدل بشأنها كثير . واغرب ما فيها هو ان كاتالينا استطاع ان يتصل بشخصيات عظمى مثل شيشرون وقيصر وان يتمتع بثقتها . كان كاتلينا صديقهم الحميم بل كان امامهم ، وكان معبودهم ، وكانوا يكبرون فيه القوة ، والبراعة الرياضية . وهو ما يشف عن انحلال المجتمع الروماني عندئذ ، وتدهور خلاله ، وانحطاط معياره في التقدير ، وميله

الى تغليب الرعونة والخفة والخلاعة على التبصر والحزم والاحتشام.
وكان خروج كاتلينا من المؤامرة الاولى بريئاً طاهر الذيل ، عاملاً جديداً في ازكاء اطماعه ودسائسه ، فاعتزم ان يعيد الكرة . واخذ في تدبير مؤامرة جديدة يسحق بها سلطة الشيوخ ويشق طريقه الى الحكم ، والتف حوله في تلك المرة ايضاً نفر من النبلاء المفلسين في الخلق والمال ، الاغنياء في المغامرة والجسارة ، ومنهم اثنان من ولد اخي صوللا ، واوترينوس وكراصوس ، ونائب هوبستيا ، واثنان من آل كرنيلوس . وقيل ايضا ان القنصل انطونيوس كان على اتصال بخطتهم . وكان المتآمرون يعتمدون في تلك المرة على تأييد كل من حطمهم صوللا ، وعلى اثارة شهوة السفك والنهب في نفوس العامة ، ثم على نجدة كثير من الجند القدماء ، واخيراً على اثارة الحرب الاهلية بين الايطاليين والرومانيين . واقترح بعضهم تسليح العبيد والمجرمين وهو ما لم يقره كاتلينا . وكان شيشرون قد انتخب يومئذ قنصلا الى جانب انطونيوس وكان تفوق شيشرون في الخلال والبراعة وحب الشعب على زميله كفيلاً باجتماع السلطة في يده . فبدأ رياسته في سنة ٦٣ ، ووضع عدة مشاريع للاصلاح ، ولكنه ما لبث ان رأى نفسه مرتبطاً بمصالح العصبة الحاكمة التي غدا احد افرادها .
وكان شخص من المتآمرين يدعى كوريوس قد افضى بالسر الى خليلته « فولفيا » ، فنقلته في الحال الى شيشرون ، ثم استمرت ، تبعاً لنصحه توافيه بكل دقائق المؤامرة . فلما اجتمعت كل خيوطها في يده قدم بياناً عنها الى مجلس الشيوخ ، فاصدر الشيوخ قراراً « بتكليف القناصل بالعمل لانقاذ الدولة » ولكن التحرك كان

خطراً ، وكانت المؤامرة واسعة النطاق تعتمد على عناصر يخشى بأسها .
وكانت معظم القوات الرومانية اما في المشرق تحت قيادة بومبي أو
مفرقة في المقاطعات ، ولم تكن رومة في حالة منعة او اهبة للدفاع .
وكان المقرر ان عصابات الثائرين تهاجم المدينة معا ، فيبادر شركاؤهم
داخلها الى اضرام النار في جميع اركانها . ولكن الخطر كان يدنو
وينذر ففيض الله لرومة ان قدمها يومئذ قائدان من المشرق هما :
مركيوس ركس ومنيلوس كرتيكوس ومعهما بعض القوات ، فوزعت
في الحال على مراكز العصاة ، وحشدت الحكومة عدة صفوف
بسرعة ، ونقل المصارعون من كابوا ووزعوا جماعات صغيرة في المدن
المجاورة . وتولى شيشرون بنفسه قيادة القوة التي عينت لحماية رومة

٥ ـ وهكذا تأهب الفريقان للنضال. ولكن القنصل (شيشرون)
دعا في جرأة وجهر زعيم المؤامرة الى اظهار نفسه . وفي ٧ نوفمبر
دعا الشيوخ الى الاجتماع في معبد جوبتير . وظهر كاتلينا في كرسيه ،
فانفض زملاؤه الشيوخ من حوله ، وتركوا فراغاً حول مقعده . ثم
نهض شيشرون والقى خطابه المشهور الذي يعتبر من أعظم مناظر
التاريخ الروماني ، فشرح خطة المؤامرة وغايتها ، وقدم عنها الادلة
القاطعة . وكان القنصل يرمي الى ارهاب المجرم لا الى مطاردته لان
كاتلينا ما زال يتمتع بتأييد جماعة من الشيوخ ، وقد يعترض كثير
منهم على محاكمته بحجة فقد الادلة . أما كاتلينا ، فلبث في مكانه يضطرم
غيظا . فلما القى شيشرون وعيده ، وأنذر بمطاردة المذنب،وسحق
كل خارج نهض كاتلينا ، وتكلم في عبارات متقطعة ، تنم عن شديد
انفعاله ، فذكر المجلس بحسبه ، ومقامه و نبله، كفالة بولائه واخلاصه

وحمل على متهمه ، وندد بسفالة حسبه ، واجنبيته ، ولكن الشيوخ شجعهم منظر الجند المحيط بقاعة الاجماع ، فصاحوا بالمتآمر، ونعتوه بالخيانة والاجرام ، فوثب كاتلينا الى خارج القاعة مزبداً متوعدا .



شيشرون

وغادر رومة في ظلام الليل بعد أن اوصى اصدقاءه في المدينة بان يلزموا اماكنهم ، وأن يدبروا قتل القنصل اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . فدس شيشرون على المتآمرين رهطاً من الجواسيس وما زال حتى حمل جماعة منهم هم لنتولوس ، وكيتجوس ،وستاتليوس أن يتقدموا للقبض عليهم ومعهم اعتراف مكتوب يشتمل على كل تفاصيل المؤامرة وأسماء مدبريها .

وعندئذ دعا شيشرون زعماء المؤامرة اليه ولم يكن نما اليهم شيء من ذلك ، فامر بالقبض عليهم وأخذوا الى مجلس الشيوخ . وقدمت الادلة المكتوبة . وجرت المحاكمة أخيراً . ولكن الشيوخ اختلفوا في نوع العقوبة فقال بعضهم بالسجن المؤبد وكان هذا رأي قيصر . ولكن الفيلسوف كاتو دعا الى حكم الاعدام وبعد جدل وتردد ، غلب الرأي الاخير . ونفذ الحكم في المتآمرين في الحال فاعدم كل من لنتولوس ، وكيتجوس ، وجابينوس ، وستانليوس ، وكاباريوس تباعا ، وذلك بحضور شيشرون نفسه . وكانت هذه ضربة جريئة لان

كاتلينا كان قد حشد في ذلك الحين جيشاً يبلغ زهاء عشرين الفا . فلما علم بالمحاكمة واعدام زملائه ساوره اليأس ، وانفض من حوله اتباعه تباعا حتى لم يبق سوى أربعة آلاف منهم . فحاول أن يخترق جبال الابنين ، وان يتجنب القوات الجمهورية ومن ثم يضرم نار الثورة في الارجاء المجاورة ، ولكن ممرات الجبال اغلقت دونه ، فارتد الى محاربة الجيش الآخر الذي يقوده انطونيوس والتقى الجيشان في بستوريا . وكانت معركة هائلة ولكن قصيرة ، حصد فيها العصاة حصداً ، ووجدت جثة كاتلينا في مقدمة الصفوف

٦ ـ وكان شيشرون عندئذ في طليعة حزب النظام . وكان هذا الحزب في اثناء الحوادث الاخيرة ينحدر شيئاً فشيئاً الى جانب الشيوخ وكان يوليوس قيصر يؤدي دوراً كبيراً في هذه الحوادث كلها ، ولا يدخر في اثناء ذلك وسعاً في تقوية نفوذه السياسي ، حتى استطاع في سنة ٦٣ ان ينتخب حاكما « أعلى » . وفي سنة ٦٢ عاد بومبي بجنده من المشرق بعد ان حارب مثراديتس ملك بونطوس وانتصر عليه . وللحال فرق جنده ، ولم يحاول ان يعتمد عليهم في اغتصاب سلطة ما ولكن الشيوخ ابوا ان يصادقوا على ما اتخذه في المشرق من الاجراءات ، وان يمنحوا جنده الارض الموعودة . فسار سخطاً ورأى في ذلك نكراناً لفضله . وكان قيصر اثناء ذلك قد ارسل للقيادة في اسبانيا فقاد الجيوش الرومانية الى ساحة الظفر مراراً ، ثم عاد الى رومة . وهنا تبدت اطماعه في ثوبها الحقيقي . وكان قيصر يرمي الى نيل السلطة المطلقة وانشاء جمهورية عسكرية كتلك التي أنشأها ماريوس وصوللا ولكن الطريق الى غايته كانت

وعرة ، وكانت موارده المالية قد نضبت . وكان حزب الشيوخ قوياً متحداً يضم كبار النبلاء والاغنياء فرأى أن يشق طريقه بادىء بدء الى « القنصلية » وان يعتمد على مؤازرة بومبي وكراصوس . وكان بومبي كما رأيت من كبار القادة وزعماء الجند ، وكان كراصوس من اصحاب الملايين والنفوذ . فتفاوض الزعماء الثلاثة واسفرت المفاوضة عن انشاء « الثالوث » أو « التحالف الثلاثي » الاول ، ووعد قيصر ان يعمل على اقرار اجراءات بومبي في المشرق ومنح جنده الاراضي الموعودة اذا فاز بكرسي القنصلية . واتجهت جهود الزعماء الثلاثة الى تلك الناحية ، حتى فاز

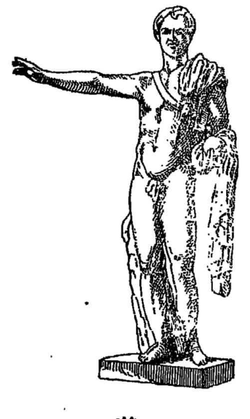


يوليوس قيصر

قيصر بالقنصلية سنة ٥٩ بعد خطوب وصعاب جمة . وكانت رياسة قيصر كلها تحقيق وفوز ، فاوفى بعهده لبومبي . واستطاع رغم زميله بيولوس ان يسن كثيراً من القوانين التي ترمي الى اضعاف سلطة الشيوخ . ولم تكن اصلاحاته كلها مستحبة في نظر الرأي العام . ولكنه استطاع على اي حال ان يوجد نوعاً من الحكومة المركزية . وان يحافظ على النظام والسكينة وان يمنح الامتيازات للايطاليين (سكان الاقاليم) وان يغنم لنفسه ولاية غالة الجنوبية والليركوم مدى خمسة اعوام توطيداً لسلطته . وكان جماعة من صنائعه وعلى رأسهم كلوديوس يبثون دعوته في الشعب . ويعملون على تحويل الجموع

اليـه . وهكذا كان قيصر يلجأ في تحقيق غايته الكبرى الى سلاح التشريع والدعوة معا.

وكان شيشرون قد ابعد حيناً ، وكذلك ابعد كاتو اتقاءً لمقاومتهما . ولكن شيشرون عاد غير بعيد الى رومة . ولم يحمل على قيصر او بومبي بادىء بدء . ولكنه اخذ يشهر باعمال صنائعهما . ثم طالب باجراء التحقيق في القوانين الزراعية التي اصدرت في رياسة قيصر . وعندئذ خشي الحلفاء العاقبة فأجمعوا على اسمالة شيشرون وأن يتولى القنصلية [1] بومبي وكراصوس . وان يمد أجل قيادة قيصر خمسة اعوام اخرى ، وان يمنح بومبي ولاية اسبانيا ، وكراصوس ولاية سوريا . ولكن اسباب الانحلال كانت قد سرت الى هذا التحالف الذي لم يعقد الا لاغتصاب الحريات الجمهورية . ثم جاء موت كراصوس فانهار بذلك احد اركانه ، واخيراً تصرمت علائق الحليفين بوفاة جوليا زوج بومبي وابنة قيصر. وانتخب بومبي وحده قنصلا سنة ٥٢ في غمار من الاضطراب والفوضى فقمع الاضطراب وأعاد النظام ولكنه رسم لنفسه



بومبي

(١) كان القنصل الروماني ينتخب لعام واحد فقط

سياسة مستقلة وأخذ يعمل من تلك الساعة على تحطيم قيصر واستخلاص السلطة كلها لنفسه . وكانت اول بوادر النضال بين الحليفين هي أن بومبي أصدر قانونا يحرم الجمع بين القنصلية والقيادة في حين ان قيصر كان يعتزم ان يتقدم للقنصلية مستبقياً منصبه في الجيش . وفي نفس الوقت كانت سلطة رومة في المشرق تجوز ازمة دقيقة ، وكانت جيوشها ترتد منهزمة هنالك ولكن قيصر قاد جيوش المغرب الى الظفر في غالة ، ودفع الفتوحات الرومانية الى ضفاف الرين وكانت سياسته ترمي في ذلك الحين الى ان يخلق لنفسه من الجند الذين يقودهم جيشاً يشد أزره ويتبعه أينما سار . وقد حمل اليه ظفره المستمر ما يبغي . فعاد على رأس جيشه ميمماً شطر رومة ، وأعلن أنه ينزل عن قيادته اذا حذا بومبي حذوه . ولكن بومبي كان يتأهب عندئذ للقائه في ميدان الحرب ، ويطالب مجلس الشيوخ أن يعتبره عدواً للوطن خارجا عليه . فزحف قيصر على رومة ، وسحق خصومه ، ففر الشيوخ وانسحب بومبي ، الى الجنوب ، ودخل قيصر رومة دون كبير معارضة

ولا يتسع المقام هنا لنتتبع أدوار الحرب الاهلية التي نشبت على أثر ذلك ، ويكفي أن نقول ان قيصر حارب خصومه أولا في اسبانيا حتى سحقهم ، ثم جد في مطاردة بومبي وقواته حتى هزمه هزيمة حاسمة في فارساليا من أعمال تساليا . ففر بومبي الى مصر ليحتمي بملكها ، ولكنه قتل غيلة . وعبر قيصر البحر الى مصر ، وولى على عرشها بطليموس وأخته كليوباطره ، وترك فيها حامية

رومانية . وبعد أن خاض عدة معارك في الولايات الاسيوية ونظم شئونها عاد الى ايطاليا

وكان قيصر قد أعلن نفسه حاكما بامره منذ فارساليا . وكان الاضطراب قد ساد رومة ، وعجز انطونيوس الذي استخلفه في الحكم اثناء غيابه عن تأييد النظام ، وثار الجند . فقمع قيصر كل اضطراب وثورة ، وأعاد النظام والامن ونظم جميع الامور

٧ - وقضى قيصر أعواماً أخرى في غزوات باهرة ثم عاد أخيراً الى رومة وأغدق عليه الشعب كل صنوف الاكبار والتكريم ولكن عهد الجمهورية كان قد ولى ، وغدا الدستور اسماً بلا مسمى واجتمعت السلطات كلها في يد قيصر . ثم قيل أنه كان يبغي الملك والتسمي بألقابه . وكان انصاره يروجون هذه الدعوة،وكان أعداؤه يؤمنون بصدقها ويروجونها أيضا للحط من هيبته واحفاظ الشعب عليه . وحدثت في الواقع عدة حوادث ذات مغزى يرتبط بذلك ، منها أن تمثال قيصر وجد ذات صباح متوجا ، فغضب النواب لذلك وحطموا التاج على الاثر ، فهتف الشعب لهم ، وتظاهر قيصر باستحسان تصرفهم . ومنها أن بعض شيعة قيصر لقبوه في احدى المآدب العامة بلقب الملك فغمغم الحضور استهجانا ، وصاح قيصر لفوره : « لست ملكا ، وانما أنا قيصر » وحدث في مأدبة أخرى كان يرأسها قيصر أن القنصل انطونيوس تقدم من كرسي الطاغية واستخرج من نطاقه تاجاً وقدمه الى قيصر ، وصاح أنه هدية الشعب الروماني اليه فهتف بعض الحضور هتافاً خافتاً ، ولكن الهتاف اشتد حينما تظاهر قيصر برد التاج قائلا « لست ملكا . ولا

ملك للرومانيين الا جوبتير » وأمر أن يعلق التـاج في معبد الـكابيتول

وكان تصرف قيصر في هذه الحوادث التي دبرت على ما يظهر لسبر غور الرأي العام ، حجة له لا عليه تحبط من كل محاولة يريد بها خصومه اثارة الشعب عليه . ولـكن هذا الاستئثار بالسلطة ، وذلك المجد الذي يتكدس فوق رأس قيصر ، وهذا البذخ الذي ينتثر من حوله ، وهذا السلطان الذي يمتد الى كل كبيرة وصغيرة ، احفظت قلوب الاشراف على قيصر ، فجاشت نفوسهم ألماً وسخطاً ، لان رجلاً قد خرج من صفوف الشعب ليحكم الرومانيين أشرافاً وكافة وفق ما يشتهي ، ولان الجمهورية وحرياتها قد غدت قرينة لاسم قيصر وبطانته الفاسدة . فلم تلبث فكرة اسقاطه وتحطيمه أن سرت الى نفوس أولئك الخصوم الذين قد تحدوهم المؤثرات الخاصة قبل المؤثرات العامة . ودبر الاشراف لتحقيق هذه الغاية مؤامرة واسعة النطاق ضمت زهاء ثمانين متآمراً كان بينهم عدد ممن أحسن اليهم قيصر مثل تريبونيوس ، وكاصكا ، وكمبر ، ودسيموس بروتوس ، وكلهم ممن غمرهم بفضله ، ورفعهم الى مناصب الرياسة ، وكلهم ممن يتظاهر بحبه والاخلاص له

وهذه المؤامرة الـكبرى التي ذهبت ضحيتها شخصية من أعظم شخصيات التاريخ ، مثل أعلى للمؤامرة السياسية ، وقد تعتبر أعظم مؤامرات التاريخ السياسية . ولـكن ظروفها الحقيقيـة ، وطريقة تدبيرها ، ومدبرها الحقيقي ، أمور يحيط بها الغموض والريب . وقد اقترنت هذه الحادثة الـكبرى بالاخص باسم ماركوس يونيوس بروتوس ،

وغدا اسم بروتوس علماً لتحطيم الطغيان وسحق الطغاة ، وخصص خنجر بروتوس بفخر ازهاق قيصر ، وصاحبه بفخر انقاذ الحريات الرومانية . ولكن سنرى ان بروتوس لم يكن أول من فكر في سحق قيصر ، ولم يكن خنجره أول ما غمس في دمه من خناجر القتلة

٨ ـ كان روح المؤامرة الجديدة ، على أرجح الآراء ، كايوس كاسيوس ، وهو أحد الاشراف الذين أحسن اليهم قيصر ، ورفعه الى منصب « الحاكم » . ولكنه كان مضطرم العواطف والخلق ، صارم النفس . وكان يمقت كل صنوف الاستئثار والطغيان ، وكان جباراً منتقماً ، شديد الحقد . كان يبغض قيصر أشد البغض ، ولسنا نعرف سبب هذه الخصومة بالتحقيق ولكن بلوتارخوس يروي لها سبباً لا بأس من ايراده ، فيقول : « كان كاسيوس ، وهو رجل وحشي الميول ، يبغض قيصر ، لا حباً بالخير العام ، ولكن لخبث طباعه . كان يبغض فيه قيصر نفسه ، لا الطاغية . وكان دائماً يثير بروتوس ويلهب عواطفه سخطاً عليه . كان بروتوس يشعر أن هذا الحكم انما هو الطغيان بعينه ، ولكن كاسيوس كان يبغض الحاكم ذاته . وكان من بين الاسباب التي ترجع اليها خصومته لقيصر فقده لاسوده . وقد وجدها قيصر في ميجارا حينما استولى عليها كالنيوس فأخذها لنفسه . ويقال ان هذه الاسود كانت نكبة كبرى على أهل ميجارا ، لانهم حينما رأوا سقوط المدينة ،


بروتوس

فتحوا عرين الاسود لتبطش بالعدو المغير وتمزقه ، ولكنها ارتدت عليهم ، ومزقت كثيراً من الناس الآمنين »[1]. وعلى أي حال فان جرأة كاسيوس ، وصرامة خلقه وحدة طباعه - تزكيها خصومته الشخصية لقيصر ، قد دفعت به الى طليعة المؤامرة ، وجعلته روحها في معنى من المعاني . وأما اقترانها باسم بروتوس فيرجع الى اسباب معنوية . ذلك ان بروتوس ، وهو ابن أخي الفيلسوف كاتو ينتمي الى أرفع وأعرق الاسر الرومانية . وترجع الرواية نسبته الى يونيوس بروتوس الذي أقام له الرومان القدماء تمثالاً في الكابيتول تخليداً لعزمه وشجاعته في رد « التاركين »[2] وسحق الملوكية وتأسيس الجمهورية : وأمه سيرفيليا تنتسب الى آهالا قاتل الطاغية سبوريوس ميليوس . ولكن بروتوس لم يرث ، على ما يظهر كثيراً من تراث آبائه في تمجيد الحرية ومقت الطغيان ، لانه كان في طليعة من هرعوا من انصار بومبي الى نصرة قيصر . وكان في طليعة من تركوا علم الجمهورية ، ورفعوا طغيان قيصر ، وكان بين الاوائل ممن بادروا بعد فرساليا الى معسكر الظافر ، ثم كان في طليعة أصدقاء الطاغية ومؤيديه . ولكن انتساب بروتوس الى كاتو بطل المبادىء الحرة ، وزواجه من بورشيا ابنة الفيلسوف التي كانت تضطرم نفسها بكثير من مبادىء أبيها ومقته للطغيان ، ونبل أسرته ، ورفيع حسبه ، وعراقة نسبه ، كانت كلها تسبغ عليه ثوباً خلاباً ،

(١) بلوتارخوس - فى ترجمته لماركوس بروتوس

(٢) نسبة لتركينوس برسكوس الذى حكم رومة فى عهد الملوكية وانتهت الملوكية على يد سليله سوبيريوس سنة ٥١٠ ق . م .

وتفسح له بين النبلاء والكبراء مكاناً أسمى . وكان المتآمرون يرون ان يتوجوا مشروعهم بزعامة رجل كبروتوس ينثر نبله ومكانته على المؤامرة وقاراً ومتانة . وكانت ثقة قيصر به فوق ذلك كفيلةً بابعاد الريب . وكان كاسيوس ، وهو زوج أخته ، يشدد في تحريضه واثارته . وكان بروتوس بطبيعته ، ضعيف الخلق والارادة ، قابلاً للتأثير والغواية ، فلم يلبث ان غدا من أقطاب المؤامرة ، وأشدهم حماسة . وكان المتآمرون يعملون ما استطاعوا على زكاء هذه الحماسة ، وما تفيض به نفسه من الكبرياء والزهو ، من ذلك انهم علقوا خفية ذات يوم على تمثال جده بروتوس القديم رقعة كتب فيها : « ليتك كنت اليوم حياً » ، وفي يده رقعة كتب فيها : « يا بروتوس ، انك لنائم ، ولست بعد خليقاً باسم بروتوس » ، وأمثال ذلك . وكانت روح بروتوس ، التي تأثرت بلمحة من فلسفة كاتو ومبادئه ، تضطرم لمثل هذا الملق . وكان المتآمرون بالرغم من اتساع نطاق المؤامرة يحافظون على سرها ما استطاعوا ، حتى ان شيشرون نفسه ، وهو من ألد أعداء قيصر لم يعلم بها . وكانت فكرة المتآمرين في ذلك هو ألا يأتمنوا على سرهم ولا يشركوا معهم الا من عرف بالمخاطرة والتضحية قبل كل شيء . ومما تقدم نرى ان كاسيوس كان زعيم المؤامرة المادي ، وكان بروتوس زعيمها الروحي أو المعنوي . وهو ما قد يعنيه بلوتارخوس في قوله : « ان ألد اعداء بروتوس ، يرون فيما يتعلق بائتماره بقيصر ، ان كل ما في المؤامرة من عناصر الشرف والكرم ، لو صح ان كان ثمة فيها شيء من ذلك ، يرجع الى بروتوس ، وان كل ما فيها من عناصر القسوة والوحشية

انما يرجع الى كاسيوس ، صهر بروتوس وصديقه ، ولكن من هو دونه في الامانة ، ونزاهة الغاية »[1]

٩ ـ وهكذا دبرت المؤامرة الكبرى ، ونضجت . وكان تصرف قيصر أثناء اقامته في رومة يعرضه دائماً لخناجر القتلة ويسهل مهمتم ، لانه فرق الحرس الذي عين لمرافقته ، وكان في كل يوم يجوب شوارع المدينة ، ويشهد الحفلات العامة في صحبه عزلاً لان تقلد السلاح في المدينة لم يكن عادة رومانية . وكان يجيب على نصح أصدقائه وتحذيرهم اياه بقوله : « اذا كان الخطر داهماً فخير للمرء ان يقضى في الحال من ان يعيش في روعة دائمة من الموت » ولم تكن ثمة وسيلة لفرار قيصر من بطش أولئك الاعداء الباطنين الا أن يغادر المدينة الى المعسكر وهنالك يحوطه جنده بسياج منيع من الحماية . وكان يخشى المتآمرون انه اذا خطر مثل هذا العزم لقيصر فانه لن يعود الى رومة ، بل قيل انه صرح ذات يوم بعزمه على احياء ابراج « اليوم » ، مهد رومولوس مؤسس رومة ، ونقل قاعدة الحكم اليها ، واشادته فيها للعرش الذي يأبى عليه الرومانيون أن يشيده في الكابيتول ، بل ربما جذبه سحر كليوباطرة ، الذي استمرأه حينا في مصر وفي رومة ، الى الاسكندرية ، فيثوي اليها ويتخذها قاعدة للملك الباذخ . وكانت أمثال هذه الخواطر ، التي قد لا تكون بعيدة عن ذهن قيصر ، تدفع بالمتآمرين الى تعجيل أهبتهم ، والاسراع في تنفيذ ضربتهم . وسرعان ما تمت الاهبة ، وكان ذلك في منتصف مارس سنة ٤٤ ق.م. وكان مجلس الشيوخ قد تقرر عقده في الخامس عشر من هذا الشهر

---

(١) بلوتارخوس ـ في ترجمته لبروتوس

للاحتفاء بقربان ايديس [1] وكان يعتقد أن قيصر سيشهد هذا الاجتماع ، فقر رأي المتآمرين على المبادرة بتنفيذ الضربة ، متى دخل قيصر الى الساحة ، وكانت النبوءة قد سرت بأن هذا الظرف سيكون شؤماً عليه ، ولكنه أبى أن يتخذ شيئاً من التحوطات . بيد أنه يقال انه تردد في آخر لحظة ، وفكر في الاعتذار عن الحضور وكذلك يقال ان بروتوس تأثر في آخر لحظة واضطرب لغدره المنوي ، ولم يشجعه سوى شبح زوجه بورشيا التي كانت تعلم أمره والتي لم تدخر وسيلة في حثه وشحذ عزيمته . ثم يقال ان دسيموس أحد المتآمرين كان يحث قيصر على حضور الاجتماع ، ويسخر مما يساوره من التوجس . وأخيراً يروى ان قيصر لما اعتزم أمره ، وسار الى ساحة بومبيوس في كامبوس حيث يعقد الاجتماع ، حاول أكثر من واحد ممن نمى اليهم سر المؤامرة ان يقترب منه ليحذره ، وان رجلا استطاع ان يلقي الى يده برقعة تضرع اليه ان يقرأها ولكن قيصر طواها وأبقاها في يده دون قراءة حتى وصل الى مجلس الشيوخ ، وأنه لما وصل الى الساحة قال للعراف سبورينا في هدوء وسكينة : « لقد جاء قربان مارس » ، فأجابه الكاهن: « أجل ولكنه لم ينته بعد »

ولما دخل قيصر الساحة ، وقف جميع الشيوخ تحية له وما كاد يجلس حتى التف المتآمرون حوله ودفعوا بواحد منهم يدعى تيلوس كمبر أن يتقدم من قيصر ليتضرع اليه في اصدار العفو عن أخيه المنفي ، وضموا اصواتهم لصوته وقبلوا رأس قيصر وصدره ،

---

(١) الاسم الروماني لليوم الخامس عشر من شهر مارس

ولكن قيصر لم يصغ الى تضرعهم . ولما رأى تكأكؤهم والحافهم نهض من كرسيه بعنف ، فعندئذ وثب اليه تيلوس ، وجذب رداءه بعنف حتى نزعه من كتفيه ، وللحال اخرج كاصكا الذي كان جاثماً وراء قيصر خنجره ، وطعن قيصر في كتفه أول طعنة ، ولكنها كانت خائبة ، فلم تصبه الا بجرح يسير ، وللحال ارتد اليه قيصر ، وامسك خنجره من يده وصاح باللاتينية « ماذا تصنع أيها الوغد كاصكا ؟ » فاستغاث كاصكا . وفي الحال انهالت الخناجر على قيصر . فنظر أمامه يتلمس منفذاً . ولكنه رأى أمامه بروتوس شاهراً خنجره عليه ، فصاح به : « ماذا ، وأنت أيضاً يا بروتوس ؟ ! » ، وترك يد كاصكا وغطى رأسه بردائه ، واسلم جسمه لطعنات القتلة ، فأثخنوه طعناً ، وبلغ من حماستهم ان جرح بعضهم بعضاً ، فجرح بروتوس في يده وسال دمه . وخر قيصر في سيل من دمائه تحت تمثال خله وحليفه القديم بومبي

وفي الحال تقدم بروتوس مخضباً بدمه ودم فريسته الى وسط القاعة ليخطب الجماعة ، وهو يحث الشيوخ على البقاء . ولكن الشيوخ فروا مسرعين هلعين . واختفى معهم كل حارس وحاجب وتابع . ولم ير بروتوس من يصغ اليه الا رفاقه . وكان انطونيوس قد فرّ مع الفارين وغير ثوبه بثوب عبد . وهرع الى منزله . وفي الحال طار الخبر الى ارجاء المدينة . واستولى على الناس ذعر عام . وخشوا ان يفضي الحادث الاكبر الى مذبحة عامة . ولم يعرف أحد ماذا هيأه المتآمرون بعد مصرع قيصر . وكان كل من الحزبين مسلحاً متحفزاً . وكان دسيموس قد احتاط لسلامة رفاقه باحاطة

مسرح بومبي بجماعة من المصارعين ، ووثب في نفس الوقت جماعة من جند قيصر القدماء الى شوارع المدينة ، وقاد رئيس ركائبه لبيدوس كتيبة من الجند خارج المدينة

أما القتلة فغادروا الساحة ، شاهرين خناجرهم ، متأهبين للدفاع وأمامهم قلنسوة الحرية مرفوعة على رأس حربة ، حتى وصلوا الى « الفورم » وهم يصيحون انهم قتلوا ملكا وطاغية . فاحتشد الناس حولهم ، ولكن الشعب لم يحيهم ولم يهتف لهم . فارتدوا مسرعين متوجهين الى معبد جوبيتر فوق تل كابوتيلين ، وأحاط رجال دسيموس بالقلعة لحمايتها . ولما جن الليل ، قدم اليهم بعض الزعماء الجمهوريين وفي طليعتهم شيشرون ، وكان يجهل أمر المؤامرة كما تقدم ولكنه تفاءل خيرا بنجاحها الظاهر . واقترح ان يدعى الشيوخ في الحال . ولكن بروتوس آثر أن يحاول اثارة الشعب ريباً منه بنواب الامة . على انه لم يفلح ، وخيم الجمود على الشعب ، وصعقه مصرع ذلك الذي شهد من آيات الظفر والفخار والمجد مالم يشهده بطل سواه من أبطال رومة . وكان انطونيوس ، قد تفاوض سراً مع كالبورنيا زوج قيصر ، وحصل منها على اموال زوجها ووصيته ، ثم استمال اليه لبيدوس . وكان الشعب ، يتطلع الى خل قيصر ووزيره المحبوب ليكون خلفه . فمال المتآمرون الى مفاوضته والثقة في عهوده ومواثيقه بالولاء والاخلاص . وعارض شيشرون وحده في ذلك اشد معارضة وأخيراً اتفق على عقد مجلس الشيوخ في اليوم التالي أي يوم ١٧ مارس ليومين من مقتل قيصر . فاجتمع في معبد تيلوس بالقرب من « الفورم » ، وأحاط انطونيوس قاعة الاجتماع بسيج كثيفة من

الجند . وخاف القتلة ، فلم يشهدوا الاجتماع ، ودارت المناقشة في غيبتهم في الحادث الخطير ، فطلب شيشرون اصدار العفو العام ونسيان الماضي ، وترك الحكم على القتلة للاجيال المقبلة . فقبل الاقتراح وصدر العفو . وفي اليوم الثاني خطب شيشرون في الشعب وحث على السكينة . ثم اجتمعت الاحزاب كلها ، ووزعت حكومات الاقاليم طبقاً لوصية قيصر فكانت مقدونية من نصيب بروتوس ، وسوريا من نصيب كاسيوس !

١٠ ـ وهكذا زهق جايوس يوليوس قيصر ، وغاضت بمصرعه شخصية من اعظم شخصيات التاريخ . كان قيصر حاكما بأمره وكان طاغية يستأثر بكل سلطة . ولكنه لم يستخدم سلطانه الا لخير رومة ومجدها وعظمتها . ولم يلجأ الى تلك الوسائل العنيفة الدامية التي لجأ اليها طغاة مثل ماريوس وصوللا . وكان نبل الغاية ، وشرف المقصد ابداً في مقدمة خلاله الرفيعة . وكان كريم النفس والعاطفة ، غفوراً عند المقدرة حتى انه رفع ألد اعدائه الى اسمى مناصب الحكم والرياسة . وكان سياسياً عظيماً ، وجندياً كبيراً ، وخطيباً لسناً . ثم كان رياضياً بارعاً ، ومشترعاً ، ومؤرخاً . ولكن المؤرخين اختلفوا في الحكم على سياسته واعماله ، ففريق يرى ان « القيصرية » أعني سياسة قيصر كانت ضرورة تمليها الظروف ، وان المناهج والتقاليد التي اتبعت في حكم رومة القديمة لم تكن تصلح لحكم الامبراطورية الرومانية الجديدة . ولكن كثيرين يرون أن قيصر قد هدم حريات رومة بنبذ دستورها وتقاليدها . وهو رأي لا يخلو من الجدل الكثير غير ان المؤرخ لا يسعه ان يغض عما كان يبديه قيصر من الاستخفاف

بتقاليد روما القديمة ، وتعريض اسمى مثلها للسخرية . ومهما كان من رأي التاريخ في قيصر ، فقد بقي اسمه على كر العصور مثار الاعجاب والاكبار ، بل لقد سما هذا الاكبار لقيصر والقيصرية ايام العصور الوسطى حتى بلغ الذروة في عبادة البطولة ، وحتى اعتبر مؤسس الامبراطورية الرومانية أعظم شخصية في التاريخ . ولكن تطور هذا الرأي في عهد الاشراق [١] فلم يعتبر قيصر بعد مؤسس الامبراطورية الرومانيــة ولكنه اعتبر هدام الحرية ، واستأثر المتآمرون الذين سفكوا دمه ، وسحقوا دولته ، دونه ، بالاعجاب والاكبار

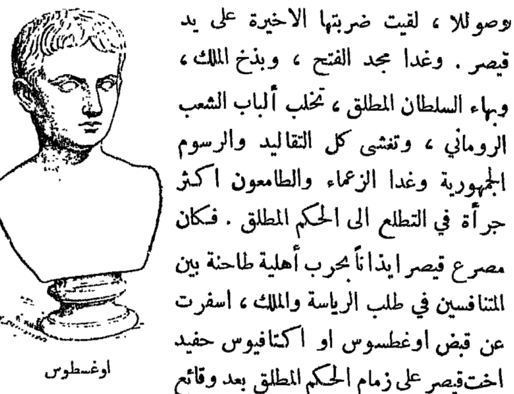
وللحكيم الشيخ شيشرون في هذا الحادث ، موقف تجدر الاشارة اليه . فقد رأيت انه من ألد خصوم قيصر وخصوم الحكم المطلق . ولم يكن متآمراً ولكنه كان مع المتآمرين قلباً وروحاً وان جهل مشروعهم . وكان ولد الجمهورية البار ، وروحها المضطرمة غير أنه لم يملك نفسه من أن يستسلم للظروف أحياناً ، فقد رأيناه قنصلاً يغلب طغيان الشيوخ ، ورأيناه بعد مصرع قيصر يحذر اطراء القتلة ويطلب العفو عنهم كما يطلب العفو عن الجناة . وهو في نفس الوقت يرفع أولئك القتلة في بعض رسائله الى مرتبة البطولة ، فهو يقول مثلا في رسالة له الى القنصل دولبيلا (زميل قيصر) ما يأتي : « ستعتبر نفسك اذن سند الجمهورية الاعظم ، واذكر أنها تنتظر منك أن تحمي ، بل ان ترفع اولئك الرجال العظام [٢] الذين مهدوا

(١) « الرينصالص » ويعبر عنه البعض بعهد احياء العلوم ولكنا نفضل التعبير عنه بكلمة « الاشراق » فهي ادل وأدق

(٢) يريد بروتوس وكاسيوس ورفاقهما .

لاسترداد حريتها » ويقول في احدى رسائله لكاسيوس : « صدقني يا عزيزي كاسيوس ان الجمهورية هي موضوع تأملاتي الخالد ، او بعبارة اخرى أنك انت ومركوس بروتوس لا تبرحان ذهني ابداً » . وفي رسالة اخرى لكاسيوس : « ان خبث صديقك (يريد انطونيوس) يتفجر عنفه يوماً عن يوم ، وأمثل لذلك اولا بالتمثال الذي أقامه اخيراً لقيصر وكتب عليه : « الى ابي وطنه النبيل » ، قاصداً بذلك ان تعتبر انت وزملاؤك الابطال لا قتلة فقط ، ولكن قتلة أبيهم وان اعتبر ايضاً من عدادكم ، لان ذلك الرجل المنتهك ينسب اليّ أني كنت اكبر ناصح ومدبر لعملكم المجيد »

١١ – ولكن مصرع قيصر لم يحقق غاية الحزب الجمهوري ، اذ الواقع ان النظم الجمهورية التي كانت تحتضر منذ طغيان ماريوس وصوللا ، لقيت ضربتها الاخيرة على يد قيصر . وغدا مجد الفتح ، وبذخ الملك ، وبهاء السلطان المطلق ، تخلب ألباب الشعب الروماني ، وتغشى كل التقاليد والرسوم الجمهورية وغدا الزعماء والطامعون اكثر جرأة في التطلع الى الحكم المطلق . فكان مصرع قيصر ايذاناً بحرب أهلية طاحنة بين المتنافسين في طلب الرياسة والملك ، اسفرت عن قبض اوغطسوس او اكتافيوس حفيد اخت قيصر على زمام الحكم المطلق بعد وقائع


اوغسطوس

وخطوب جمة ، وتأسيسه للامبراطورية الرومانية التي لبثت زهاء
خمسة عشر قرناً . وحكم اكتافيوس نحو خمسين عاما كلها سلام
وأمن . ولكن مؤامرة دبرت في أواخر عهده لاسقاطه . دبرها
زعيم يدعى « سنَّا » سنة ٤ للميلاد ، واكتشفها اوغسطوس لحسن
طالعه قبل ان تنضج . فعفا عن المتآمرين ، ولم ير أن يختم أيامه بشيء
من تلك القسوة التي امتازت بها بداية حكمه . ولكنه رأى ان
يقوي دعائم اسرته ، فعين اكثر من وارث لعرشه . وتوفي في سنة
١٤ م . فخلفه طيباريوس ، وأقام رسوم الملك المطلق وبذخه على
أسس ثابتة ، حتى غدا مجلس الشيوخ في عهده شبحاً فقط ، وانشأ
الحرس الامبراطوري الذي قبض فيما بعد على مصائر الامبراطرة .
وخلفه جايوس الملقب بكاليجولا سنة ٣٧ م . فبهر الشعب الروماني
بظفره وبذخه . ولكنه اسخطه بقسوته وإسرافه وانتهاكه لحرياته
وكرامته ، وتحقيره لتقاليده ومثله . وكان النبلاء والشيوخ اشد الناس
سخطا ونقمة لانه سلبهم كل سلطة وهيبة . غير ان هذا التجني لم
يثر حركة عامة . بل اثار حفيظة خاصة ، فان الامبراطور أهان ذات
يوم نائبا يدعى كاسيوس كيريا باللفظ والاشارة . فاعتزم النائب أن
ينتقم لكرامته . ودبر لاغتيال الامبراطور مؤامرة لم يكشف سرها
الا لقليل من الزعماء الذين يمرون للامبراطور تجنيه . فلم تكن فكرة
المؤامرة انقاذ الشعب الروماني من قيصر او طاغية . وقد نمى سر
المؤامرة الى الامبراطور ولكنه لم يقبض على مدبريها الحقيقيين .

فحقق مع المقبوض عليهم وعذبهم أروع عذاب . ولبث كاسيوس كيريا ورفاقه من جهة أخرى يتربصون بالامبراطور حتى فاجأوه ذات يوم في ممر مقبي بين القصر والمسرح العام يسمع فرقة من المغنين فانقض عليه كيريا وزميل له يدعى سابينوس وأثخناه طعناً بالخناجر بينما كان باقي المتآمرين يدفعون الحرس فسقط الامبراطور صريعاً وفر القتلة . وانتهى بذلك حكم كاليجولا الدموي سنة ٤١ م

١٢ ـ فخلفه كلوديوس . وخلف كلوديوس نيرون . وكان نيرون مثلاً فذاً بين الامبراطرة الطغاة في التهتك والقسوة والبطش، فبدد موارد الدولة ، واذل الشعب نبلاء وعامة ،وهتك كل الحرم ، ودفع بالمثل والتقاليد الرومانية الى أسفل درك ، وأثار بسافل شهواته ودنيء تصرفاته كل الطبقات .ولكن بطشه المباشر كان يصيب النبلاء قبل غيرهم ، لانه بعد أن بدد الموارد العامة لم يجد سوى المصادرة وسيلة لارواء جشعه ، واشباع شهواته وترفه . وكان النضال بين القياصرة والنبلاء مستمراً خلال العصور المتعاقبة . وكان القياصرة قد هدموا سلطة النبلاء ، وصدعوا من مكانتهم وامتيازاتهم . ولكن فريقاً منهم استطاعوا ان يحرزوا ثروات هائلة ، وان يملكوا معظم الارض في ايطاليا والمستعمرات ، حتى لقد روى مؤرخ معاصر لنيرون ان نصف مقاطعة افريقية كان اقطاعاً لستة من النبلاء فقط . فالى هـذا الميدان الخصيب اتجهت جهود الطاغية الفاجر ، واخذ النبلاء الاغنياء يرتجفون كلما رأوا زملاءهم يسقطون صرعى اغتيال

الامبراطور وجشعه . وأخيراً فكروا في اسقاطه وسحقه . فدبرت مؤامرة واسعة النطاق في سنة ٦٤ م . اشترك في تدبيرها بلا ريب كثير من كبراء رومة . وكان على رأسها زعيم يدعى « كالبورينوس بيزو » كان يتطلع الى عرش القياصرة خلفاً للطاغية . وكانت المؤامرة تحمل طابع الجهاد في سبيل انقاذ الحريات العامة ، ولكنها كانت في الواقع محاولة لاستعادة سلطة النبلاء والشيوخ حرة من سيطرة قيصر أو غيره من زعماء الكافة. وأهم ما يذكر في شأنها أن الفيلسوف « سنيكا » مؤدب نيرون ووصيه في طفولته وكذلك « لوكان » ولد اخيه كانا بين مدبريها . ولكن بيزو لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن المؤامرة محكمة العرى ، وسرعان ما فضحت وحطمت ، وسقط المتآمرون بأيسر امر ، ودون ان يثيروا اشفاقاً أو عطفاً ، لان الشعب الروماني كان ما يزال يؤثر طغاة مثل ماريوس أو قيصر ، بل نيرون ، او بالحري طغاة بروزاً من صفوف الشعب على شيوخ أو نبلاء لا يمثلون سوى نزعة طائفتهم . وكان من أعظم ضحايا هذه المؤامرات الشهيرة سنيكا وولد اخيه لوكان ، فقد غذبا ، وارغما على ازهاق نفسيهما بيدها ، فالقيا الى حمام حار وقطعا شرايينهما . ودونت أخبار هذه المؤامرة الدموية عصوراً في سجلات النبلاء لتكون ميراثاً للحفيظة والنقمة .

وتقلبت الدولة الرومانية بعد ذلك في أدوار عاصفة ، ولبث العرش الامبراطوري سجالاً بين المتنافسين حتى قويت شوكة الحرس

الامبراطوري ، وأضحى العرش وديعة في يديه ، فتعاقبت من ذلك الحين على عرش رومة جماعة عديدة من الامبراطرة كانوا يرتفعون بسيف الحرس ويهلكون به أيضاً . وتضاءلت المؤامرات السياسية والحركات الشعبية العامة الى دسائس قصور محليـة ، ولبثت الامبراطورية تجرجر اذيال الدسائس والفوضى ، حتى سقطت الدولة الغربية في يد الغزاة البرابرة ، وافتتحت الدولة الشرقية ، في بيزنطية عهداً جديداً مشرقاً ، نستعرض سير مؤامراته السياسية في فصل آخر

الكتاب الثالث

المؤامرة السياسية

في العصور الوسطى

الفصل الاول

المؤامرات السياسية

في الدول الاسلامية

(١) خواص المؤامرة فى بدء الدولة الاسلامية . ائتمار قريش بالنبى . فراره الى المدينة . خروج الاسود العنسى (٢) خلافة ابي بكر . خلافة عمر . مقتله . غموض الجريمة . خلافة عثمان . اتباعه لسياسة الاصطفاء . وفود النواحى ائتمار الزعماء . حصار عثمان ومقتله ، اصبع الخوارج فى الجريمة ، بدء الخوارج دور على فى مقتل عثمان (٣) معاوية ابن أبي سفيان . خروجه . موقعة صفين . حيلة عمرو . الاختلاف بين أنصار على . طليعة الخوارج . التحكيم . اجتماع الحكمين . غدر عمرو . الفريق الثانى من الخوارج . اتحادهم . عبد الله بن وهب اول رؤسائهم . مصانعة على للخوارج . اصرارهم على الحرب . موقعة النهراوان (٤) مؤامرة الخوارج . غموض منشئها . الخوارج فى مكة . ائتمارهم بالزعماء . خطة المتامرين . تأهب بن ملجم لقتل على . مقتل على . الوصية والقصاص ، جرح الصريمى لمعاوية . نجاة عمرو . شعر مأثور (٥) ركود المؤامرة فى عصر بنى امية (٦) المتغلبون على السلطان (٧) أسرة البرامكة . ازدهارها فى عهد الرشيد . تغلبهم وتفوقهم . توجس الرشيد (٨) منشأ فكرة اهلاك البرامكة . الاسباب كما تعرضها الرواية العربية . قصة العباسة بنت المهدى . قصة اسر يحيى بن عبد الله . اطلاق جعفر لسراحه . تغير الرشيد ، الباعث الجوهرى لسخطه وانتقامه . شرح ابن خلدون لهذا الباعث . رواية لابن عبد ربه . (٩) الانتقام . مطاردة البرامكة مقتل جعفر . سجن يحيى وأولاده . مصير العباسة . تأملات وشعر مأثور . (١٠) انحلال الدولة العباسية . مؤامرات الحرس . المؤامرات فى الاندلس . مذبحة

الحفرة . الحاجب المنصور وانتهار ولده به . اكتشاف المنصور للمؤامرة ، اعدامه لولده . (١١) المؤامرة السياسية فى مصر . الحاكم بامر الله . مصرعه . غموض الحادث . روايات فيه (١٢) شجرة الدر ، مؤامرتها الاولى لتولية ولدها . مقتل الملك المعظم . مؤامرة شجرة الدر الثانية . اغتصابها لعرش مصر . عزالدين ايبك مصرع اقطاى . دسائس شجرة الدر . مقتل عز الدين . مصرع شجرة الدر

١ ـ المؤامرة السياسية عريقة في الاسلام ، بدأت بظهور النبي العربي ذاته . وعرفها الاسلام قبل ان ينتظم الى مجتمع سياسي واتخذت في المبدأ صبغة دينية ، فلم تدبر الا للخلاص من امام الدين الجديد ورسوله . ولكنها كانت تبطن المعنى السياسي دائما . فلم تأتمر القبائل العربية الوثنية بالنبي محمد الا لتتقي ما يترتب على زعامته الدينية من زعامة سياسية . ومن خواص الملك السياسي في الدول الاسلامية ، ولا سيما الاولى منها ، ان يستند قبل كل شيء الى الدعوة الدينية . فكانت السلطتان الزمنية والروحية ممتزجتين في الاسلام ، في ثوب الخلافة ، وكان الخليفة هو السلطان ، وهو الامام الروحي

دعا النبي محمد الى الاسلام وحيداً وبشر برسالته بين قبائل تتخبط في ظلمات من البداوة والشعائر الوثنية ، وشق طريقه بين صنوف الاذى والسخرية حتى اجتمع حوله جماعة من الانصار آمنوا برسالته واستجابوا لدعوته . ولكن قريشاً كانت ترقب تقدم الدعوة الجديدة بجزع وسخط ، وكان النبي من جانبه يرى جو مكة يتجهم ، والقوم من حوله يضمرون له الكيد والشر . فاعتزم الفرار الى المدينة بعد ان دفع اليها بانصاره . فنما ذلك الى زعماء قريش فاجتمعوا في دار الندوة ، بزعماء القبائل الاخرى ، وتفاوضوا سراً في الامر وقرروا قتل محمد وان يقوم بتنفيذ الجريمة جماعة من

الفتيان الاشداء ، يمثل كل فتى منهم قبيلة ، حتى يفرق دم محمد بين القبائل المختلفة فلا يستطيع قومه قتالاً للقبائل مجتمعة . ولكن محمداً وقف على سر المؤامرة ، واستطاع أن يتقي مطارديه تحت جنح الظلام وأن يلحق بانصاره في المدينة سالماً . وهنالك استمر في دعوته حتى كثر أنصاره واشتد بأسه . ثم جاء دور المعارك الحربية فانتصر النبي العربي على خصومه مراراً ، وقامت قواعد الاسلام على أسس ثابتة

وكانت المعارك الاولى التي نشبت من أجل الدين الجديد ، تضم عناصر متباينة من النضال . وكان التنافس في النبوة ذاتها ، عنصراً دائماً مذ قويت شوكة النبي العربي وسما شأن دعوته ، فظهر في أطراف الجزيرة جماعة ادعوا النبوة . وكان أقوى هؤلاء الادعياء وأشدهم بأساً الاسود العنسي ، وهو مشعوذ بارع ، زعم النبوة ، فاجتمع حوله خلق كثير وسار الى اليمن ، فاستولى عليها من يد عمال النبي ، وارتد كثير من أهلها والتفوا حوله ، وأنشأ له هنالك حكومة تنافس حكومة المدينة في رياسة الجزيرة . فكتب النبي الى عماله أن يحتالوا في سحقه اما بحرب او اغتيال . فآثروا التآمر والغيلة اتقاء لبأس الدعي . وأتمروا على قتله بالاتفاق مع زوجه ، ونفذوا الى منزله ذات ليلة ، وقتلوه ، وانهارت بذلك نبوته ودولته

هذان مثلان للمؤامرة السياسية في عصر الاسلام الاول او بالحري في عصر النبوة . واذا كان اللون الديني يغلب عليهما في الظاهر ، فان روحهما هو السلطان السياسي ، لان الزعامة الدينية كانت كما تقدم قاعدة جوهرية للسلطة الزمنية

٢ ـ وقامت الخلافة الاسلامية ، بولاية ابي بكر أول خلفاء النبي العربي . وبدأت الرياسة الروحية تتخذ صفة الملك السياسي ، ولكن الصبغة الدينية للدولة الاسلامية لبثت أيام الخلفاء الراشدين قوية عميقة ، وان لم يكن ثمة ريب في ان السلطتين الروحية والزمنية كانتا يومئذ عنصرين يندمج كل منهما في الآخر ، وشقين لازمين لهيكل واحد لا يتجزأ هو الخلافة

ولكن الاطماع والاهواء التي كانت تضطرم أيام النبي خفية في صدور الزعماء والقادة أخذت تتفتح منذ وفاة النبي فقضى ابو بكر شطراً من خلافته في محاربة الخارجين والمرتدين ، واستطاع ان يخمد هذه الاطماع حيناً ، وأن يقبض على السلطة كاملة . ثم جاء عمر فدفع الاسلام بعزمه وحزمه الى ميادين ظفر شاسعة . ولكنه زهق بخنجر قاتل (سنة ٢٤ هـ) . وهنا نقف مترددين ، فان الرواية تجمع على ان قتل عمر انما كان لحفيظة شخصية ، وان قاتله ابو لؤلؤة ، وهو مجوسي أو نصراني فارسي من موالي المغيرة بن شعبة ، نقم على عمر انه لم يصغ الى تظلمه من ارهاق سيده له بالخراج ، فطعنه في فجر ذات يوم بالمسجد ، عدة طعنات أودت بحياته . ومن الصعب أن تناقش رواية كهذه يجمع عليها مؤرخو العرب ، ولكن قد يسمح لنا مع ذلك أن نرتاب ، على الاقل في حقيقة العوامل التي سلحت يد قاتل أعظم خلفاء الاسلام . فليس بعيداً أن يكون للسياسة اصبع في تدبير هذه الجريمة ، وأن يكون خنجر ابي لؤلؤة نفثة لطرف من الاهواء والمطامع التي سحقها عمر بسياسته الحديدية التي لم تعرف هوادة ولا مصانعة

وقد زهق عثمان ثالث الخلفاء ضحية التآمر . وكانت سياسة الاصطفاء والاثرة التي اتبعها مثار العاصفة التي احتملته على كاهلها . فانه ما كاد يتولى الحكم حتى عزل معظم عمال سلفه على النواحي ، واستبدلهم بجماعة من قرابتــه وصحبه ، واستأثر بكل رأي وسلطة ، واتبع هواه وهوى شيعته في تدبير الامور ، وتبذير الأموال العامة ، واستبد عماله بالنواحي ، واضطهدوا أهلها ، وعاثوا في خراجها ومرافقها ، فكثر الطعن عليــه في الامصار وفي المدينة . وجاءت وفود النواحي الى المدينة أخيراً لتشكو عمال الخليفة اليه ، ولتطلب اليه الانصاف والعدالة . فردهم بالوعود الحسنة . ولكنهم ضبطوا في الطريق كتاباً أرسله مروان بن الحكم وزير عثمان ومستشاره المتسلط عليــه الى عمال النواحي يأمرهم بقتل زعماء الوفود لدى عودتهم ، فارتدوا الى المدينة ، وطالبوا بتسليم مروان فأبى عثمان واصر على ابائه . فتفاوض الزعماء فيما بينهم وانضم اليهم خصوم عثمان في المدينة ولم يجد تدخل علي بن أبي طالب ونصحه لعثمان في حسم النزاع فتيلا . واشتد السخط على عثمان حتى اضطر ان يلزم داره ، فحاصره الزعماء الخارجون ومن اليهم من خصومه وتخلى عنه صنائعه وأقرب الناس اليه وهم بني أمية أبناء عمومته الذين آثرهم واصطفاهم وفروا جميعاً الى الشام . وطال أمد الحصار زهاء أربعين يوماً والخليفة سجين في داره . وولد علي بن أبي طالب وصحبه يدفعون الثوار عن اقتحام الدار . ولكن مصير الخليفة كانت قد بت فيه ، فتسور الدار جماعة من المتآمرين وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر ، وقتلوا الخليفة الشيخ (سنة ٣٥ هـ)

هذه هي العوامل التي أفضت الى مقتل عثمان ، والظروف التي زهق فيها طبقاً لما يعرضه مؤرخو العرب . ولكن كثيراً من الغموض والريب يحيط بهذه الجريمة سيما اذا ذكرنا ما تلا مقتل عثمان من الحوادث . والظاهر ان الخوارج وان لم يجاهروا وقتئذ بمبدئهم السياسي قد اشتركوا في تدبير هذه الجريمة او على الاقل حرضوا على ارتكابها ، ثم كانوا بعد ذلك عوناً لعلي بن ابي طالب في تولي الخلافة . وهذا ما يفسر وقوفهم منذ البداية الى جانب علي في محاربة أنصار الخليفة المقتول او المتظاهرين بالتشيع له والمطالبين بثأره ، ثم خروجهم عليه بعد ذلك حينما رضي بمهادنة خصومه ، وقبل فكرة التحكيم حسماً للخلاف بينه وبينهم . وكان هذا بدء حركة الخوارج الشهيرة

وأصل هذا الخلاف يرجع الى انه لما قتل عثمان وتولي علي الخلافة ثار عليه فريق من خصومه وعلى رأسهم بعض الزعماء المشهورين مثل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومعهم السيدة عائشة زوج النبي . وقد نهضوا في الحقيقة لاسقاط علي ولكنهم انتحلوا لخروجهم مسألة المطالبة بدم عثمان ومعاقبة قاتليه . وقد كان هذا احراجاً لعلي وتحدياً له في الواقع لان دفاعه ودفاع ولده وصحبه عن عثمان لم يمنع توليه الخلافة من بعد عثمان بمؤازرة الجناة وانصارهم. وهو موقف يبعث الى التساؤل ، ويستثير الريب في حقيقة الدور الذي أداه علي في حادث مقتل عثمان . بيد ان علياً حاول أن يهدىء الخارجين عليه بالتبرؤ من دم عثمان ولعن قاتليه في خطبه وأحاديثه . فلم يقنع الثوار منه بذلك واستعدوا لمحاربته . ونشبت بين الفريقين

بجوار البصرة موقعة تعرف بموقعة الجمل (سنة ٣٦ هـ) هزم فيها الثوار وقتل طلحة والزبير

٣ ـ وكان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام منذ خلافة ابن عمه عثمان فأراد علي حينما ولي الخلافة أن ينزع كل ولاة عثمان الحكم وان يولي مكانهم نفراً من صحبه ، فبعث عاملا جديداً الى الشام فرده أهلها ، وأظهر معاوية الخلاف ، ووجد في المطالبة بدم عثمان حجة يستر بها مطامعه فى الخلافة والملك ، فاستأنف دعوة طلحة والزبير . ولم تجد المفاوضة في حسم النزاع ، فتجهز الفريقان للحرب ، وتلاقيا بصفين ، وكادت الدائرة تدور على معاوية لولا أن لجأ حليف معاوية ، عمرو بن العاص الى حيلته المشهورة في الاشارة على أهل الشام برفع المصاحف فوق الاسنة ودعوة أهل العراق الى حقن الدماء وتحكيم القرآن في حسم الخلاف . وكانت هذه حيلة صائبة أوقعت التفرق بين أنصار علي اذ رأى بعضهم قبولها وعارض البعض الآخر . وكان علي يؤثر رفضها لانه أدرك انها خدعة دبرها خصومه لاجتناب الهزيمة واغتنام الوقت ، ولكنه اضطر الى قبولها خشية التمرد ولان القبول كان من رأي الاغلبية . وكان أشد الخارجين عليه وقتئذ واكثرهم إلحافاً في قبول التحكيم جماعة من الزعماء المعروفين منهم الاشعث بن قيس ، ومسعد بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي حين قالوا : « القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعونا الى السيف » . واولئك هم طليعة الخوارج

ثم اختار أهل العراق ابا موسى الاشعري حكماً لهم ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وكتب الفريقان وثيقة بالتحكيم نص

فيها على تفويض الحكمين بتطبيق نصوص القرآن والسنّة ، وعلى وقف الحرب والقتال حتى يتم التحكيم في ظرف ستة أشهر من عقد الهدنة . وكان ذلك في صفر سنة ٣٧ ﻫ

وفي رمضان سنة٣٧ ﻫ اجتمع الحكمان بحصن« دومة الجندل » باحدى قرى الشام ومع كل منهما اربعمائة رجل من الفريق الذي يمثله . وهنا لجأ عمرو الى الدهاء والخديعة مرة اخرى ، فاتفق مع ابا موسى على أن يخلعا علياً ومعاوية وأن يكون الامر بعد خلعهما للمسلمين فيختاروا للخلافة من شاءوا ، ودفع ابا موسى الى البدء باعلان هذا القرار ، ثم نهض في أثره ووافقه على خلع علي ، ولكنه نادى بولاية معاوية « لانه ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه » ، فبويع معاوية بالخلافة على أثر ذلك واشتد الاضطراب والتفرق بين أنصار علي

وكان نفر من أهل العراق ممن غضبوا لفكرة التحكيم قد طلبوا الى علي أن يرجع عن خطته وأن يمضي في الحرب وأوفدوا اليه من زعمائهم رجلين هما زرعة بن البرج الطائي ، وحرقوص بن زهير السعدي فهدداه بالخروج والحرب اذا أصر على قبول التحكيم ، فاحتج علي بالعهد الذي أبرمه ، وعندئذ أعلن المعارضون خروجهم عليه ، واولئك هم الفريق الثاني من الخوارج

ثم اجتمع الخوارج سواء من قبل التحكيم منهم بادىء بدء ، ومن لم يقبله ، واختاروا لزعامتهم عبد الله بن وهب الراسي فكان اول رؤسائهم . واستقر امرهم على مغادرة الكوفة واعلان الثورة انكاراً لهذه « البدعة المضللة والاحكام الجائرة » . وكتبوا الى

أنصارهم يستحثونهم على اللحاق بهم . وخشي علي عواقب هذا الانقسام فحاول أن يلاطف الخارجين وان يقنعهم بخطئهم ، فلم يقتنعوا وأصروا على الحرب . فاعتزم على قتالهم وخطب الناس : « ألا ان هذين الحكمين نفذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه ، واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد » . وسار شمالاً لمقاتلة الخوارج حتى لحق بهم في النهراوان وأنذرهم بسوء العاقبة في خطاب لخص فيه أوجه الخلاف بينه وبينهم في قوله : « ألم تعلموا اني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم ان طلب القوم لها مكيدة ، وأنبأتكم ان القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن واني أعرف بهم منكم . قد عرفتهم أطفالاً ، وعرفتهم رجالاً ، فهم شر رجال ، وشر اطفال ، وهم اهل المكر والغدر ، وانكم فارقتموني ورأيي جانبتم الخير والحزم فعصيتموني واكرهتموني حتى حكمت ، فلما ان فعلت شرطت واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن منه فاختلفا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنفذنا امرهما » فلم يصغ الثائرون الى نصحه ، واشتبك القتال بين الفريقين ، ونادت الخوارج «لا حكم الا الله . الرواح الرواح الى الجنة » وكانت الموقعة رائعة مزق فيها الخوارج شر ممزق وفر من نجا منهم الى مختلف الانحاء (سنة ٣٨ هـ).

وعاد علي الى الكوفة ليتم اهبته لقتال معاوية ، ولكنه لقي من جنده اعراضاً ونفوراً ، وانفض عنه وجوه اصحابه ، فسكت على مضض ، ولبث يرقب الحوادث

ولم تكن موقعة النهراوان فوق ذلك قبراً للخوارج لان اعراض

الثورة ما لبثت ان شملت معظم النواحي ، وخرج كثيرون من الزعماء الذين اعتنقوا دعوة الخوارج في جموع صغيرة ، ونشبت المعارك بينهم و بين قوات علي في معظم الانحاء

٤ ـ كان النصر في تلك المعركة الهائلة التي أثارها الخوارج لعلي . وكان الخوارج أقلية . وكانت مبادئهم المتطرفة لا تلقى تأييداً من الكافة [1] ومع ذلك فقد كانت الدعوة الخارجية معولاً يهز أسس الخلافة العلوية ويمعن في تقويض دعائم الجمهورية الدينية ، وكان عهد الوحدة قد تصرم ، وشقت الاطماع الدنيوية طريقها بين مبادىء الفضيلة والزهد والتقوى التي امتاز بها عصر النبي وخلفائه الاوائل ، وغدت كل الاسلحة مشروعة في تحقيق الدعوات والاهواء المختلفة . فلم تمض أشهر حتى تمخضت هـذه المعركة التي أزكتها شهوات الملك والرياسة عن مؤامرة سياسية كبرى هي مؤامرة الخوارج الشهيرة

ونعود ايضاً فنقول ان كثيراً من الغموض يحيط بمنشأ هذه المؤامرة الكبرى . والرواية العربية كعادتها تتناول المؤامرة وظروفها ببساطة ، وتقنع بعرض الظواهر المادية دون ان تتعرض لتحليل العوامل والاسباب الدفينة . وأول ما نظفر بأثر هذه المؤامرة في مكة حيث اجتمع نفر من الخوارج في موسم الحج سنة ٣٩ هـ هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والحجاج بن عبد الله التميمي الصريمي ، وعمرو بن بكر التميمي ، وتحدثوا في امر الحرب الاهلية

(١) أتينا على سيرة الخوارج وحروبهم ومبادئهم مفصلة في كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية »

التي أثارها جشع الرؤساء ، واستبداد الولاة ، وما جرت اليه في النهراوان من ضحايا غالية وما أفسدت من نظام المجتمع الاسلامي قاطبة . واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة أعني علي ومعاوية وعمرو ابن العاص هم المسئولون عن وقوع هذه المصائب ، وانه يجب قتلهم ، وإراحة الامة الاسلامية من شرهم وجشعهم ، وتعاهدوا على أن يقوموا بتلك المهمة ، وأن يهبوا انفسهم رخيصة في سبيل تحقيقها . واتفقوا على أن يتولى عبد الرحمن بن ملجم قتل علي ، والحجاج الصريمي قتل معاوية ، وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص ، وأن يكون التنفيذ في الكوفة والشام ومصر في وقت واحد هو ليلة ١٧ رمضان سنة ٤٠ من الهجرة

هكذا تعرض الرواية العربية منشأ تلك المؤامرة الشهيرة ولكنا نعتقد ان منشأها يرجع الى ما وراء ذلك ، وان زعماء الخوارج انفسهم هم الذين دبروها ، وان ابن ملجم وزميليه كانوا رجال التنفيذ فقط ، ولم يكن اجتماعهم بمكة ، وتدبيرهم لطرق التنفيذ الا مرحلة أخيرة للمؤامرة

وعلى أي حال فقد سار كل منهم في طريقه ، فذهب ابن ملجم الى الكوفة متنكراً ، وتأهب هنالك لتنفيذ الجريمة بمعاونة حسناء من الخوارج ، قتل أخوها في حرب النهراوان ، تدعى قطام هام بها وتزوجها على أن يقتل علياً ، ومعاونة اثنين من شيعته يدعيان شبيب ووردان . وأقام هنالك ينتظر يوم التنفيذ ، وهو يشحذ سيفه ويسقيه السم . وفي ليلة التنفيذ سار مع صاحبيه فجراً الى المسجد . وكانت ليلة الجمعة . فجلس الجناة مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة .

فلما خرج ونادى للصلاة ، بادره شيبان بسيفه فلم يصبه وهوى السيف على عضادة الباب ، وقبل ان يفيق علي من دهشته طعنه ابن ملجم في مقدمة رأسه طعنة قوية وهو يقول : الحكم لله لا لك يا علي ، فصاح علي : لا يفوتكم الرجل ، فقبض الناس على ابن ملجم وعلا الصياح واشتد الاضطراب ، وانتهز شبيب ووردان فرصة الهرج ففرا تحت جنح الغلس . واجتمعت شيعة الخليفة الجريح حوله فقال : ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان أعش فانا ولي دمي إما عفوت واما اقتصصت . ولكنه توفي بعد يومين ، وقتل ابن ملجم بعد ان عذب وقطعت أطرافه . وفقد الاسلام بمقتل علي زعيماً من اكبر زعمائه ، ومؤسسي صرحه ، وطويت صفحة من أمجد صفحات الفروسية

أما الحجاج الصريمي ، وعمرو بن بكر ، فسار أولهما الى الشام ، وكمن لمعاوية في المسجد في الليلة المتفق عليها . فلما خرج معاوية لصلاة الصبح طعنه بسيفه وهو ساجد فاصابه في عجزه بجرح يسير برىء منه ، وأمر بقتل الحجاج . وأما الثاني فسار الى مصر . وكان عمرو قد وليها ثانية منذ بيعة معاوية ، وكمن له ليلة التنفيذ في المسجد ولكن شاء القدر ألا يخرج عمرو في تلك الليلة للصلاة لمرض أصابه فقتل ابن بكر رسوله خارجة الذي أنابه عنه ليصلي بالناس معتقداً انه عمرو . فلما مثل أمام عمرو قال : « أردت عمراً ، واراد الله خارجة » وقص على عمرو سيرة المؤامرة فقضى بموته

هذه هي وقائع تلك المؤامرة الكبرى ، التي هي أشهر مؤامرة في الاسلام بلا ريب ، وأبعدها أثراً في مصائره . ويكفي لكي نقدر فداحة هذا الاثر ان نستعرض ما تلا مقتل علي من انقضاء عهد

الجمهورية الدينية ، وتحول الخلافة الى ملك سياسي ، وقيام الدولة الأموية الزاهرة التي دفعت حدود الاسلام الى ما بين السند واسبانيا

ومما قال الشعراء في جناية ابن ملجم :

تضمن للآثام لا در دره ولاقى عقاباً غير ما متصرم
فلا مهر أغلى من علي وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة [1] وضرب عليّ بالحسام المصمم

٥ ـ ومضى زهاء قرن لم ينقطع فيه النضال بين شيعة علي وبني أمية . وكان هذا النضال يتخذ على الاغلب صبغة الخروج والثورة . ففي فرص عدة خرج الدعاة من ولد علي بن أبي طالب أو من ينتسب اليهم في الحجاز والعراق ودعوا لانفسهم او لأئمتهم بالخلافة ، ولكنها كانت جميعاً ثورات محلية قصيرة المدى . ولا نجد في ذلك العصر دوراً للمؤامرات السياسية الحقة ، وان كان التآمر عنصراً ماثلاً في جميع هذه الثورات الشعبية التي كان يدبرها دعاة ماهرون يستترون بالدعوة الدينية لينتزعوا الملك السياسي

ثم قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الأموية ، وقامت على اكتاف الشيعة . ولكن بني العباس بعد ان شادوا صرح ملكهم قلبوا ظهر المجن للشيعة فعاد الشيعة الى النضال ، وخرجوا مراراً في أوائل الدولة العباسية في عهد المنصور والهادي والرشيد فمزقتهم جيوش بني العباس حتى توارت دعوتهم في المشرق ولم تجد لها منفذاً الا في المغرب

---

(١) يشير الى المهر الذى اشترطته قطام على ابن ملجم

ولسنا نستطيع أن نعامل الدعوات السرية الدينية والحركات الهدامة الخفية التي لبث الشيعة يدبرونها بعد ذلك لانتزاع الملك كمؤامرات سياسية ، وان كان التآمر دائماً أحد عناصرها الجوهرية فهي حركات ذات صبغة دينية فلسفية قبل كل شيء ولم يكن الملك غايتها الاولى والاخيرة ، بل كانت ترمي الى ان تحقق الى جانب الملك غايات فكرية وروحية كبرى (١) .

٦ ـ التغلب على السلطان وانتزاع الملك دون رسومه من ظواهر الحكم المطلق . ويختلف اللون الذي يتخذه هذا التغلب باختلاف الظروف التي تجوزها الدولة ، واختلاف النظم السياسية التي يقوم عليها الملك . ففي الوقت الذي تكون الدولة فيه في إبان مجدها وقوتها يبرز المتغلبون من بين الزعماء أفراداً من ذوي العصبية والجاه سواء بين طبقات الشعب أو الجند . ولكن التغلب يتخذ عندئذ صفة الاغتصاب ، ويستند غالباً الى القوة القاهرة ، ويضحى السلطان آلة في يد المتغلب ، وكثيراً ما ينتهي الى انتزاع رسوم الملك بعد انتزاع سلطته . فاذا أشرفت الدولة على السقوط ، كان المتغلبون عادة من طبقات الجند أو الحرس الذين يحمون العرش ، وهنا يتخذ التغلب صفة الاستبداد والبطش فيصبح العرش فريسة في يد الحرس المتغلب يهبه لمن شاء من الاسرة المضمحلة ممن يرى في توليته تحقيقاً لصالحه ، فنرى الحرس الامبراطوري في أواخر الدولة الرومانية وحرس الخلفاء في الدولة العباسية وفي مصر ، وحرس القيصر

---

(١) لم نر وجهاً لبحث الحركات الشيعية السرية والهدامة فى هذا المقام خصوصاً بعد ان عالجناها باسهاب فى كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية » فى باب الثورة على الاسلام

(سترلتزي) ثم حرس السلطان في الدولة العثمانية (الينى شاري) يستبدون بالعرش وولاته . ونرى الامبراطرة والخلفاء والملوك يتعاقبون بين تولية وخلع ونفي وقتل . وأما تغلب الافراد فنراه ماثلاً في التاريخ الاسلامي في طبقة الحجاب في الاندلس ، وقد بلغ ذروته في تغلب الحاجب المنصور على هشام بن الحكم ، وفي مصر في قادة الجند . على أنا نجد أسطع مثل للتغلب السياسي في جميع الدول الاسلامية في قيام دولة البرامكة ، وتغلغلها في سلطان بني العباس ، واستئثارها بالنهاية بجميع السلطات العامة . ولكن مثل البرامكة فذ في كونه قد وقع إبان مجد الدولة العباسية وذروة بأسها وفذ ايضاً في أن النضال الخفي بين المتغلب والسلطان لم يلبث أن انفجر الى معركة أو جريعة حطمت سلطان المتغلب . واذا كان نهوض البرامكة من حوادث التغلب العادية فان مصرعهم من الحوادث الفريدة في التاريخ الاسلامي . ثم هو ايضاً من الحوادث الغامضة التي كانت مثاراً للجدل المستفيض . بيد أنا سنحاول أن نعنى بهذه العوامل ، وأن نتعرف طرفاً من حقيقتها بسرد الظروف التي نشأت فيها فكرة نكبة الرشيد للبرامكة التي تكون فصلاً فريداً في تاريخ مؤامرات القصور

٧ ــ نقف قليلا اذن في عصر الرشيد لنقص سيرة هذه المؤامرة السياسية الكبرى وهي مؤامرة ذات ظروف خاصة ، يدبرها الخليفة نفسه أو يشترك في تدبيرها ليسترد سلطات مغتصبة وليدعم هيبة محتضرة . فالعرش أو مقام الرياسة هو روح المؤامرة ، وهو الجاني

اذا صح التعبير و ليس مجنياً عليه كما هو الشأن في معظم المؤامرات السياسية

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ، ظهرت الى ميدان الحوادث بقيام الدولة العباسية . وكان عميدها ومؤسس سؤددها خالد بن برمك من كبار الشيعة . ولاه المنصور على الموصل واذربيجان ، وولى ابنه يحي على أرمينية . ثم عهد اليه المهدي بتربية ولده الرشيد ، فلما ولي الرشيد ، استوزر يحي ، وفوض اليه في مهام الحكم . وكان بنو يحي وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعاً من أولي العزم والنباهة ، فظهروا جميعاً بين رجالات الدولة ، وشغلوا أعظم مناصبها . فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخوه من الرضاع ، ثم استوزر جعفر ، وبذلك اجتمعت السلطة كلها في يد يحي وولديه ، وآلت اليهم مصاير الشئون العامة ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ في الدولة

وكان البرامكة علم الفضل والجود والذكاء والعزم فلبثوا يديرون شئون الدولة زهاء سبعة عشر عاماً ، وطالعهم في صعود ، ونفوذهم في ازدهار ، والدولة على يدهم في تقدم ، وسلطة الخلافة العباسية في نمو وتمكن ، والشعب في يسر ورغد حتى غدوا غرة في جبين هذا العصر . وكانت لهم المكانة العليا في كل ناحية من نواحي الامور العامة ، أو الحياة الخاصة . ولكن ارتفاع البرامكة الى ذروة المجد والسلطان على هذا النحو ، وتفوقهم على كل بيوتات الدولة في الخلال ، والرفعة ، والغنى والبذخ ، وتمكنهم من قلوب الكافة بفيض الجود والفضل ، واجتماع السلطات العامة جميعها في يدهم ، وانتهاء

مصائر الشئون كلها اليهم ، لم تلبث ان أثارت جزع الرشيد وتوجسه ، وغيرة المنافسين من رجال البطانة والقصر . وكان الفضل بن الربيع حاجب الرشيد (كبير الامناء) ألد عدو للبرامكة ، وكان لا يترك فرصة للوشاية بهم واحفاظ الرشيد عليهم ، وكان خصومهم الآخرون لا ينقطعون في نفس الوقت عن الكيد لهم ، والسعاية في حقهم ، وكان الرشيد في الواقع يرى بهاء البرامكة يكاد يغشي بهاءه ، وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه.

٨ ـ في مهد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم . وطبيعي ان يكون الخليفة الذي يشفق على سلطانه من الزوال روح هذه الفكرة . وطبيعي ان تلمس عوامل تلك المؤامرة في هذا الميدان قبل كل شيء . ولكن الرواية العربية تقدم أسباباً عدة لنكبة البرامكة منها ما يذهب مذهب القصة ، بيد أنا نورد هذه الاسباب لانها رغم ضعفها وتباينها تلقي ضياء على ذلك الحادث الشهير

أول هذه الاسباب قصة العباسة ابنة المهدي وأخت الرشيد فيقال ان الرشيد كان يحب اخته هذه ، ولا يطيق بعداً عنها . فكان يدعوها الى مجالس أنسه ولهوه ، وكان من جهة اخرى كلفاً بصحبة وزيره جعفر شغوفاً بسمره ، فكان لا يصبر عنه ، فرأى الرشيد ان يزوج جعفر من أخته العباسة حتى يحل له الاجتماع بها في مجالسه على شرط ان يكون الزواج اسما فقط، فعقد الزواج على هذه الصورة ولكن العباسة هامت بجعفر وهام بها فتلاقيا سراً وعاشرها حتى حملت منه . وكانت زبيدة زوجة الرشيد تحقد على العباسة لفرط

جمالها ونفوذها على الرشيد ، وكانت تراقب كل حركاتها . فلما وقفت على علاقتها بجعفر ، وظفرت بالادلة عليها ، فضحت أمرها للرشيد ، فقرر اهلاك البرامكة واهلاك اخته . ويعامل ابن خلدون هذه القصة بازدراء وسخرية ، وينكرها بشدة ، غير أنه يستند الى منطق العواطف فقط فيقول : « هيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها . . . ابنة خليفة ، أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته ، وامامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفحش ، فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها ؟ ! وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحي وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ؟ ... وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم ؟ ... وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ » وهو منطق ظاهر الضعف ، وتدليل لا يتفق مع دقة الفيلسوف وتعمقه ، واستنارة عقليته ، وتجردها في معظم المواقف من شوائب النعرات الجنسية والقومية والروحية .

ومما يروى أيضاً في سبب تغير الرشيد على البرامكة ان يحي ابن خالد دخل عليه ذات يوم بغير اذن وعنده طبيبه جبرئيل بن بختشيوع ، فسلم فرد الرشيد رداً ضعيفاً ثم قال للطبيب : أيدخل عليك منزلك أحد بغير اذن ؟ فقال : لا . قال : فما بالنا يدخل علينا بغير إذن ؟ فقال يحي : يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأ ذلك الساعة ولكن أمير المؤمنين خصني به حتى ان كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً وما

علمت ان امير المؤمنين كره ما كان يحب فاذا قد علمت فاني سأكون في الطبقة التي تجعلني فيها . ومن ذلك الحين أمر الرشيد ألا يحتفي الغلمان بقدوم يحيى ، وأعرض عنه

وهناك سبب آخر فيه شيء من القوة والوجاهة هو أن الرشيد عهد بيحي بن عبد الله ، وهو من ولد علي بن أبي طالب ، وكان قد خرج بالديلم ودعا لنفسه ، فحاربه جند الرشيد وأسروه ، الى جعفر ليسهر على اعتقاله ، فأطلق جعفر سراحه خفية ، ونما الخبر الى الفضل بن الربيع ، فأبلغه الى الرشيد ، وراجع الرشيد وزيره في ذلك فأنكر أولا ثم اعترف ، واعتذر بأنه رأى ألا خطر من اطلاقه .

وقد لبث بنو العباس كما قدمنا حينا يكافحون الدعوة الشيعية ، ويحاربون الخارجين عليهم من دعاتها وأئمتها ، ويرون خطراً عظيماً على سلطانهم في بقائها ، فحماية البرامكة لداعية قوي من هؤلاء لم يظفر به الرشيد الا بعد حرب دموية ، واطلاقهم لسراحه خفية مما يحمل على الشك في أمانتهم ، ويقوي ما كان ينسبه اليهم خصومهم من الكيد للخلافة العباسية ، والطموح الى انتزاع العرش

وقد لا يكون هذا الحادث الاخير سبباً جوهريا لتدبير الايقاع بالبرامكة ، ولكنه على أي حال يمت بصلة الى السبب العام الذي نعتقد انه هو منشؤ الفكرة ، والعامل الجوهري في تنفيذها ونعني استئثار البرامكة بكل سلطة في الدولة ، وتضاؤل سلطة الرشيد ، وتضعضع هيبته أمام سلطان البرامكة وباذخ نفوذهم . وهو ما يشير اليه ابن خلدون بدقة ووضوح في قوله : « وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان

الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدومهم نواشيء الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة ، وكامن الحقود التي بعثها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار المخالفة كقصتهم في يحي ابن عبد الله »

وقد اورد ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد في باب اخبار الرشيد وسمره ما يؤيد هذا الرأي ومن ذلك ان بطانة الرشيد كانوا يسعون الى تحريك حفائظه على البرامكة حتى في مجالس أنسه فيدسوا للمغنين أشعاراً معينة تسمم مشاعر الخليفة مثل :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد　　وشفت انفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة　　انما العاجز من لا يستبد

ويقال ان الرشيد لما سمع هذه الانشودة قال أي والله اني عاجز.

« حتى بعثوا ، على قول ابن خلدون ، بأمثال هـذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه »

٩ ـ ففي فاتحة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) عاد الرشيد من الحج ونزل بالانبار . وفي أوائل صفر أصدر الرشيد أمره ذات ليلة فجأة باعدام جعفر ، والقبض على أبيه واخوته . وقام بتنفيذ هذه المهمة المحزنة مسرور جلاد الرشيد المشهور في جماعة كبيرة من الجند ففاجأ جعفر في داره يلهو ويطرب مع نفر من الاصدقاء منهم الطبيب ابن بختشيوع . فتضرع اليه جعفر وطلب مراجعة الرشيد مراراً ، ولكن

أمر الرشيد كان قاطعاً ، فقتل الوزير المنكود أمام خيمة الرشيد ، وتدحرجت رأسه عند أقدام الجند الذين طالما خفضوا رءوسهم اجلالاً له ، ومثل بجثته في اليوم التالي في شوارع بغداد . وفي الحال قبض على يحي بن خالد وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى وسجنوا في الرقة وصودرت أموالهم جميعها من منقولة وثابتة في جميع أنحاء الدولة . وكان اعتقالهم يسيراً في المبدأ فلم يضيق عليهم بل سمح لهم باستبقاء الخدم وما يشتهون من متاع وغيره . ولكن حدث بعد ذلك بعام ان اتهم عبد الملك بن صالح وهو حفيد لابن عباس ومن عمومة الرشيد بالتآمر على الرشيد والتطلع لاغتصاب العرش . فقبض عليه وثبتت ادانته باعتراف ولده وكاتبه عليه ، ونسب في نفس الوقت ان للبرامكة يد في المؤامرة ، فانتهزها الرشيد فرصة للتضيق على يحي وأولاده ، فجردوا من جميع أسباب الرفاهة والراحة ، وعرضوا لانواع الارهاق والاهانة ، فمات الوزير الشيخ يحي في سجنه غماً وقهراً في سنة ١٩٠ ه (٨٠٦ م) ولحق به ابنه الفضل الى القبر بعد ذلك بثلاثة أعوام . أما محمد وموسى فقد أطلق الرشيد سراحهما على ما يظهر ، لعدم خطورة مركزهما ، وبعد ان هوت اسرتهما الى حضيض الفاقة والعدم . ولكن عبد الملك بن صالح بقي في السجن حتى توفي الرشيد ، وتولى الأمين ، فاطلق سراحه وعينه حاكما للشام

وأما مصير العباسة ، اذا صحت الرواية الخاصة بها ، فيختلف الرواة فيه أيضاً ، فيقول البعض ان الرشيد طردها من قصره ، فعاشت مع ولدها في أنحاء مجهولة عيشة شقية ، ويقول البعض الآخر

انهما قتلا بامر الخليفة سراً ولم يعلم بمصيرها أحد . وكانت قصة غرام العباسة وجعفر مستقى لبعض كتاب الخيال الغربيين ، فنشرت عنها عدة قصص معروفة [1]

ونكبة البرامكة من أشهر جرائم القصور ، ووصمة خالدة في عصر الرشيد تفشي مجده وتلقي سحابة من الريب على خلاله . ويقال انها عكرت صفاء الرشيد في أعوامه الاخيرة ، وان الندم كان يساوره أحياناً . على أنه قد يقال تبريراً لجريمة الرشيد أو على الاقل تخفيفاً لسؤله ، ان سلطان البرامكة كان كما رأيت خطراً عظيما على سلطان بني العباس ، وكان البرامكة علم القومية الفارسية التي عملت على اخضاع الدولة العربية لنفوذها المعنوي تحطيماً لاستعباد العرب السياسي للامة الفارسية ، وربما كان سلطان البرامكة سلاحاً قوياً لتحريك القومية الفارسية الى الوثوب بسادتها العرب وتحطيم دولتهم وسيادتهم . وهذه الاعتبارات القوية يجب ان تقدر قدرها ، وان تشفع للرشيد شفاعة قوية في التجائه الى هذه السياسة المكيافيلية

وعهد البرامكة أزهر وابهى عصور الدولة العباسية بلا مراء : كانوا على قول ابن خلدون « من محاسن العالم ، ودولتهم من أعظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » . ولما تولى المأمون رد الى البرامكة أملاكهم وحقوقهم ، ولكن ضربة الرشيد كانت قاضية ، فلم تعد الاسرة النابهة قط الى سابق مكانتها ونفوذها . وقد أفاض شعراء هذا العصر في رثائهم ـ وكانوا حماة الأدب

---

(١) مثل قصة لاهارب في الفرنسية ، وفون هامار في الالمانية

وملاذ الشعراء - ومن ذلك ما ينسب للرقاشي وقيل لابي نواس ، قوله :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السرى وطي الفيافي فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيف هاشمي مهند

١٠ - ولم يأت منتصف القرن الثالث الهجري حتى كانت أسباب الانحلال قد سرت الى دولة بني العباس ، وبدأ الحرس التركي الذي أنشأه الخلفاء سياجاً لعرشهم وبذخهم يسيطر على الامور ويخضع الخلافة لصولته على نحو ما قام به الحرس الامبراطوري في عصور رومة الاخيرة ، فكثرت الدسائس والمؤامرات في القصر ومن حوله ، وبدأ الخلفاء يسقطون تباعاً صرعى لأهواء الحرس الاجنبي وأهوائهم . وثبت الخلفاء الذين زهقوا أو خلعوا نتيجة لهذه السياسة حافل ، ويكفي أن نذكر ان الخليفة المتوكل ذهب ضحية مؤامرة دبرها ولده المنتصر بمؤازرة ضابط من الحرس التركي يدعى بغا الصغير (سنة ٢٤٧ هـ) ثم خلع المستعين وولى المعتز بمؤامرة دبرها الحرس في سنة ٢٥٢ هـ ، وفي سنة ٢٥٦ هـ قتل المهتدي وفي سنة ٣٢٠ هـ . قتل الخليفة المقتدر كلاهما ضحية التآمر ايضاً

وأما في الاندلس فكانت الثورة غالبة على التآمر في تنازع الملك والرياسة ولم تؤد المؤامرة دوراً كبيراً في انقلابات الدولة الاسلامية هنالك . ولكننا نستطيع أن نعثر ببعض المؤامرات

الشهيرة ، ففي سنة ١٩١ هـ (٨١٣ م) ثارت مدينة طليطلة على الحكم ابن هشام الاموي امير الاندلس . وكانت هذه المدينة التالدة حاضرة القوط ، لم تبرح منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، فدفع الحكم الى قتالهم بقائده عمروس بن يوسف ، فزحف عليهم وأخمد الثورة دون مشقة ، وانحاز اليه بعض وجوه المدينة واستعان بهم على استمالة أهلها الى الخضوع والاقرار بسلطة الحكم ، ثم عينه الحكم حاكماً للمدينة ، وفكر الحكم وقائده في أن ينزلا بالمدينة الثائرة ضربة ساحقة ، فاستمال عمروس أهل طليطلة وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، ثم بنى بظاهر طليطلة قلعة حصينة دعا اليها وجوه المدينة كلهم ذات يوم وقتلهم جنده عن آخرهم . وهلك في تلك المؤامرة أو المذبحة التي تعرف بواقعة الحفرة نحو خمسة آلاف من اشراف طليطلة . وألفت المدينة الثائرة نفسها مجردة من زعمائها فسكنت الى حين

ودبرت سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) في الزاهرة [١] مؤامرة خطيرة لاسقاط الحاجب المنصور . والحاجب المنصور ، أو المنصور بن أبي عامر ، من أعظم رجالات الاندلس ، ظهر في أواخر عهد الحكم المنتصر ، وتولى الحجابة (الوزارة) بعد وفاة المنتصر وولاية ولده هشام المؤيد طفلا ، فلم يلبث ان انتزع لنفسه السلطة المطلقة ، وحجر على المؤيد ، ولم يبق للخليفة من السلطة سوى الاسم . وكان عظماء الدولة ينقمون من المنصور اغتصابه للملك واستئثاره بالسلطة واصطفاءه للبربر رغم ما أداه للدولة من جليل الخدمات سواء في

(١) ضاحية لقرطبة أنشأها المنصور بن عامر واتخذها قاعدة للحكم والاقامة

ميادين الحرب ، أو الاصلاح . فلجأوا للتآمر سعياً الى اسقاطه . وكان محور هذه المؤامرة عبد الله ولد المنصور . وكان المنصور يبغض ولده هذا ، ويشك في صحة بنوته ، ويؤثر عليه أخاه عبد الملك رغم تفوقه عليه في الشجاعة والخلال ، وكان بين المتآمرين عبد الرحمن التجيبي حاكم سرقسطه ، فقد كان يخشى ان ينزعه المنصور سيادته التي توارثها آباؤه منذ قرن كما فعل بغيره من عظماء الدولة . واعتزم المتآمرون مباغتة المنصور وجنده في اول فرصة وتقسيم السيادة فيما بينهم . وكانت هـذه مؤامرة خطيرة ، ولـكن المنصور ، لحسن طالعه ، علم بأمرها قبل ان تتم أهبة خصومه ، فبادر باستمالة ولده عبد الله وترضيته وتظاهر بالعطف عليه ، ثم عزل عبد الرحمن التجيبي وعين مكانه ابنـه يحيى لـكيلا يغضب بني هاشم ولـكنه عاد فأمر بالقبض عليه وسجنه بحجة تبديده لأجور الجند ، ثم حاكمه وقضى باعدامه فأعدم في الزاهرة سنة ٩٨٩ م

ولم يخدع عبد الله بعطف أبيه الـكاذب ، فلما سار المنصور في العام التالي لغزو قشتالة ، فر عبد الله أثناء حصار سنت استيفان والتجأ الى جارسيا فرديناند كونت قشتالة . ولـكن المنصور اقتحم حصون قشتالة ومزق جيوش الـكونت ، وأرغمه على طلب الصلح وتسليم عبد الله . ولما غادر المنصور معسكره ، وعبر نهر الدورو أمر باعدام ولده ، فقطع رأسه سنة ٩٩٠ م . وسادت السكينة حتى توفي الحاجب المنصور والاندلس أشد ما تكون بأساً وأعز جانباً

١١ ـ وكانت مصر مسرحا لتقلبات سياسية عنيفة طوال الدول الاسلامية التي تعاقبت عليها. ولـكن المؤامرة السياسية المنظمة لم تكن

عاملاً يذكر في هذه التقلبات التي كانت ترجع بالاخص الى تكاثر المتغلبين والمتنافسين ، وتعاقب الحروب ، وغلبة الفوضى في أحيان كثيرة ، وما ترتب على ذلك من سهولة الخروج والتمرد والخيانة بين الزعماء والجند ، فكانت المؤامرة السياسية تتخذ على الاغلب لون الدسائس العسكرية أو دسائس القصر ، وقلما كانت القومية المصرية تظهر الى الميدان في هاتيك العصور لتقذف المتغلب أو المغتصب بفوراتها ، فكان النضال أكثر ما يقوم بين المتغلبين أنفسهم . وتاريخ مصر حافل بهذه الدسائس . بل هي تكاد تكون تاريخ مصر في عصور كثيرة . ومن الصعب ان نجد لها مكاناً في هذا المقام . ولكنا نستطيع ان نمثل للمؤامرة السياسية بمثلين ، الاول مقتل الحاكم بأمر الله ، والثاني دسائس شجرة الدر

خلف الحاكم بأمر الله أباه العزيز في عرش مصر سنة ٣٨٦ هـ . وكان الحاكم عنيف الاهواء ، خطر النزعات ، فذ الاطوار ، جم الصرامة والقسوة « مضطرباً في الجور والعدل ، والاخافة والامن ، والنسك والبدعة » (١) فأذل المصريين وأرهقهم وعاث في أموالهم وأرواحهم وأعراضهم ، وأضناهم بغريب نزعاته ومتناقض أحكامه ، وقلب نظم الحياة الاجتماعية ، فأمر حيناً ان يستبدل النهار بالليل لاجراء المعاملات ، ومنع النساء من الخروج والتعامل ، وأطلق يد الاجانب والسفلة في شئون الدولة ، فانهارت صروح النظام والامن وانحلت الاخلاق ، وانحطت عقلية المجتمع المصري . وأثار الحاكم حوله في الجيش والقصر أيضا سخط الزعماء والكبراء ، بما كان

(١) ابن خلدون

يبديه من مفاجآت في الاصطفاء والاقصاء ، والرضى والغضب ، والوعيد والاسترضاء . وطال بطش الحاكم وعسفه ، أو بالحري طال جنونه . فدبرت مؤامرة لاغتياله . وكان كثيراً ما يرتاد جبل المقطم وهناك ينزوي في بناء منفرد ليراقب النجوم أو ينهمك في الصلاة ، ففي ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (فبراير سنة ١٠٢١ م) قصد المقطم كعادته ومع تابعان صرفهما عند سفح الجبل ، وتوغل فيه وحيداً فوق جواده، وهنالك اختفى الى الابد . فأثار اختفاؤه جزعاً واهتماماً وجد أولو الامر في البحث عنه ، فوجد جواده في رأس الجبل وقد قطعت قوائمه بالسيف ، ووجدت في كهف قريب ثيابه مزررة وقد مزقت بالخناجر ولكن جثته لم توجد قط

وليس من ريب في ان الحاكم بأمر الله قد ذهب ضحية التآمر والاغتيال ، ولكن من كان مدبر المؤامرة ، ومن كان القاتل ؟ أمر يختلف فيه المؤرخون جد الخلاف ، فمنهم من قال بأن الذي دبر المؤامرة ست الملك اخت الحاكم بأمر الله ، لانه أنذرها بالقتل اذا لم تقلع عن فضائحها الغرامية ، وان أمير الجيش كان شريكاً وعوناً في تدبير المؤامرة وتنفيذها ، ولكن المقريزي الذي عاش قريباً من عصر الحاكم يكذب هذه الرواية ويقول : ان القاتل شخص قبض عليه بعد ذلك بأربعة أعوام بتهمة الخروج والثورة ، فاعترف بأنه هو قاتل الحاكم بأمر الله وانه قتله « في سبيل الله والدين » وأورد من التفاصيل الدقيقة ما يجعل لروايته قيمة ، وعلى أي حال فمقتل الحاكم من أغمض حوادث تاريخ مصر

١٢ ـ وأما سيرة شجرة الدر فهي في الواقع سلسلة من

المؤامرات السياسية . وكانت شجرة الدر من جواري الملك الصالح ابن الملك الكامل . وكانت من أحبهم اليه ، واكثرهم نفوذاً لديه . وكانت فضلاً عن جمالها الفتان ، كثيرة العزم والدهاء . فلما توفي الملك الصالح كتمت امر الوفاة وأتمرت مع رجال القصر على تولية ولدها غياث الدين طوران شاه ، وكان وقتئذ حاكماً لسوريا ، وارسلت الى جميع أرجاء المملكة كتباً بالمبايعة مختومة بختم الملك المتوفى . وكانت مصر يومئذ في مأزق حرج لان الفرنج كانوا يحتلون أراضي دمياط وكانت الحرب قائمة بينهم وبين المصريين . ولكن جيش الملك الصالح وبالاخص حرسه المماليك ، ابلوا بلاءً حسناً وهزموا الفرنج في الواقعة المشهورة التي أسر فيها لويس التاسع (٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ) فنودي على أثر ذلك بولاية الملك غياث الدين ، ولقب بالملك المعظم . ولكن الملك المعظم أساء السياسة ، فملأ مناصب الدولة بانصاره الاجانب من السوريين والترك ، وعزل المصريين ، فغضب الناس ، وأضمر له فرسان الحرس وهم المماليك البحرية شراً ودبروا مؤامرة لقتله ، وعلى رأسهم بيبرس أحد زعمائهم وهو الذي تولى عرش مصر فيما بعد . وفي ذات ليلة اجتمع المتآمرون على مائدة السلطان بدعوة منه وبعد الفراغ من الطعام نهض أحدهم وطعن السلطان بسيفه فشق يده ، وكان السلطان فتى ، وكان خفيف الحركة ، ففر الى البرج المقام وراء روشنه مع ثلاثة من شيوخه كانوا الى جانبه ، واحتمى معهم بالبرج . أما الحرس فنزعوا مضارب السلطان ، واحتاطوا بالبرج ، وصاحوا على السلطان بالنزول ، فابى ، فالقوا على البرج بالنار اليونانية فاحترق بسرعة ، فنزل السلطان مسرعاً . وركض تجاه النهر ، فلحق به فارس

وطعنه بحربته في ضلوعه ، ولكنه استمر يركض تجاه النهر ودماؤه تقطر ، فتبعه الفرسان في الماء ، وطاردوه حتى ظفروا به وقتلوه . ويقال ان فارساً يدعى فارس الدين اقطاي مزق جثة السلطان واستخرج قلبه ، وجاء الى الملك لويس التاسع الذي كان أسيراً ، وكان معتقلاً في معسكر المصريين في سفينة بالقرب من مكان الحادث ، وقال له ويده تقطر بدم مليكه : ماذا تعطيني ؟ لقد قتلت عدوك الذي لو عاش لذبحك ! فلم يجبه لويس التاسع بشيء [1]

وكان الملك المعظم ابن الملك الصالح آخر ملوك الدولة الايوبية وبموته انقرضت ، وقامت دولة جديدة هي دولة المماليك البحرية

فلما علمت شجرة الدر بمقتل ولدها على هذا النحو ، وخشيت أن يفلت زمام الحكم من يدها ، انحازت الى جانب الحرس ، وهم أبناء جلدتها وأتمرت مع كبيرهم وأشدهم نفوذاً وهو عز الدين ايبك وكان من عشاقها ، على اغتصاب العرش ، فنجحت المؤامرة ، واخمد كل صوت ، ونودي بشجرة الدر ملكة على مصر في صفر ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م.) وتسمت بملكة المسلمين وعصمة الدنيا «ام خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب» ولكن المماليك لم يلزموا جانب السكينة طويلا ولم يرضهم الخضوع لامرأة . وكان الحرس السلطاني وهم اولئك المماليك ، قد اشتد بأسه على كر الاعوام ، حتى أصبح صاحب السلطة الحقيقية على نحو ما كان عليه حرس الخليفة العباسي . وكان المماليك يرون ان الوقت قد حان لتتويج هذه السلطة بالصيغة

---

(١) دى جوانفيل فى تاريخ القديس لويس (لويس التاسع) . وكان المؤرخ اسيرا الى جانب مليكه ، وكان شاهد عيان للحادث

شرعية واثابتهم بذلك عن دفاعهم المجيد عن مصر عصوراً متعاقبة .

يمض على ولاية شجرة الدر اشهر حتى رفعوا علم الثورة في الشام وتخلى عز الدين ايبك في نفس الوقت عن نصرة خليلته وأرغمت شجرة الدر بذلك على التنازل عن الملك بعد حكم لم يطل أمده ونودي بعز الدين ملكا على مصر ، وتزوج من شجرة الدر اتقاءً لدسائسها

ولبث الخلاف بين المماليك حيناً . وظهر من بينهم زعيم يدعى اقطاي (وهوالذي تقدم ذكره في رواية مقتل الملك المعظم) والتف حوله جماعة كبيرة منهم ، وأخذ يتطلع إلى الملك ، فدبر له إيبك كميناً وقتله داخل القلعة ، وتفرق بذلك حزبه

ولكن الخطر لم يكن يهدد ايبك من جانب المماليك قدر ما كان يهدده من جانب زوجه شجرة الدر . وكانت الخصومة في الواقع تضطرم بين الزوجين في الخفاء ، فكان السلطان يخشى غدر زوجه لانه انتزع الملك من يدها ، ويحقد في نفس الوقت على تدخلها في شئون الدولة ، وكانت شجرة الدر تعتبره غاصباً. وكانت أيضاً كامرأة وزوجة تثور غيرة من اصطفاه زوجها لبعض الجواري دونها. فاعتزمت قتله أخيراً ، ودبرت لاغتياله مؤامرة مع بعض خصيان القصر ، ففاجأوه ذات ليلة وهو في الحمام وقتلوه خنقاً وحملوه إلى فراشه ، وأشاعت شجرة الدر انه مات صريعاً. ولكن نبأ الجريمة لم يلبث أن ذاع ، فاضمر المماليك الانتقام لزعيمهم من زوجه الغادرة ، وولوا مكانه ولده نورالدين ، فقبض لفوره على شجرة الدر ، وعهد بها إلى جماعة من الجواري فاماتوها ضرباً بالنعال ، والقيت جثتها في

العراء (٦٥٥ هـ) ، واختتمت بذلك حياة ملكة غانية ، ومتآمرة بارعة ، وطويت صفحة من اخصب صفحات الهوى وكيد القصور

ولبثت مصر بعد ذلك عصوراً تتقاذفها شتى الحروب والثورات والدسائس حتى كان الفتح العثماني (٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م) ، وبه افتتح عهد يبذ في شؤمه وظلماته أسود صفحات العصور المظلمة

ونحسب انا قدمنا بذلك لمحة واضحة عن الدور الذي أدته المؤامرة السياسيه في الدولة الاسلامية في العصور الوسطى

الفصل الثاني

المؤامرات السياسية فى الدولة البيزنطية

(١) ظواهر خاصة بالدولة البيزنطية . الامبراطورة ايرينى . استئثارها بالحكم . مؤامرة لتحرير ولدها قسطنطين السادس . انتقام ايرينى وهياج الشعب . عودة الامبراطور الى الحكم . تهتك الامبراطور . مؤامرة لخلعه . فراره . استعادته وسمل عينيه . سجنه ووفاته . ائتمار نيسيفوروس بايرينى . انتزاعه للعرش (٢) باردانس قائد الجيش . خروجه على نيسيفوروس . اخفاقه واعتقاله . الامبراطور ليون الخامس . ميخائيل العمورى . ائتماره بالامبراطور . اعتقاله ومحاكمته . جزع الامبراطور . شهوده لقداس الميلاد . مقتله . تولية ميخائيل العمورى (٣) الامبراطورة تيودورا . وصايتها على ولدها ميخائيل الثالث . اهواء الامبراطور . زواجه القهرى . ائتمار برداس بمنافسه توكتستوس واغتياله . اعتقال تيودورا . استئثار برداس بالسلطة . فجور الامبراطور . اصطفاؤه لبازيل المقدونى . المؤامرة على برداس . مصرعه . نفوذ بازيل . خيانته وائتماره بالامبراطور . المؤامرة . مقتل ميخائيل الثالث وولاية بازيل المقدونى (٤) بازيل وولده ليون . اسكندر الاول . قسطنطين السابع . الامبراطورة زوى . حكمها المضطرب . الوزير رومانوس وابنته هيلانة . خروج ليون فوكاس . اخفاقه وعقابه . المؤامرة على رومانوس . اعتقال زوى . رومانوس قيصراً للدولة الرومانية . اغتصابه . مؤامرة جديدة لاسقاطه . سقوط رومانوس . الثورة . مؤامرات آل رومانوس . قسطنطين السابع وعبد الرحمن الناصر (٥) رومانوس الثانى . الامبراطورة تيوفانو . الوزير برنجاس والقائد نيسيفوروس . اغتصاب

نيسيفوروس للعرش . المؤامرة عليه . مصرعه . ولاية يوحنا زيمسكى
(٦) قسطنطين الثانى وبناته . رومانوس ارجيروس . زواجه من الاميرة
زوى . دسائس نسوية . مؤامرة دوجنيس . اعتقال تيودورا . مرض
الامبراطور ووفاته . ولاية ميخائيل خليل زوى . ولاية تيودورا .
ميخائيل السادس . انقراض اسرة بازيل المقدونى (٧) مؤامرة النبلاء
والقواد . خروج القائد هرفى . خروج برينوس . اسحاق كومينوس
زعيم المؤامرة . النداء به امبراطوراً . الحرب بين المتآمرين والامبراطور
هزيمة الامبراطور . كومينوس امبراطوراً للرومان . سقوط القسطنطينية
فى يد الصليبيين

(١) الدولة البيزنطية [١] أعظم دول العصور الوسطى عراقة في الشرائع والنظم السياسية. وكانت رفاهة المجتمع البيزنطي ، وترفه وانهماكه في أسباب الحضارة الناعمة ، عاملاً هاماً في ازدهار الدسائس والمؤامرات كسلاح لنيل السلطان السياسي ، فبالمؤامرة ارتفع عدد من الامبراطرة الى عرش قسطنطين ، و بالمؤامرة عزل أو قتل كثير منهم . وكان أبطال المؤامرات في بيزنطية على الاغلب رجال البلاط وأحبار الكنيسة . وليسوا أقطاب الجند أو الحرس ، وكان للمؤامرات السياسية أعظم أثر في تطورات التاريخ البيزنطي . ولذا كان حرياً أن نعني بها هنا

ونبدأ بسيرة شخصية من أعظم شخصيات المؤامرة ، ونعني الامبراطورة ايريني زوج الامبراطور ليون الرابع ، في سنة ٧٨٠ م .

---

(١) يراد بالتاريخ البيزنطى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية من أوائل القرن الثامن الميلادى حتى افتتاح الصليبيين للقسطنطينية (أو بيزنطية القديمة) سنة ١٢٠٤ م . وذلك لاسباب اجتماعية وسياسية تميز بها هذا العصر عن باقى عصور الدولة الشرقية

توفي الامبراطور ليون الرابع وترك على العرش ولده قسطنطين السادس طفلا ، فعينت امه ايريني وصية عليه وبدأت عهد وصايتها برد عبادة الصور والرموز التي لبثت حيناً مثار النضال بين « الايقونيين » (خصوم عبادة الصور) وبين خصومهم من الاباطرة أو الاحبار واستأثرت بمقاليد الحكم حتى بلغ ولدها قسطنطين العشرين من عمره ، فعندئذ بدأ الامبراطور الفتى يتذمر من تحكم والدته، واتفق بعض كبار الدولة سراً على رد السلطة الى الامبراطور واقصاء والدته عن الحكم ، فوقفت ايريني على المؤامرة في حينها ، وقبضت على المتآمرين وقضت بجلدهم ونفيهم ، وعنفت ولدها ، واعتقلته في قصره ، وقطعت كل علائقه مع أنصاره . فهاج الشعب لذلك ، ورفض الجند أوامرها، وزحفوا على العاصمة لانقاذ الامبراطور ، فاضطرت ايريني الى اطلاق سراح ولدها ، وفي الحال قبض الامبراطور على زمام الحكم ، وعزل صنائع امه ، وشردهم أو قتلهم ، وجردت ايريني من السلطة . ولكن قسطنطين السادس كان قاصر الكفاية ، وكان صريع اللهو والغواية ، كثير الخفة والطيش . وكانت أمه الماكرة تشجعه في هذا الفساد لتزيد في نفوذها وفي نفور الشعب من مليكه المتهتك ، فلما أيقنت ان الشعب قد سئم وان ولدها قد فقد كل عطف دبرت مؤامرة لخلعه ، واستمالت الى جانبها رجال القصر بالوعود والعطايا ، واعتزم جماعة من المتآمرين ان يقبضوا على الامبراطور ، ولكن قسطنطين حذر في الوقت المناسب ففر الى برتيون ، من أعمال الدردنيل ، وهنالك انكب على لهوه وملاذه ، ولم يفكر في المقاومة، ولم تغفل ايريني من جانبها عن مراقبته ومطاردته

حتى استطاعت ان تدس عليه جماعة من رسلها، قبضوا عليه وحملوه الى قسطنطينية ، فسجنته امه في القصر حيناً ، ثم أمرت به فسملت عيناه في اغسطس سنة ٧٩٧ م ، ولبث يرسف في ظلمات سجنه حتى مات

وقبضت ايريني على زمام الحكم من جديد . ورضيها الشعب . وسعت الى ارضاء الاحبار الذين أغضبهم ولدها . ولكنها نسيت ان اغتصابها للعرش على هذا النحو كان قدوة خطرة . وكانت الاطماع تضطرم حولها من كل صوب . وكان اخطر المتطلعين الى العرش وأشدهم بأساً الوزير نيسيفوروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن. فاستمال اليه خصيان الامبراطورة. ودبر مؤامرة لخلعها وفوجئت ايريني ذات ليلة . فقبض عليها وسجنت أولا في دير في جزيرة الامراء . ثم نقلت بعد ذلك الى جزيرة لسبوس حيث توفيت بعد بضعة أشهر . واعتلى نيسيفوروس عرش الامبراطورة سنة ٨٠٢م

٢ ــ وكان ارتقاء نيسيفوروس حادثاً مدهشاً ، لانه لم يكن قبل ولاية العرش معروفاً من الشعب والجيش أو ظاهر الاثر في ميدان الشؤون العامة . ولذا خيل للطامعين والمنافسين أنه ليس بعسير أن يخلع ملك رقي عرشه على أكتاف شرذمة من الخصيان . وهذا ما خطر لبردانس الذي اختاره نيسيفوروس قائداً للجيش المعين لمقاتلة العرب. فانه بدلاً من أن يزحف للقاء جيش الرشيد نادى بنفسه امبراطوراً وأيده في ذلك توماس الصقلي ثم ليون الارميني ، وميخائيل العموري اللذان اعتلى كلاهما العرش فيما بعد . ولكن نيسيفوروس كان رجل المأزق ، فاستمال اليه ليون وميخائيل بالوعود ، وألفى بردانس جيشه

ينفض من حوله بسرعة ، فسعى الى نيل العفو والنجاة بحياته ، فعفا عنه الامبراطور ، ولكنه اعتقل في دير في جزيرة بروث ، ونزعت أملاكه ، ولم تطل عزلته حتى فاجأته عصابة من الاشقياء وسملت عينيه ، وألقيت تبعة هذا الغدر على الامبراطور حتى اضطر ان يقسم يميناً علنية انه بريء من هذا الجرم وانه لم يفكر قط في انتهاك العفو الذي منحه . أما بردانس المنكود ، فلبث في ظلماته ، يعيش في زهد وتقشف حتى توفي.

وذهب الامبراطور ليون الخامس أو ليون الارميني ضحية مؤامرة شهيرة . وكان ليون رجلا وافر العزم والدهاء ، فأصلح النظم والجيش ، وقمع الفساد والرشوة ، وشدد الرقابة على الوزراء والحكام . وكان فوق ذلك شديد الوطأة على الكنيسة وأحبارها ينزعهم من كل نفوذ وسلطة في شؤون الدولة . وكانت هذه السياسة رغم حكمتها تخلق حول الامبراطور أسباب الحقد والنقمة . وكان القصر كالعادة مهبط هذه الشهوات المضطرمة . وكان رأس هذه العصابة الساخطة ميخائيل العموري أقرب أصدقاء الامبراطور اليه وأشدهم التصاقاً به . وكان ميخائيل رجلاً شديد الدهاء والاطماع يخفي أطماعه تحت ستار الاخلاص والملق . وكان يرى انه ليس أقل حقاً وكفاية من ليون في اعتلاء العرش فانتهى الى التآمر على المحسن اليه . ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على ميخائيل ، وحوكم وقضي عليه بالاعدام . ويقال ان المحكمة تركت للامبراطور تنفيذ حكم الاعدام طبقاً لما يرى ، وان ليون قرر ان يعدم صديقه الغادر باحراقه حياً في الاتون الذي يمد حمامات القصر بالماء الحار . وكان

ذلك ليلة عيد الميلاد ، فتدخلت الامبراطورة وتضرعت الى ليون أن يرجىء التنفيذ حتى ينصرم العيد ، فأجاب الامبراطور تضرع زوجه مكرهاً وهو يقول : « اني أجيب سؤلك ، أنت لا تفكرين الا في سلام روحي في الآخرة ، ولكنك تعرضين حياتي لأعظم الاخطار ، وقد ينقلب إشفاقك نكبة عليك وعلى أولادنا » . ورد الامبراطور ميخائيل الى سجنه ، وأبقى معه مفتاح أغلاله . ويروى ايضاً ان الامبراطور توجس في ليله شراً وتولاه الارق فنهض من نومه والتحف بردائه ، وسار خفية الى سجن ميخائيل ، وهنالك سمر رعباً لانه رأى باب السجن مفتوحاً ، وميخائيل نائماً على سرير الحارس غارقاً في سباته ، والحارس ملقى على الارض فوق فراش المحكوم عليه فارتد ليرى ما يجب اتخاذه لرقابة السجين والحارس ولكن رجلاً من انصار ميخائيل لمح الامبراطور أثناء زيارته الليلية فهرول الى السجن وأيقظ ميخائيل . وأرسل المحكوم عليه الى زملائه المتآمرين مع القس الذي عين لوعظه وتعزيته ، وكان من أصدقائه ، انهم اذا لم يقوموا لساعتهم بانزال الضربة فانه سيسعى الى انقاذ نفسه بفضحهم والاعتراف عليهم

وكان القصر الامبراطوري حصناً منفصلا عن المدينة ، وكان الامبراطور يشهد قداس الصباح في كنيسة القصر . ولما كان اليوم عيد الميلاد ، فقد سمح لجماعة من أشهر المرتلين أن يدخلوا إلى المقدس فجراً ليرتلوا القداس باصواتهم الرخيمة . فسر الامبراطور لذلك ، وأرجأ الفصل في أمر السجين والحارس حتى ينتهي القداس وانتهز المتآمرون تلك الفرصة لتنفيذ الجريمة ، فتنكروا في ثياب

المرتلين وأخفوا خناجرهم تحت أثوابهم ، ودخلوا المقدس الملكي، واندسوا بين القساوسة . وكان الصبح مظلماً بارداً. وكان الامبراطور يلتحف برداء سميك ، ويغطي رأسه اتقاء الندى بقبعة عريضة الاطراف ، فلم يعرفه المتآمرون إلا حينما ارتفع صوته بالصلاة ، وعندئذ انقضوا عليه ، وأخطأ بعضهم واعظ الكنيسة فجرحه ، ولكنهم تركوه حينما عرفوه من صياحه ، واحتاط الجميع بالامبراطور وأوسعوه طعناً بخناجرهم ، فدافع الامبراطور عن نفسه بصليب اختطفه من امامه حتى قطعت يده ، ثم خر صريعاً بعد أن مزق القتلة جسده (ديسمبر سنة ٨٢٠ م)

وفي الحال هرول القتلة إلى سجن ميخائيل ، فاطلقوا سراحه ونادوا به امبراطوراً .وزجت زوج الامبراطور القتيل وأولاده إلى أحد الاديرة ، وأرغموا على اعتناق الرهبانية

وكان ليون الخامس من أعظم امبراطرة الدولة البيزنطية ، ولكنه لم يفز بكبير حمد أثناء حياته ولم يثر مصرعه كبير عطف ، وهذه ظاهرة في حياة المجتمع البيزنطي الذي كثيراً ما نراه يهتف لامبراطور مرح لعوب اكثر مما يهتف لامبراطور عبوس حازم ، يعدل عن الحفلات والملاهي العامة ليديرشئون الدولة بصرامة وعزم

٣ ـ وبذلك ابتدأ عصر الاسرة العمورية [١] وشغل ميخائيل العموري أو ميخائيل الثاني عرش الامبراطورية تسعة أعوام وفي عهده افتتح العرب صقلية واقريطش . وخلفه ولده تيوفيلوس ، وكان من أعظم الامبراطرة نشاطا واستنارة . ثم توفي سنة ٨٤٢.

(١) نسبة إلى عمورية أو أموريوم من بلاد الحدود بين الدولتين البيزنطية والعباسية

وترك العرش لولده ميخائيل الثالث وهو طفل لا يجاوز الرابعة ، فعينت أمه الامبراطورة تيودورا وصية عليه ، وأنشىء مجلس الوصاية من بارداس أخي الامبراطور ، وتوكتستوس أمين الملك المتوفى ، وكان من أعظم رجالات الدولة

فعهدت تيودورا بتربية ولدها لاخيها بارداس ، واستأثرت بالحكم والادارة بمعاونة توكتستوس . ولكن بارداس من جهته استولى على عقل الامبراطور الطفل ولبه وغمره بصنوف اللهو والملاذ والقى به إلى براثن الرذائل والمفاسد حتى لقب غير بعيد « بالسكير » ثم هام ميخائيل بحب فتاة تدعى يودوشا انجرينا تنتمي الى أسرة نبيلة قوية وأراد التزوج منها . ولكن تيودورا وتوكتستوس خشيا أن يزعزع هذا الزواج حكمهما ، فأرغمت الامبراطورة ولدها على التزوج من فتاه أخرى تدعى يودوشا أيضاً وهي ابنة ديكابوليتاس أحد عظماء الدولة . ولكن الامبراطور الفاسق جعل من يودوشا الاولى خليلته حتى زوجها في اواخر حكمه من صديقه بازيل المقدوني . فكان هذا الزواج القهري سلاحاً جديداً في يد بارداس لاحفاظ الامبراطور على والدته وتوكتستوس . ولكن بارداس كان يخشى النضال الظاهر ، وكان يؤثر سلاح الدس والتآمر ، فما زال بميخائيل حتى أمر بالقبض على توكتستوس ، وقتل غيلة في سجنه وتولى بارداس للحال منصبه فاشتبه فيه من أجل ذلك بانه مدبر الجريمة . ولكن رشاد الامبراطور لم يعلن حالاً بل ارجىء حتى يبلغ الثامنة عشرة

ولبثت الامبراطورة تيودورا تقيم في القصر الملكي بعد مقتل

توكتستوس حتى انتهى أجل الوصاية . ولكن مقامها هنالك كان عذاباً أليماً اذ كانت في كل يوم تشهد ألواناً شائنة من فجور ولدها وشيعته . وكان ميخائيل من جانبه يريد التخلص من امه واخواته فانتهى الى ان أبعدهن الى قصر آخر ، وحاول ان يرغمهن على اعتناق الرهبانية . ولكن لم يفلح . ولبثت تيودورا من جانبها ترقب الفرص لاستعادة نفوذها . وكانت ترى ان أخاها بارداس هو العقبة الوحيدة ، فتفاوضت مع خصومه سراً ، ودبرت مؤامرة لقتله ولكن بارداس علم بسرها ، وكان وقتئذ في ذروة نفوذه ، فنفى الامبراطورة وبناتها الى دير جستريا الذي كان معتقلاً لأفراد الاسرة المالكة الذين يبعدون عن الحياة العامة .

وعندئذ خلا الجو لبارداس ، واجتمع في يده كل نفوذ وكل سلطة . أما ميخائيل فلبث غارقاً في بحر فجوره ولهوه . وكان خله الحميم وقتئذ وسميره ، ورفيق أنسه وفجوره ، رجل مقدوني يدعى بازيل ارتفع تباعاً من رائض للجياد الى منصب كبير الحجاب . وكان قد لفت نظر الامبراطور بمهارته في المصارعة وترويض الخيل الجامحة ، فعينه رائضاً للخيول الملكية ، ثم شغف ببراعته الرياضية وخفة روحه فصادقه وقربه . وكان بازيل أوفى صحبه في تحقيق أهوائه ، وأعرفهم بنزعاته وأذواقه . فلم يلبث أن غلب على لب الامبراطور ، وارتقى الى أرفع مناصب البلاط ، وغدا رفيقاً للامبراطور لا يفارقه لحظة ، فزوجه ميخائيل من خليلته يودوشا كما تقدم ، مع بقائها في نفس الوقت خليلته . وأخذ كل السفلة الفجار في الحاشية الملكية يتطلعون الى مثل بازيل ، ويرون سحق بارداس وسيلة وحيدة لتحقيق

مطامعهم في النفوذ والجاه ، ويلتفون حول بازيل شيئاً فشيئاً . وكان سمباتيوس مدير البريد وزوج ابنة برداس ، يحقد على صهره لتخليه عن تحقيق آماله ، فتفاهم مع بازيل ، وأتمر الاثنان على اتهام برداس لدى الامبراطور ، بأنه يعمل في الخفاء لاغتصاب العرش . فلم يتردد ميخائيل في تفويضهما في قتل برداس . وفي ذات يوم تقدم برداس الى الامبراطور يفاوضه في أمر الحملة التي أعدت لاستعادة اقريطش ، فانقض عليه بازيل وسمباتيوس فجأة وقتلاه أمام قدمي الامبراطور . ووقعت هذه الجريمة في معسكر الحملة حيث كان الامبراطور يشرف على الاهبة (مايو ٨٦٦ م) فانهار مشروع الحملة في الحال ، وعاد الامبراطور الى عاصمته فرأى الشعب ساخطاً لمقتل برداس رجل الدولة ومسير شؤونها ببراعة وحزم . وسقط ميخائيل فريسة لوحي بازيل حتى اختاره معه زميلا في الملك ومنحه لقب الامبراطور

وسرعان ما استأثر رائض الخيل بكل سلطة وسرعان ما شعر الامبراطور أنه لم يبق له من الملك سوى الاسم . وعندئذ بدأ بين الصديقين نضال خفي ، وخشي بازيل ان تتجه نية الامبراطور الى سحقه والتخلص من سلطانه . فرأى الخيانة وسيلة فريدة لاجتياز الخطوة النهائية ، وانتزاع الملك جملة . فدبر مؤامرة محكمة لقتل سيده والمحسن اليه . واختار للتنفيذ ليلة مأدبة أقامتها الامبراطورة تيودورا لولدها في قصر انثيموس على ضفة البوسفور الاسيوية . وكان من شهود المأدبة بازيل وزوجه يودوشا خليلة الامبراطور . فلما انتهى الطعام ، حمل الامبراطور الى فراشه غارقاً

في سكره كالعادة ، فتسلل المتآمرون وراءه ، وهم ضابط فارسي يدعى ايلاتس ، وبلغاري يدعى تكساراس ، وجماعة من أقارب بازيل ، وعلى رأسهم يوحنا الكلداني أحد كبراء البلاط . فلما رآهم حاجب الامبراطور أدرك في الحال غايتهم، ومنعهم من الدخول واشتد الصياح ، فانتبه الامبراطور مترنحاً . فوثب اليه يوحنا وطعنه بسيفه فقطع يديه . ووقف بعض المتآمرين بباب الجناح الملكي حتى لا يفاجئهم أحد من رجال الامبراطورة أو الحرس ، فاستغاث الامبراطور وحاجبه بصيحات منكرة ، ولكن ضجيج المرح في المأدبة كان يغشي كل استغاثة ، ثم أعاد يوحنا الكرة وأغمد سيفه في صدر الامبراطور . وعاد الى بازيل ونبأه بما وقع ، وفي الحال عبر المتآمرون المضيق الى المدينة . ونفذوا الى القصر الملكي ، وأعلن موت ميخائيل ، ونودي ببازيل امبراطوراً ، ولم يعن الشعب كثيراً بمقتل ذلك الامبراطور الفاجر ، وان كان مقتله قد نقل عرش الدولة الرومانية من الاسرة العمورية الى رائض الخيل المقدوني (سنة ٨٦٧ م)

٤ ــ وكان حكم بازيل المقدوني مجيداً زاهراً أعاد ذكرى مجد قسطنطين ويوستنيان . فلما توفي سنة ٨٨٦ خلفه ولده ليون السادس الملقب بالفيلسوف فاستطال حكمه الى سنة ٩١٢ م . وفي عصره قام البحارة العرب بغزوتهم الشهيرة لثغر تسالونيكا (سلانيك) بقيادة أمير البحر المسلم المعروف في التواريخ البيزنطية بليون الطرابلسي وخربوها ، وحملوا منها غنائم كبرى وآلافاً مؤلفة من الاسرى ، وخلفه اسكندر الاول فحكم عاماً واحداً ثم خلفه ولد أخيه قسطنطين

السابع طفلا ، وحملت امه « زوي » التاج ، واشتركت في مهام الحكم حتى استأثرت بكل سلطة في الادارة ، ولكن « زوي » كانت حسناء ، وكانت تشغف باللهو والترف ، وكان حكمها سيء الطالع لان الجيش البيزنطي ارتد منهزماً أمام البلغاريين ، فسرت الفكرة الى الشعب بأن حكم الدولة يجب ألا يولى لامرأة . فلما بلغ الامبراطور الطفل أشده تخلص من وصاية امه شيئاً فشيئاً ، غير أنه سقط تحت تأثير وزيره رومانوس وسحر ابنته الحسناء هيلانة التي تزوج منها وغدت امبراطورة الرومان. وكان ارتفاع رومانوس مثار الحسد والسخط . فخرج ليون فوكاس في بثنيا ، وزحف على اسكودار محتجاً بأنه يريد ان ينقذ الامبراطور من استبداد وزيره. ولكن انصاره انفضوا من حوله ، فقبض عليه ، وسملت عيناه . ودبرت مؤامرة اخرى لاغتيال رومانوس ولكنها اخفقت. واتهمت الامبراطورة « زوي » بالشروع في تسميمه . فزجت الى الدير وخلا الجو لرومانوس . وبلغ نفوذه الذروة حتى استطاع ان يحمل الامبراطور على ان يمنحه لقب قيصر وان يرفعه الى رتبة الامبراطور فتوج كشريك في الملك لقسطنطين في ديسمبر سنة ٩١٩

ولكن رومانوس ما لبث أن تغلب على صهره واغتصب لنفسه المكانة الاولى ، ومنح زوجه تيودورا لقب الامبراطورة ، وولده الاكبر (خريستوف) حق الوراثة . وكان حق الاشراف عليه يشتد كلما خطا في سبيل التغلب والاغتصاب خطوة جديدة . فكثرت المؤامرات في حكمه. وكلها ترمي الى اسقاطه ورد الامبراطور الى حقوقه الشرعية . ففي سنة ٩٢١ ، اكتشفت مؤامرة دبرها

محافظ القصر وجماعة من كبراء الدولة . ولم يمض الا قليل حتى دبرت مؤامرة اخرى ، دبرها أحد النبلاء بمعاونة قائد الحرس . وغرضها خلع رومانوس أيضاً . ثم حاول بعض رجال القصر ومنهم كبير الخزائن وأحد الحجاب تدبير مؤامرة ثالثة . ولكنها اكتشفت جميعاً وعوقب الخوارج

على ان الخطر كان يرقب رومانوس من ناحية أخرى ، فان ولده الاكبر خريستوف توفي . وخشي ولده الاصغر اصطفان أن يفكر أبوه في رد الملك لقسطنطين ، فاعتزم انتزاعه لنفسه ، ودبر مؤامرة لاسقاط أبيه . فباغت المتآمرون رومانوس ذات يوم ، وقبضوا عليه وحملوه أسيراً إلى جزيرة بروت حيث اضطر إلى اعتناق الرهبانية . ولكن الشعب لم يصبر على هذا الاجتراء المتكرر ، وخشي على حياة مليكه الشرعي قسطنطين السابع وثار لما ناله من الاعتداء والاغتصاب ، فاحتشدت الجماهير وهاجمت القصر ، وأصرت على رؤية المليك ، ولم تهدأ حتى أطل عليها قسطنطين . ورأى كبراء الدولة ان خير وسيلة لتأييد النظام هي رد الامر لقسطنطين فرد الامر اليه دون معارضة ، وقبض على اصطفان وأخيه الاصغر قسطنطينوس وأرغما على اعتناق الرهبانية (سنة ٩٤٥ م) ولكن حكمه لم يخل من سلسلة من المؤامرات الصغيرة دبرها بعض أنصار رومانوس لاعادته ، وكذلك دبر بعضها ولداه اصطفان وقسطنطينوس ولكنها فشلت جميعاً . وعوقب المتآمرون برفق لان الامبراطور قلما كان يوقع حكم الاعدام على خصومه

وقسطنطين السابع هذا هو الذي بعث بسفارته الشهيرة إلى أمير

المؤمنين عبد الرحمن الناصر الاموي خليفة الاندلس، واحتفل الناصر بقدوم سفرائه في يوم مشهود في التاريخ العربي. ورد إلى امبراطور الرومان السفارة والهدايا (٩٤٨ م - ٣٣٦ هـ)

٥ - وخلف قسطنطين السابع رومانوس الثاني، ثم ترك العرش لزوجه الامبراطورة تيوفانو وأولاده القصر. ولكن الوزير يوسف برنجاس كان يقبض على زمام الحكم. وكان يرقب فوز القائد نيسفيوروس فوكاس في الشأم بغيرة، ويخشى أن ينتهي نفوذه في الجيش بنيله العرش، فدبر مؤامرة للقبض عليه وسمل عينيه. ولكن القائد الظافر علم بالمؤامرة في حينها، واستغاث بالبطريق. وطلب اليه أن يقف الوزير المتغلب عند حده. ثم زحف بجيشه على قسطنطينية وتوج امبراطوراً في اغسطس سنة ٩٦٣

وكان نيسيفوروس فوكاس (الثاني) جندياً قديراً ذا عزم وبأس ولكن حكمه لم يطل أمده فذهب ضحية مؤامرة شائنة دبرت في نفس قصره، ودبرتها زوجه الحسناء تيوفانو وابن اخيه ومعشوق زوجه يوحنا زيمسكي. وكان زيمسكي يتطلع إلى العرش. وكانت تيوفانو تهوى زيمسكي وتتطلع إلى التزوج منه متى ولي العرش. فحشدا جماعة من المتآمرين من أعداء الامبراطور، قدموا ذات ليلة إلى القصر وعلى رأسهم زيمسكي، ورفعهم نساء القصر في سلال أدليت من فوق الجدران. وكان قد اختبأ داخل القصر بعض رفاقهم أيضاً، فسار الجميع إلى جناح الامبراطور. وكان نيسيفوروس ينام على الارض لان ترف القصر لم ينسه خشونة الجندي. فركله زيمسكي وأيقظه، وابتدره أحد المتآمرين بطعنة شديدة في رأسه بينما كان زيمسكي

يهين عمه باللفظ واللطم . ثم انهال عليه المتآمرون طعناً بخناجرهم . فصاح الجندي الباسل « هبني رحمتك يا رباه ! » وزهق على الأثر. وفي الحال نودي بيوحنا زيمسكي امبراطوراً ، والقيت جثة الامبراطور القتيل إلى ساحة القصر . وتركت هنالك فوق البرد يوماً كاملاً حتى يتأكد كل الناس من مصرعه . ثم دفن في المساء بلا تكريم (ديسمبر سنة ٩٦٩ م)

٦ ـ ومضى زهاء نصف قرن لم تقع فيه مؤامرات هامة حتى توفي الامبراطور قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٨ م . عن بناته الثلاثة . وكان الامبراطور قبيل موته قد فكر في ملء العرش ، فاختار لذلك كبيراً من أقارب الاسرة المالكة هو رومانوس ارجيروس ، ودعاه لتولي العرش على شرط أن يطلق زوجه وأن يتزوج من احدى الاميرات الثلاث . وكان الامبراطور يرى أن يزوجه من تيودورا صغرى بناته . ولكنها أبت أن تشاطر العرش زوج امرأة أخرى فعندئذ تزوج رومانوس من « زوي » الابنة الكبرى ، ونودي به على اثر وفاة قسطنطين امبراطوراً للرومان في نوفمبر سنة ١٠٢٨

وكانت « زوي » تحقد على اختها تيودورا لان أباها قدمها عليها في ارتقاء العرش اذا اقترنت برومانوس ، هذا الى انها كانت تبذها جمالاً وشباباً وسحراً ، وكان رومانوس يبغضها لانها أبته زوجاً ، فدس عليها من يراقبها . ولم تلبث ان اتهمت بالتآمر مع بروسيان وهو أمير بلغاري على انتزاع العرش . وسواء كان هذا الاتهام صحيحاً أو كاذباً ، فان غيرة زوي وبغض رومانوس افسحا له طريقاً ، فقبض على بروسيان وسملت عيناه ونفيت أمه ملكة بلغاريا السابقة الى دير

ولم يتعرض أحـد لتيودورا في تلك المرة . ولم يمض الا قليل حتى اكتشفت مؤامرة أخرى يدبرها قسطنطين ديوجنيس ، وكان حاكما لتسالونيكا وصهراً للامبراطور ، وكان يكاتب زعماء البلغار والصقالبة سراً ، فاكتشف أمره وحكم عليه بالحبس في دير . واتهمت تيودورا بالاشتراك في تلك المؤامرة ، وكذلك يوحنا الوزير السابق الذي عين لمراقبتها وجماعة آخرون من الـكبراء ، فارغمت تيودورا في تلك المرة على مغادرة القصر الملكي وزجت الى دير . ثم زارتها أختها زوي بعد ذلك بقليل ، وأرغمتها على اعتناق الرهبانية

وظهرت على الامبراطور رومانوس الثـاني في أواخر حكمه أعراض مرض غريب انتهت بذبول جسمه وسقوط شعره . ويروى ان هذه الاعراض لم تكن طبيعية وانما هي أعراض سم بطيء كانت تدسه له الامبراطورة زوي أو الحاجب يوحنا ، وهو خصي كان راهباً قربه الامبراطور حتى ارتفع الى مرتبة الوزارة . وكان الحاجب يؤمل ان يرفع أخاه الاصغر ميخائيل من موظفي القصر أيضاً الى العرش وكان ميخائيل هذا بديع الجمال كثير الظرف، فيقال ان الامبراطورة زوي رغم تجاوزها الخمسين أحبته ، وأتمرت معه على قتل أخيـه يوحنا . واستمر ذبول الامبراطور حتى توفي في ابريل سنة ١٠٣٤ وفي الحال اتخذت الامبراطورة بمعاونة الحاجب يوحنا كل اجراء لرفع حبيبها ميخائيل الى العرش ، فنودي به امبراطوراً للرومان باسم ميخائيل الرابع واجلس في العرش الخالي الى جانب زوي . ولم تبدر ثمة كبير معارضة

واستمر عرش الرومان على هذا النحو قنية لأزواج بنـات

قسطنطين أو عشاقهن زهاء ثلاثين سنة . وتولت تيودورا العرش عجوزاً تربي على السبعين وحكمت منفردة ثلاثة أعوام وتوفيت في أغسطس سنة ١٠٥٦ م . ولكنها قبل وفاتها عهدت بالعرش الى ميخائيل ستراتيورتيكوس اتقاءً لسقوطه في يد الاشراف الاقطاعيين فتولى باسم ميخائيل السادس . وبوفاتها انقرضت اسرة رائض الخيل بازيل المقدوني الذي أسس دولة من أعظم الدول البيزنطية

٧ ـ وفي عهد ميخائيل السادس ، وقعت في الولايات الاسيوية مؤامرة خطيرة من نوع جديد . وكان أشراف الدولة وكبراؤها قد سئموا ضروب الحكم المستند الى نزعات الهوى ودسائس القصر ، وعافوا الامبراطرة الافاقين والخدم . فتفاهم جماعة من كبار الاشراف في الاناضول ودبروا مؤامرة لاسقاط حكومة تيودورا وميخائيل ، واستمالوا اليهم بعض قواد الجيش الاسيوي الناقمين على الحكومة . وكان يدير المؤامرة ، ويسهر على تنفيذها جماعة من الكبراء الذين يقيمون في قسطنطينية منهم اسحاق كومينوس ، ورومانوس سكليروس وميخائيل برترس ، ونيسيفوروس بوتانيتس . وشغلت الحكومة عن اكتشاف المؤامرة بادىء بدء بثورة ضابط يدعى هرفي ، وهو قائد نورماني خدم الجيش الامبراطوري ببسالة ، فان هرفي سأل الامبراطور أن يمنحه رتبة الحاكم ، فابى سؤله وأهانه ، فغادر قسطنطينية الى ضيعة له في أرمينية . وهنالك جمع بضع مئين من أنصاره ومواطنيه وفر الى الترك السلاجقة . ولكن الترك لم يوسعوا صدرهم للخائن وشب الخلاف بينه وبينهم ، فقاد عصابته في الولايات المسلمة حتى فوجىء واسر

ثم تلا هرفي في الخروج برنيوس أحد القواد الذين انضموا الى المؤامرة . وكان الزعماء قد قرروا ان ينادوا باسحاق كومينوس امبراطوراً ، فتعاهدوا على ذلك وأقسموا الايمان المقدسة ثم غادروا العاصمة الى ضياعهم ليجمعوا أنصارهم . ولكن برنيوس طالب مدير الصرف بان يدفع لجنده أجوراً مقدمة فابى ، فاستشاط غيظاً وبدرت منه بوادر تنذر بالخروج والثورة ، فشعر بذلك قائد جيش بزيديا وليكاونيا ، فزحف عليه بجنده ، وقبض عليه وأرسله سجيناً الى قسطنطينية

عندئذ خشي الزعماء ان تكشف مؤامرتهم فساروا الى قسطموني حيث كان كومينوس ينتظر اتمام الاهبة وقرروا التنفيذ فوراً ، فنادوا باسحاق كومينوس امبراطوراً في يونية سنة ١٠٥٧ وحشدوا قواتهم. فسير الامبراطور اليهم جيشاً بقيادة الخصي تيودور . والتقى الجيشان في مكان يسمى هادس . فهزم الجيش الامبراطوري . وزحف اسحاق كومينوس على نيقوميديا وهنالك قابله رسل الامبراطور يعرضون عليه لقب القيصر والعفو عن جميع أنصاره اذا القى السلاح. فابى الزعيم الثائر وابى زملاؤه وزحف على قسطنطينية ودخلها . وفي ٢ سبتمبر سنة ١٠٥٧ توّج في كنيسة ايا صوفيا امبراطوراً للرومان وغادر ميخائيل السادس القصر الامبراطوري الى منزله الخاص حيث عاش في عزلة وضعة حتى توفي بعد ذلك بعامين

ولبثت الدولة الشرقية تجرجر أذيال الاضطرابات والدسائس

حتى كانت الحملة الصليبية الرابعة فعرج الصليبيون على قسطنطينية ليجوزوا الاناضول الى الاراضي المقدسة . ولكنهم استقروا في قسطنطينية . وانتزعوا عرش الرومان (سنة ١٢٠٤ م) وأسسوا هنالك دولة لاتينية لبثت أكثر من نصف قرن

تتمة

في مؤامرات العصور الوسطى

لا نجد في سير العصور الوسطى ، في غير الدول الاسلامية ، والدولة البيزنطية أثراً كبيراً للمؤامرة السياسية ، ويرجع ذلك كما قدمنا الى طبيعة النظم التي سادت هذه العصور ، فقد غلب نظام الاقطاع على مجتمعات العصور الوسطى ، ومن طبيعة الاقطاع توزيع السلطة توزيعاً كبيراً . والمؤامرة لا تزدهر الا في مهاد الحكم المطلق . ثم ان هذه العصور كانت عصور الفروسية ، ومعارك الجهر فكان النضال في ميادين الحرب وسيلة فريدة لتحقيق اطماع الامراء والسادة الاقطاعيين ، بيد أنا نستطيع ، قبل ان نختتم الكلام على مؤامرات العصور الوسطى ان نشير في هذا المقام الى حادثتين أو مؤامرتين شهيرتين ، الاولى من نوع فريد ، وليست في الواقع من المؤامرات السياسية ، بل هي محاولة أو مؤامرة كنسية ، ولكن الكنيسة لم تقدم على تدبيرها وتنفيذها الا ادعاماً لنفوذها وتوطيداً لسلطتها الزمنية المستندة الى نفوذها الروحي

تزعم الكنيسة الرومانية أنها من خلق المسيح ذاته وأنها لذلك

لا تتوقف في قيامها ووجودها على اعتراف أية دولة ولكن الكنيسة لم تكن حتى منتصف القرن التاسع تستطيع ان ترجع قيامها أو بالحري صبغتها السماوية الى ما قبل قسطنطين ، وكانت القوانين الكنسية أو التعاليم الرسولية تقف في مصدرها عند هذا التاريخ ولكن أحبار الكنيسة الرومانية ، كانوا يضطرمون في كل العصور رغبة في تأييد هذا الزعم ، واثباته برد التعاليم الرسولية الى عهد القديس بطرس ذاته ، فلم يروا بدأ من اختراع الوثائق اللازمة ، والتزوير في سبيل مجد الدين واعلاء كلمته جريمة صالحة . ونسمع بنبأ هذه الوثائق الكنسية الزائفة لاول مرة في منتصف القرن التاسع ، في عهد البابا نيقولا الاول ، حيث أذاعت الكنيسة لاول مرة في تاريخ النصرانية ، ان القرارات البابوية والتعاليم الرسولية ترجع الى ما قبل عصر قسطنطين حتى عهد القديس بطرس . ولكن البحث الحديث يرى ان هذه الوثائق قد زيفت في فرنسا بواسطة حبر أو أحبار ارادوا رفع السلطات الدينية فوق السلطات الزمنية الى أكبر حد ، ورفع نفوذ الكهنة فوق رءوس الكافة تحقيقاً لبث تعاليم الكنيسة الدينية والاخلاقية . وقد كانت قدسية التعاليم والمبادىء من أقوى الاسلحة التي تشهر على عقلية المجتمعات في العصور الوسطى

وأما الحادث الثاني فهو مؤامرة سياسية وقعت سنة ١٠٣٩م . في عهد الامبراطور كنراد الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان الدوق اريبو امير لومبارديا يحقد على الامبراطور سياسته التي جردت الامراء الاقطاعيين من معظم سلطانهم ونفوذهم . فاعتزم ان يلجأ الى التآمر ليحيي روح الاستقلال في وطنه ، وليجعل من

أطماعه قضية وطنية . فدبر مؤامرة كبيرة ترمي الى تحرير ايطاليا من نير الامبراطور، وتقديم عرشها الى أود دوق شمبانيا . وآنس الدوق أود في ذلك المشروع شبح السلطان الباذخ ، فوافق عليه . وقرر المتآمرون ان يغزو أود ولاية اللورين ، وان يقبض الايطاليون على الامبراطور ، وان توهب بورغونيا وايطاليا الى الدوق ، فجمع الدوق قواته وزحف فعلا على اللورين . ولكنه هزم وقتل . وانهارت المؤامرة. وتحطم كل مجهود لمقاومة السلطان الامبراطوري.

وهنا نختم سيرة المؤامرات السياسية في العصور الوسطى لنعطف على سيرتها في العصر الحديث

الكتاب الرابع

المؤامرات السياسية

في العصر الحديث

الفصل الاول

المؤامرات السياسية

في الجمهوريات الايطالية

(١) نهوض الملوكية . ايطاليا ميدان خصب للمؤامرة . تأملات الفيلسوف سسموندى فى مجتمعات القرن الخامس عشر (٢) واقعة الصوم . تحرير صقلية من نير الفرنسيين . كولا دى رينزو . دعوته الى الاحياء الرومانى . البابوية والنبلاء . هياج الشعب . فوز رينزو . زهوه واغراقه . محنته . عوده الى رومه . اسره واعدامه . مؤامرة النبلاء فى فيرنتزا . افتضاح المؤامرة وفشلها . المؤامرة على دوق اثينا . استرداد فيرنتزا لحريتها . المؤامرات فى مملكة نابولى . جنه دى نابولى وزوجها اندريا المجرى . ائتمار جنه باندريا . مقتله . انتقام لويس ملك المجر لاخيه . الوباء الاكبر . فجور جنة . غزوة نابولى الثانية . اسر جنة واعدامها (٣) تقسيم ايطاليا السياسى . دولها المختلفة (٤) ماسو البزى امير فيرنتزا . ائتمار النبلاء به . فشل المؤامرة . الخصومة بين ميلان وفيرنتزا . محاولة دوق ميلان واخفاقها . المؤامرة الرومانية . اصطفانو بركارو . فشل المؤامرة . اعدام بركارو (٥) مؤامرة ناردى فى فيرنتزا . مؤامرة فى فيرارا . مؤامرة فى جنوا . جاليازو سفورزا دوق ميلان . عسفه وفجوره . مؤامرة الفتيان النبلاء . مقتل الدوق . مصرع المتآمرين (٦) تأملات للفيلسوف مكيافيلى فى الطغيان والحرية . تحليله لآثار المؤامرة (٧) مؤامرة بازى . آل مديتشى وآل بازى . تنافس الاسرتين

اضطهاد ال مديتشى لآل بازى . البابا سكستوس الرابع . اغراقه فى الاصطفاء . خصومته لآل مديتشى . تأييده لمشروع المؤامرة . خطة المتآمرين ، الاجتماع الدينى . مقتل جوليانو دللام مديتشى . فرار لورنزو دى مديتشى . مصرع المتآمرين . ازدياد سلطان آل مديتشى . تحالف البابا وملك نابولى (٨) رودريجو بورجيا وولده شيزارى ، ارتقاؤه عرش البابوية باسم اسكندر السادس . دسائسه وسفالة خلاله . شيزارى بورجيا . تدبيره لمقتل اخيه . اطماعه وخططه . مؤامرة السم ، وفاة اسكندر السادس ومرض شيزارى . انتخاب جوليوس الثانى لكرسى البابوية ، مطاردته لشيزارى . محنة شيزارى ومصرعه . معترك الدسائس فى الفاتيكان (٩) لبون العاشر ، مؤامرة الكرادلة لاسقاطه ، مؤامرة اخرى فى فيرنتزا . محنة مكيافيلى (١٠) اندريا دوريا بطل جنوا . سخط النبلاء لسياسته . مؤامرة فيسكى . استيلاؤه على الثغر والاسطول . فرار دوريا . غرق فيسكى . اضطراب الثوار وتفرقهم . عودة ال دوريا الى الحكم . مصرع المتآمرين ، مؤامرة فاكيرو (١١) المؤامرات فى البندقية . مارينو فاليرو . رآسته للبندقية . ائتماره بالنبلاء . اعتقاله ومصرعه . مؤامرة بدمار . السياسة الاسبانية فى ايطاليا . المركيز بدمار سفير اسبانيا ينظم المؤامرة . غدر المتآمرين . مصرعهم . المذبحة الكبرى (١٢) اضمحلال البندقية . تمزق ايطاليا وسقوطها فى يد الاجانب . غزوة بونابارت . نظام ايطاليا بعد سقوط نابوليون . حركة التحرير . جمعية الكربونارى

١ ـ لما اخذت نظم الاقطاع في الانحلال ، وبرزت الملوكية في ختام العصور الوسطى الى الطليعة ، واخذت توسع سلطانها على حساب الامراء والسادة الاقطاعيين ، اخذت السلطات الموزعة تجتمع في يد الملوكية شيئاً فشيئاً ، وسلطان العرش يقوى ويشتد حتى استأثرت الملوكية بكل سلطة ولم تبق ثمة سلطة أخرى تنافسها او تحد

من سيادتها . وهكذا قامت الملوكية المطلقة كما قدمنا ، واتشح ملوك العصر الحديث بكل ما كان يتشح به القياصرة والامبراطرة القدماء من ألوان البطش والسيادة ، وعادت الملوكية كل شيء والشعب بجميع طبقاته لا شيء . وقد اشرنا في المقدمة الى العوامل التي ايقظت عوامل المؤامرة عندئذ من ركودها . ونزيد هنا ان العصر الحديث حافل بسير المؤامرة السياسية ، وان جميع الامم الاوربية تقلبت في عواصف التآمر ، وكان للمؤامرة في تاريخها جميعاً اعمق الآثار

وكانت ايطاليا ، كما قدمنا ، اخصب ميدان للمؤامرات السياسية في فاتحة العصر الحديث . ويرجع ذلك من وجوه كثيرة الى تقسيم ايطاليا السياسي في ذاك العهد. فان الجمهوريات الايطالية التي استطاعت ان تنتزع حرياتها من قبضة الاجنبي سقطت فريسة لمعارك النبلاء والاسر ودسائس المتطلعين الى الملك والرياسة . وكانت شعوبها الصغيرة النازحة قليلا ما تصبر على بطش الطغاة المستبدين

يقول المؤرخ الفيلسوف سسموندي : « وصلت ايطاليا في اواخر القرن الخامس عشر الى ذلك العهد الخطر الذي لم يبق انقاذ الحرية فيه ممكناً بالمقاومة الشريفة ، او استردادها ممكنا بالقوة العلنية . فلم يبق ثمة سوى سبيل المؤامرة ، وهي سبيل خطرة وغالباً مشئومة » ثم يقول : « في الامم المستعبدة يتكلم الامير وحده خلال الصمت العام فيملي اوامر السلطات ، واحكام المحاكم ، وقد يوحي بما يقال فوق المنابر او في المعترف . ولما كان هو المتصرف في الاحوال العامة ، فانه يبدو كعناية ضرورية ، ويحمل الشعب على الاعتقاد بانه يعطي ما لا يأخذ منه ، فيشكر المسكين له صنعه لما يغدق من الصدقات

العامة ، ويحمده العامل لما يجري من العدل ، وما يرتب من حفظه للمال. ويهتف عامة المدن لما ينزل من عسف بالطبقات العليا . وتثور العزة القومية على اجنبي يعرب عن اسفه لحال شعب تعيس يسام الخسف ، وتعني عزة الجاهل بتأييد النظم القائمة . فاذا احتفظت الطبقات الجاهلة بأية ذكرى من ذكريات عصر الحرية فانها لا تشير الا الى التعّس والالم ، أفلم يسمعوا بالجهود والتضحيات التي بذلها آباؤهم لحماية حقوق الشعب ؟ على انهم لا يرون سوى مضار المعركة وتغرب ثمراتها عن بالهم لانها ليست ذات طبائع مادية . فيقولون ان الخبز كان غالياً ، والعمل شاقاً ايام الحرية كما في عصرهم ، ويزيدون على ما يصيبهم من الحرمان ، سير المخاطر والمصائب العنيفة التي ترك الآباء للابناء عنها اخباراً هائلة . يقال ان العبودية تحقر مشاعر الانسان حتى انه ليحبها في النهاية ، والحوادث تؤيد هذا القول . ففي كل مكان ، تبدو الامم مؤيدة لحكوماتها على قدر نقائصها ، واسوأ ما في النظم احبها الى الناس في كل مكان ، وأشد مقاومة هي تلك التي يثيرها الشعب في سبيل تقدمه المعنوي . هكذا كانت بالاخص حال ايطاليا في اواخر القرن الخامس عشر . فان الطبقات الدنيا في لومباردي لم تحتفظ من ذكريات الحرية الا بما تطبعه في الذهن بعض الاطلال الدارسة التي قال عنها آباؤهم انها آثار حروب قديمة او عنف قديم . اما الفلاحون فلم يتمتعوا بالحقوق السياسية قط ، ولم يكونوا يخشون سوى نكبة الحرب ، وخير الحكومات في نظرهم اقلها اشهاراً للحرب. وكان جاليازو سفورزا (دوق ميلان) يحيط نفسه ببذخ اعظم الملوك ويجذب الشعب اليه ، مدفوعاً بالحواس لا بالتأمل ، فكان الشعب

الميلاني يحمد له هذا البهاء دون ان يفكروا في أنهم هم الذين يدفعون ثمنه . وكان آل مديتشي احداث عهد بالسلطان في فيرنتزا (فلورنس) فكانوا يبذلون كل ما وسعوا لاكتساب محبة الشعب ، وذلك باحاطته باسباب المرح الدائم . وافلح الامراء في باقي الدول الايطالية ايضاً بمختلف الوسائل في اكتساب محبة الفلاحين وعامة المدن . وكانت حماية المذنب من القانون من اعظم وسائل الاستهواء . كان القانون ينذر المجرمين بأروع العقوبات ، وكانت الاجراءات تبدأ بالتعذيب وتنتهي باعدام العجلة . ومع ذلك فان كل وليمة قروية كانت تسفر عن جريمة قتل ، مرتكبوها هم الاشرار ذوي الاقدام والجرأة الذين يؤثر الطاغية ان يحيط بهم عرشه . فاذا حماهم من نقمة العدالة اغتنم منهم ومن اسرهم ولاء يناسب في القدر والاخلاص روعة العقوبة التي افلتوا منها . كان اولئك الرجال ، وهم اخطر قادة الشعب ، يخلصون جميعاً للامير ، فاذا قامت دعوة الى تحطيم طغيانه فانها لا تلقى صدى في المدينة او القرية »

ثم يقول : « كان القتل أمراً ذائعاً حتى ان الرجال ذوي الشرف قلما كان يخامرهم في ارتكابه وازع ، وحتى كان المتآمرون لا يرتدون أمام أي داع لمقت السفك . كان كل أمير وشريف ، بل كل قاض وفرد ، في جميع أوربا ، على أهبة لارتكاب القتل دفاعاً عن أقل الحقوق ، أو ازالة لاية عقبة ، أو ارهاباً ، أو تدليلاً على البأس ، أو اخفاء لجرم . وكان ذوو الحشم يطلبون قبل كل شيء ان يكون الاتباع شجعاناً ، وان يتقلدوا السلاح لارتكاب أية جريمة عند الحاجة . بل ان الخدمة المنزلية لم تنحط الى درك الزراية لان

القتلة كانوا من بين الخدم . وكان بعض ذوي الحسب يلحقون اولادهم بالاشراف اوصافاً او اتباعاً ، او روّاضاً لأنهم عندئذ يحملون السيف ، ويعظم قدرهم باحتمال سفك الدماء . فلم يكن اهل القرن الخامس عشر يعتقدون القتل وسيلة لانقاذ الوطن كما نعتقده نحن ، بل كانوا يرون الشرف في القتل ، والفضيلة في التضحيـة ، والعظمة التاريخية في المؤامرة . ولم يكن يردهم سوى الخطر ، بيـد انه كان خطراً هائلا . لان الطغاة ، وهم يشعرون انهم على حرب مع الكون كله ، كانوا دائماً على قدم الحذر ، ولما كانت سلامتهم تتوقف فقط على بث الارهاب والرعب ، فان العقاب الذي ينزلونه عند الظفر كان بالغ الهول والفظاعة . ومع ذلك فان هذا الارهاب لم يثن اعـداء النظام القائم سواء أكان ملوكياً ام جمهورياً . ولم يشهد التاريخ من قبل كمؤامرات هذا القرن كثرة وجرأة . فان اخفاق البعض لم يحل قط دون قيام غيرها لتسلك نفس السبيل » [1]

٢ ــ غير انا قبـل ان نعني بمؤامرات العصر الذي يشير اليـه الفيلسوف سسموندي ، نرى الالمام بطائفة من المؤامرات التي وقعت في ايطاليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أعني في خاتمة العصور الوسطى . ففي سنة ١٢٨٢ ، وقع في صقلية حادث مدهش ، كان سبباً في تحرير الجزيرة من نير الفرنسيين . وكان ذلك في ٣٠ مارس اعني وقفـة الصوم في مدينة بالرم . ففي ذلك اليوم اهان جنـدي فرنسي عروساً صقلية كانت تسير مع زوجها إلى الكنيسة لتتقبل القـداس الزوجي ، فثار اهلها وصحبها سخطاً ، وطار ذلك السخط

---

(١) سسموندى ــ تاريخ الجمهوريات الايطالية

بسرعة البرق إلى جميع سكان المدينة ، فلما بدأت نواقيس الكنائس تقرع إيذاناً بالعيد ، صاح الناس فجأة : « إلى السلاح ! ليمت الفرنسيون ». وانقض الشعب على الفرنسيين من كل ناحية ، فاخذوا على غرة ، ولم يستطيعوا دفاعاً عن أنفسهم : وهلك في الحال منهم زهاء اربعة آلاف ، وحذت كل مدن صقلية حذو بالرم . وهكذا حطمت صقلية نير الفرنسيين ، وانفصلت عن مملكة نابولي ، وعادت إلى امير من امراء آل هوهنشتاوفن حملة التاج الامبراطوري. ويرى كثير من المؤرخين ان تلك المذبحة الفجائية كانت نتيجة لمؤامرة محكمة واسعة النطاق ، وتدابير خفية اتخذت من قبل . وكان جماعة من أصدقاء الامبراطور قد زاروا نابولي وصقلية قبل ذلك متنكرين ليحفزوا الشعب الى الثورة على الفرنسيين

وفي منتصف القرن الرابع عشر كانت مؤامرة شهيرة دبرها النبلاء في رومة لاسقاط كولادي رينزو المتغلب عليها. وكان كولادي رينزو من ابناء الشعب ، ولكنه كان نابهاً ، اديباً يتقن الادب اليوناني واللاتيني . وكانت شمس الاشراق (الرينيسانس) قد بدأت تبزغ في ايطاليا وعلمها الاحياء اللاتيني. وكان رينزو داعية متحمساً إلى احياء تراث رومة القديمة ونظمها ، وإلى احتقار نير الامبراطرة والبابوات وكانت السلطة الزمنية الحقيقية في يد النبلاء ، وعلى رأسهم آل كولونا، وآل ارزيني ، وآل سافيلي . وكان اولئك النبلاء يتنازعون الحكم ، وتقوم بينهم خصومات ومعارك مستمرة تسيل فيها دماء الكافة . وكان رينزو يبغض نيرهم ومعاركهم ، ويدعو إلى انشاء حكومة شعبية . فاثمرت دعوته ، وهاج الشعب على النبلاء . وفي مايو سنة ١٣٤٧ ،

استولى الشعب على الحكومة ، واختاره «نائباً» على مثل نواب رومة، واختاروا معه للنيابة اسقف ارفيتو . وصعد الاثنان معاً إلى « الكابيتول » وحققت الثورة غايتها الاولى . ولكن رينزو لم يكن رجل حرب ولا سياسة ، فاغرق في اقامة الحفلات والمواكب العامة . وملئت نفسه غروراً وزهواً . وكان النبلاء الذين نفاهم من جهة أخرى يدبرون أمرهم لاسترداد نفوذهم واموالهم ، فحشدوا جموعهم وهاجموا رومة ، فانفض الشعب عن رينزو ، واضطر إلى مغادرة الكابيتول لاشهر فقط من نهوضه وفر إلى شارل الرابع ولد يوحنا ملك بوهيميا ، فسلمه للبابا في سنة ١٣٥٢ . ولكن البابا أرسله إلى رومة مع أحد الاحبار ليستفيد من تأثيره في الشعب سنة ١٣٥٤ . فاستطاع رينزو أن يثير حماسة الشعب حيناً . ولكن مؤامرة جديدة دبرها النبلاء أفضت إلى هياج الشعب وانحيازه إلى آل كولونا . وهنا هاجم الشعب رينزو في قصره فاحرقه . وقبض على رينزو إذ كان يحاول الفرار متنكراً ، واعدم في عرين الاسود ، في سفح الكابيتول في اكتوبر سنة ١٣٥٤

وفي سنة ١٣٤٠ وقعت في فيرنتزا (فلورنس) مؤامرة دبرها جماعة من النبلاء لاسقاط حكومة طاغية على رأسها جاكوبو دي جوبيو وكان زعيما المؤامرة هما بيترو دي بازدي ، وباردو فرسكوبالدي ، فالتف حولهما كثير من الاسر النبيلة والناقين على الحكومة ، وقرر المتآمرون أن يحشدوا أنصارهم مسلحين في بيوتهم حتى يوم « كل الارواح » حيث يشتغل جميع الناس بزيارة الكنائس ، وعندئذ يثبون بجاكوبو وباقي أعضاء الحكومة ، ولكن واحداً من أسرة

باردي هو اندريا دي باردي خشي الفشل والعقاب فافضى بسر المؤامرة الى صهر له ، ونقل هذا خبرها الى مجلس الحكومة ، ولكن اليوم المتفق عليه كان قد حل ، واحتشد المتآمرون مسلحين في الساحة العامة ، حينما قرعت النواقيس احتفاء بيوم العيد واعتزم باردي وفرسكوبالدي القتال بعد أن رأيا افتضاح الامر ، ولكن أنصار الحكومة استطاعوا رد الخوارج ، ثم تفاهم الفريقان ، والقى الخوارج سلاحهم ، ولكن مجلس الحكومة ، عاد بعد قليل فقبض على بعض الكبراء من الاسر الخصيمة واعدمهم

ولم تمض أعوام ثلاثة حتى اضطرمت فيرنتزا كلها بأسباب السخط على حكومة دوق أثينا المتغلب عليها ، ودبرت مؤامرة عامة اشترك فيها النبلاء والتجار والعامة ، ورأسها اينولو اكشاجولي اسقف فيرنتزا ، وقر الرأي على اغتيال الدوق . ولكن أحد المتآمرين نقل تفاصيل المؤامرة كلها الى الدوق ، فأمر الدوق بالقبض على كبير المتآمرين انتونيو اديماري ، وحاول اجتذاب المتآمرين الى قصره بالخديعة ، ولكن المتآمرين حشدوا جموعهم في الحال (يوليه سنة ١٣٤٣) ، وتواثبوا الى شوارع المدينة منادين بالثورة والحرية ، والتف حولهم معظم النبلاء والتجار ، فتحصن الدوق في قصره ، ووقعت في الساحة العامة بين رجال الدوق وبين الثوار معركة حامية ، فهزم رجال الدوق ، وخشي الدوق العاقبة ، فاطلق سراح الاسرى ، وحاول استمالة الثوار ، فلم يصغوا اليه ، ثم انفض عنه أنصاره ، وارغم على التنازل عن الحكم ، واستردت المدينة التالدة حرياتها الشعبية

وفي ذلك الحين أيضاً كانت مملكة نابولي مسرحاً لسلسلة من

المؤامرات والجرائم الشهيرة ، ففي شهر يناير سنة ١٣٤٣ توفي روبرت العادل ملك نابولي دون ولد ، فأوصى بالعرش لحفيدته جنة . وكان قد زوجها قبل وفاته من ابن عمها اندريا ابن ملك المجر ، وكان اندريا حفيداً للامبراطور شارل الثاني ، ومن ثم كان حقه في وراثة عرش نابولي أقوى من حق روبرت ذاته ، ولذا فكر روبرت قبل وفاته في أن يمزج الحقين وأن يجمع بين فرعي الاسرة بعقد زواج جنة واندريا وتتويجهما معاً ملكين على نابولي . فتم الزواج ، ولم يتم التتويج . وكانت جنة فتاة أو بالحري صبية لا تجاوز الخامسة عشرة رائعة الجمال ، وافرة الذكاء والظرف . ولكن فاسدة الخلال ، وضيعة الميول والعواطف . وكان أندريا من جهة أخرى ، فظاً ، خشن الطباع ، فسرعان ما دب الجفاء بينهما ، وسقطت الملكة الفتاة صرعى أهوائها وشهواتها العنيفة ، ووقع اندريا تحت نفوذ مؤدبه وشيعته من المجريين ، وكانت جنة تخشى أن ينازعها اندريا الملك ، وتريد ان تتخلص من رقابته وولايته ، فاصغت الى تحريض عشاقها ، وأعداء زوجها ، ودبرت بمعاونتهم مؤامرة لقتله ، وتقرر أن يكون التنفيذ خارج نابولي مساء حفلة صيد نظمتها جنة واشترك فيها اندريا . وفي ليلة ١٨ سبتمبر سنة ١٣٤٥ ، دهم المتآمرون اندريا ، وهو نائم ، في قصره في آفيرسا في ظاهر نابولي ، وقتلوه طعناً وخنقاً ، ولم يمض عامان على تلك الجريمة الشنعاء حتى اقترنت جنة بابن عمها لويس دي تارانت مدبر المؤامرة ، وتولى عرش المجر في نفس الوقت لويس اكبر اخوة اندريا ، وهو المعروف بلويس الاكبر واعتزم الانتقام لقتل أخيه ، فاخترق ايطاليا ، وافتتح نابولي سنة ١٣٤٨ ، وفرت جنة وزوجها

الى بروفانس ، ونزلت عن مدينة افنيون للبابا اغتناماً لمؤازرته . ولكن حلت بأوربا في ذلك الحين نكبة هائلة هي الوباء الاكبر الذي عصف بكل صقع وحمل مئات الالوف الى القبر وهو الوباء الذي ترك لنا منه بوكاشيو أقوى صورة وأبدعها ، ورأى لويس زهرة جيشه تتساقط تباعاً ، فعقد الصلح مع جنة في سنة ١٣٥١ ، وعادت جنة وزوجها الى نابولي ، واستسلمت الى حياة الهوى والرذائل ، واهملت كل الشئون العامة والدفاع عن المملكة ، وتقلبت بين أذرع عشاق وأزواج عدة ، ولكن جاءت ساعة الحساب أخيراً فان شارل دوق دوراز المجري غزا نابولي سنة ١٣٨٢ ، وأمر بجنة فقبض عليها ، واعدمت شنقاً في آفيرسا حيث زهق زوجها اندريا وبذلك اختتمت من تاريخ نابولي صفحة حافلة بالخيانة والجريمة

٣ ـ ويجب لفهم ما سيتلو من سير المؤامرات السياسية ان نلم بما كانت عليه ايطاليا وقتئذ من تقسيم سياسي . فقد لبثت ايطاليا قروناً تخضع لامبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكنها كانت أول دولة دالت فيها دولة الامبراطورية . وقد اضمحلت سلطة الامبراطورية في ايطاليا في أواخر القرن الرابع عشر ، بعد ان حاول آل هوهنشتاوفن أن يستردوا هذه السلطة حيناً . وعلى أثر ذلك قويت سلطة الامراء الاستقلاليين فبسطوا نفوذهم على معظم الولايات الايطالية حتى أصبح لكل مقاطعة أو مدينة اسرتها الحاكمة من صغار الامراء كآل استانسى في فرارا . وآل جونزاجا في مانتوا . وآل بنتفوجلي في بولونيا . وآل باجليوني في بيروجيا . ولكن أهم الولايات التي خضعت وقتئذ لسلطان الحكم المطلق كانت

ميلان في الشمال . ونابولي في الجنوب . وكانت فيرنتزا والبندقية كلتاهما جمهورية. أما ميلان فكان يحكمها آل فسكونتي منذ بدء القرن الرابع عشر . وفي سنة ١٣٩٥ رفع الامبراطور أميرها جيان جاليازو الى رتبة الدوق . غير أن ولده فيليبوماريا توفي دون وارث في سنة ١٤٤٧ . فاستولى على العرش عندئذ قائد باسل هو فرنشيسكو سفورزا وأسس اسرة جديدة . وأما فلورنس فلم تستطع ان تحافظ على حرياتها الجمهورية طويلا ، بل تغلبت عليها في أواخر القرن الرابع عشر اسرة قوية هي آل البزي . ثم من بعدهم آل مديتشي. وأما البندقية فكانت أعظم الدول الايطالية وقتئذ سلطاناً وقوة وغنى وكان للبابوية أعز مكانة بين الولايات الاخرى . وكان سلطانها يشمل رومة ورومانيا وانكونا ، وقد اضطربت شئون الكنيسة حيناً ، وانتقلت البابوية الى أفنيون، حتى عاد البابا مارتن الخامس الى رومة مرة اخرى في سنة ١٤١٧ ، ولكنه تحالف مع اسرة كولونا التي كانت تشاطره السيادة . وقد رأينا مما تقدم ان تغلب كولا دي رينزو وائتمار النبلاء به وقعا أثناء هذه الفترة.

٤ ـ ففي فيرنتزا (فلورنس) في عهد أميرها ماسو البزي، وقعت مؤامرة شهيرة دبرها النبلاء الناقمون . وكان منهم جماعة في المنفى يضطرمون جرأة وشغفاً بالانتقام . فحرضهم نبيلان هما بيجللو وكافشولي على القدوم سراً الى فيرنتزا ، وقتل ماسو البزي ، ووعداهم بالحماية والمساعدة . وكانت ظروف المدينة مما يشجع لأن الشعب كان ناقماً على آل البزي . وكان كبار النبلاء مثل آل رتشي ، ومديتشي ، ومانلي جميعاً يعملون على سحق الاسرة الحاكمة .

فجاء المتآمرون سراً الى المدينة في ٤ أغسطس سنة ١٣٩٧ ، ودخلوا سراً من طريق نهر الارنو قاصدين البدء بقتل ماسو ، وتحريض الشعب بعدئذ على الثورة ، ولكن ماسو لم يوجد في منزله يوم التنفيذ ولم يعثر أحد منهم بأثره ، فظهروا عندئذ في شوارع المدينة يدعون الناس الى حمل السلاح والثورة . فاحتشدت حولهم شراذم من الشعب تصغى الى نصحهم وتحريضهم ، ولكن الشعب كان جامداً فلم يرفع أحد سلاحه ، ورأى المتآمرون أنهم يحاولون عبثاً ان يقدموا الحرية لشعب يؤثر ان يبقى في العبودية ، وحاولوا التحصن باحدى الكنائس . فحاصرهم جند المدينة وقبضوا عليهم واعدموا جميعاً

وكانت الخصومة قائمة في ذلك الحين بين فيرنتزا وميلان . فلما رأى دوق ميلان أنه لا يستطيع قهراً للمدينة الخصيمة بالسيف لجأ الى التآمر. واتفق مع جماعة كبيرة من الفيرنتزيين المنفيين ان يدخلوا فيرنتزا مسلحين ذات يوم من طريق الارنو وان يجتمعوا مع أصدقائهم في الداخل في منازل أعضاء الحكومة ثم يقتلوهم ويقيموا حكومة جديدة. وكان كبير المتآمرين في داخل المدينة شخص من آل رتشي يدعى سامنياتو ، فأفضى بالمشروع الى زميل من النبلاء الناقمين يدعى سلفسترو كافشولي ، ولكن سلفسترو آثر الخيانة على ارتكاب متن الخطر فأبلغ الامر الى مجلس الحكومة فقبض على سامنياتو وارغم على الاعتراف ، وارتاع المتآمرون فلاذوا بالفرار في كل ناحية بعد ان اجتمعوا حول المدينة ، ونفى مجلس الحكومة عدداً من النبلاء حامت حولهم الشبهات، ونزع أملاك البعض الآخر ، وذلك في سنة ١٤٠٠

وفي عهد البابا نقولا الخامس ، وقعت في رومة مؤامرة كبيرة ترمي الى استرداد الحريات الجمهورية ، وبطلها اصطفانو بركارو . وكان بركارو سيداً نبيلاً ، عالماً ، يتوق الى تحرير وطنه من نير الاحبار ويدعو الى مثله بين الشبيبة . ثم فاوض أصدقاءه في بولونيا ورومة في مشروعه ، ودعى المتآمرين ذات ليلة الى مأدبة شائقة أقامها ، وظهر بينهم يرتدي ثوباً من الذهب ، وخطبهم في مهمتهم الكبرى . ثم قسمهم الى فرق ، عهد الى واحدة منها بالاستيلاء في صباح اليوم التالي على قصر الفاتيكان ، والى أخرى بدعوة الشعب الروماني الى الثورة . ولكن أنباء المؤامرة وصلت الى البابا ليلاً ، فأصدر البابا في الحال أمره بالقبض على بركارو وجماعة كبيرة من شركائه ، وقضى باعدامهم جميعاً (سنة ١٤٥٢)

٥ ـ نعطف بعدئذ على العصر الذي يشير اليه الفيلسوف سسموندي فنقول ان فيرنتزا كانت مسرحاً لاولي المؤامرات الدموية التي وقعت في هذا العصر . ففي ابريل سنة ١٤٧٠ دبرت محاولة خطيرة لاسقاط آل مديتشي امراء فيرنتزا. ومدبرها برناردو ناردي وهو نبيل نفاه بيترو دي مديتشي ، فسار إلى براتو خفية على رأس مائة من أنصاره . وباغتها واستولى على دار الحكومة والقلعة . ثم اخترق شوارع المدينة منادياً بالثورة . وكان يعتزم أن يجعل من هذه المدينة الصغيرة معقلا جمهورياً وقاعدة لمهاجمة آل مديتشي . ولكن سكان المدينة لم يصغوا إلى ندائه ولم يلبوا دعوته . فلما رأى أنصار الحكومة ان ناردي اضحى وحيداً منبوذاً ، رفعوا السلاح في وجهه

وهاجموه من كل صوب ، فقهر وأسر وحمل إلى فيرنتزا . حيث اعدم مع ستة من شركائه

ووقعت في فرارا في سبتمبر سنة ١٤٧٦ مؤامرة دبرها الحزب الملكي . وكان آل أوستي امراء فرارا ومودينا ورجيو . حكم عميدهم ليونل من سنة ١٤٤١ إلى ١٤٥٠ . وخلفه اخوه بورزو فحكم إلى سنة ١٤٧٠ . ثم خلفه اخوهما هرقل . ولقبه الامبراطور بدوق مودينا ورجيو. وكان لليونل ولد يدعى نيكولو ، فلما استولى عمه على العرش فر إلى مانتوا . وكان ليونل حسن السيرة محبوباً من النبلاء والشعب . وكان جماعة من بطانتـه يرون ان ولده احق بالعرش ، وان هرقل انما هو مغتصب . فدبروا مؤامرة لاسقاط هرقل وتولية نيكولو . وفي سبتمبر سنة ١٤٧٦ ادخلوا نيكولو وزهاء ستمائة من انصاره خفيـة إلى فرارا ، فتفرقوا في شوارع المدينة . وفي الحال دعوا الناس إلى السلاح لاجلاس ولد المحسن اليهم . ولـكن الشعب اعرض عنهم ، فلاذوا بالفرار . وهجم جنود هرقل على نيكولو وانصـاره فمزقوهم . وقبض على نيكولو واعدم مع خمسة وعشرين من أنصاره

وتلا ذلك مؤامرة دبرها في نفس العام ، في جنوا ، جيرول موجنتيـلي ، لتحرير جنوا من نير دوق ميلان ولـكنها اخفقت أيضاً لان الشعب اعرض عنه على النحو المتقدم رغم استيلائه على أبواب المدينة

ولم يكن اخفاق هذه المحاولات وما يقترن بها من العقوبات الدموية ليثني عزم المخاطرين ، ففي نفس العام أيضاً دبرت مؤامرة

في ميلان ضد أميرها الدوق جاليازو سفورزا . وكان جاليازو طاغية سفاكا ، لا يحجم عن جرم حتى قيل انه سم والدته . وكان كثير التقلب ، لا عهد له ولا زمام ، وكان أشد ما يثير سخط الشعب عليه فسقه وفجوره واجتراؤه على عفاف أرفع النساء ، وهتكه لحرمات أزواجهن واخوتهن واسراتهن . هذا الى بذخه الذي انضب موارد الدولة ، وحمله في النهاية على مصادرة الاموال الخاصة ، والى قسوته الرائعة وافتنانه في تعذيب خصومه وازهاقهم . وأخيراً اعتزم ثلاثة من النبلاء الفتيان ، ينتمون الى أسر ما فتئت تقاوم آل سفورزا منذ بدء تغلبهم ، وما زالت تعاني بطش الطاغية وارهاقه ، أن ينقذوا وطنهم من ذلك الوحش السفاك ، موقنين بان الشعب سيهب معهم باسره متى صرع الطاغية ، وهؤلاء هم جيرول دي أولجياني ، وكازلو فسكونتي ، واندريا لامبونياني . وقد قرروا ألا يثقوا بغير أنفسهم ، وألا يبوحوا بسرهم لكائن . فلبثوا حيناً يتمرنون على استعمال الخنجر . وكانت حماستهم الدينية تضطرم كحماستهم الجمهورية ، فلبثوا كذلك حيناً يعدون أنفسهم للعمل العظيم بشهود القداس ، وبذل العهود والنذور للقديسين والشهداء . ثم قرروا أخيراً أن يكون التنفيذ في ٢٠ ديسمبر سنة ١٤٧٦ اعني يوم عيد القديس اصطفان الذي اتخذوه ولياً وشاهداً . وكان الدوق يعتزم أن يشهد الصلاة في كنيسة هذا القديس بصفة رسمية . فتربصوا له في الكنيسة . فلما رأوه يدنو بين سفراء فرارا ومانتوا ، تقدموا منه باحترام وقبعاتهم في أيديهم ، متظاهرين بانهم يبعدون الجمهور عنه . بيد انهم احتاطوا به فجأة في لحظة واحدة واثخنوه طعناً بخناجرهم بين بطانته وحرسه . فخر

جاليازو سفورزا قتيلا لفوره ، واضطرب الناس . وماجوا . وحاول المتآمرون فراراً من الكنيسة ليحفزوا الشعب الى الثورة . ولكنهم لقوا الرعب والدهشة مكان الحبور والحماسة . واستل حرس الدوق سيوفهم أخيراً لينتقموا لسيدهم . فقتل لامبونياني ، وفسكونتي ، واستطاع اولجياتي وحده أن يفر .

فاخترق شوارع المدينة داعياً الى الثورة والحرية . ولكن احداً لم يجبه ، فحاول النجاة عندئذ ، ولكنه ضبط ، وعذب بأروع صنوف العذاب ، وكتب او أملى قبل أعدامه سيرة المؤامرة كما روينا خلاصتها . وهي وثيقة تفيض بانبل ضروب الحماسة ، وتقديس الحرية . ثم اسلم الى الجلاد ، فمزق لحمه بعقارض محمية . ولم يكن هذا الشهيد الباسل يجاوز الثانية والعشرين من عمره .

٦ ـ يقول مكيافيلي : « ان المدن التي تحكمها حكومات جمهورية ، وخصوصاً تلك التي لم يحسن وضع دستورها ، كثيراً ما تغير حكوماتها وحكامها ، لا تحقيقاً لعوامل الحرية أو العبودية كما يعتقد سواد الناس ، ولكن من جراء عوامل العبودية والخروج المفرط . ذلك لان اسم الحرية هو الذي يمجد وحده ، فاذا كان الحكام من طبقة التجار كانت الحكومة أميل إلى الفوضى ، وإذا كانوا من النبلاء كانت أميل إلى الصرامة ، ولن يخضع التجار اوالنبلاء بسهولة للسلطة اوالقانون. صحيح ، انه إذا برز الى الطليعة ، لحسن طالع نادر ، رجل عاقل ، نزيه ، قوي ، فسن للمدينة شرائع تذلل روح الحزبية التي تسود بين التجار والنبلاء ، أو تحد من شكيمتها بحيث يخف ضررها ، فقد تعتبر المدينة عندئذ انها حرة ، وان حكومتها وطيدة قوية . ولما كانت تقوم

على شرائع ونظم حسنة ، فليست تحتاج الى براعة رجل واحد ليؤيدها شأن المدن الاخرى . وقد كان كثير من الجمهوريات القديمة ينعم بمثل هذه الشرائع والنظم ولا سيما تلك التي استطال عمرها . فاذا عدمت الدول أمثال هذه القوانين والنظم ، فكثيراً ما تغير حكوماتها ، وكثيراً ما تتقلب بين الطغيان والفوضى . وفي مثل هذه الدول تجد كل الاحزاب أمامها أعداء قادرين واذن فلا يكون ولن يكون ثمة استقرار . وفي ظل حكومة يطغى السوقة ، وفي ظل أخرى يطغى الاغنياء . . .

« مثل ذلك ان آل مديتشي بعد الظفر العظيم الذي وضع مقاليد الحكم في يدهم سنة ١٤٧٦ ، نالوا سلطة كبرى حتى ان اولئك الذين سخطوا عليهم ، كان عليهم اما ان يصبروا على الامور ، واما ان يلجأوا الى المؤامرة اذا أرادوا خلاصاً منها . ولما كان النجاح من طريق المؤامرة صعب المنال ، فان الهلاك يكون نصيب المدبرين لها ، هذا في حين ان اولئك الذين تدبر لسحقهم يزدادون سلطاناً ورفعة . وان مؤامرة تدبر ضد حاكم مدينة تسفر في معظم الاحوال عن ازدياد سلطته اللهم الا اذا زهق كما زهق دوق ميلان . ثم ان الاستمرار في التآمر على أمير حسن السيرة ، قد يحوله الى أمير سيء الخلال . فالمؤامرات تبث الخوف ، والخوف يرغم الامير على ان يبحث عن سلامته ، ويقتضي لسلامته ان يؤذي غيره . فيترتب على ذلك ان يبغضه الشعب ويسفر عن هلاكه في معظم الاحوال . واذن فالمؤامرات تفضي الى هلاك أولئك الذين

يدبرونها ، واولئك الذين تدبر ضدهم ونهايتها خسران الجميع » (١)

ونرى فيما كتب المؤرخ الفياسوف أثر حوادث عصره ماثلاً في نظرياته ، فقد عاش مكيافيلي في عصر يضطرم بالمؤامرات السياسية وعاش قريباً جداً من العصر الذي وقعت فيه الحوادث التي سردناها وظاهر انه يشير الى حالة فيرنتزا (فلورنس) التي كتب تاريخها عقب وقوع مؤامرة بازي الشهيرة وانتهائها بمصرع أمير من آل مديتشي أصدقاء الفيلسوف وحماته، ووحي كثير من نظرياته وفكره



ماكيافيلي

٧ ـ ولعل مؤامرة بازي هذه أشهر وأروع المؤامرات التي وقعت في هذا العصر ، وفي حوادثها ونتائجها وحي ظاهر لما أشار اليه مكيافيلي . فقد كان آل مديتشي تجاراً ، وقد ارتفعوا وسما شأنهم بسرعة . وكانت أسرة باهرة تعضد الآداب والفنون . ومؤسسها هو كوزيمو دي مديتشي الذي توفي سنة ١٤٦٤ ، ثم خلفه ولده بيترو ، فاخمد ثورات الخارجين على أسرته . وتوفي سنة ١٤٦٩ ، وترك ولديه جوليانو ولورنزو ، وهو اكبرهما فجلس على العرش . وكان عصره ذروة مجد آل مديتشي حتى عرف بلورنزو الانخم . ففي فاتحة عصر

(١) نيكولو مكيافيلي ـ تاريخ فيرنتزا

لورنزو وقعت مؤامرة بازى . وكان كبيرهذه الاسرة أندريا دي بازي من كبراء الحكومة في عهد بيترو ، فتوفي عن ثلاثة أولاد وعدة احفاد وزوج أحد أحفاده من أخت للورنزو وجوليانو دي مديتشي . وكانت الاسرة وافرة الغنى والجاه ، وكانت تنافس آل مديتشي في النفوذ والسلطان . وكان لورنزو وجوليانو يخشيان هذا التنافس ، ويريانه خطراً على سلطان أسرتهما . فبدأ باضطهاد آل بازي واقصائهم عن مناصب الحكم . وكان واحد منهم قد تزوج من ابنة جوفاني بوروميو أغنى رجل في المدينة . وكانت وارثته الوحيدة ، ولكن سرعان ما توفي بوروميو حتى أصدر آل مديتشي قانوناً يحرم ارث الاناث ، ويفضل عليهن نسل الذكور ، وان بعد . وبذا حرم جوفاني دي بازي من ارث باذخ كان على وشك احرازه ..وكان أخوه فرنشيسكو دي بازي صارم الطبع والخلق ، فلم يصبر على هذا الاضطهاد ، وغادر فيرنتزا وأقام في رومة . وهنالك قربه البابا سكستوس الرابع ، وجعله صيرفه وأولاه ثقة لا حد لها

وكان سكستوس الرابع من آل روفيري ، من أسر سافونا العامة . وكان كمعظم البابوات . فاسد الخلال ، سيء السيرة ، كثير الاطماع . وكان له أربعة أبناء اخوة اصطفاهم اليه جميعاً . فادخل ولد اخيه جوليانو روفيري وولد اخته بيترو رياريو إلى الكنيسة ، وزوج ولد اخيه ليوناردو من ابنة دعية لفرديناند ملك نابولي ، وجعله محافظاً لرومة ودوقاً لسافونا ، وزوج جيرولامو رياريو ولد أخته من ابنة دعية لدوق ميلان ، واشترى له مقاطعة أمولا ليضمها إلى الولايات البابوية . وكان تبديد تراث الكنيسة على هذا النحو لرفع أبناء أسرة

البابا من أشهر الفضائح التي سميت فيما بعد باصطفاء البابوية . وكان سكستوس الرابع مع ذلك رجلا ذا مقدرة ، نصيراً لاستقلال ايطاليا وللنظم الجمهورية ، ولكنه كان يجد مقاومة شديدة لسياسته من جانب آل مديتشي . فاعتزم ان يعمل على انشاء جبهة موحدة من ايطاليا كلها ضدهم . وأدى هذا النضال إلى الجفاء والبغض . وكان جوليانو رياريو وفرنشيسكو بازي يعملان لازكاء هذا البغض في قلب البابا بكل الوسائل حتى انتهي بان وعد أن يؤيد بكل قواه الروحية والمادية مؤامرة ترمي الى قتل الاخوين جوليانو ولورنزو دي مديتشي، وبذلك ترد حريات فيرنتزا اليها . وعلى هذا الشرط قبل جاكوبو دي بازي عميد الاسرة وعم فرنشيسكو أن يشترك في تلك المؤامرة الخطيرة

ولم يرد آل بازي أن يتركوا لمصيرهم بعد تنفيذ المؤامرة كما حدث لمتآمري ميلان لان أحداً لم يعرف بمشروعهم ولم يقف على نياتهم. ولذا ضموا اليهم عدداً من الكبراء الناقين منهم فرنشيسكو سلفياتي الذي عينه البابا مطراناً لبيزا ، ومنعه آل مديتشي من تولي منصبه . وتقرر قتل الاخوين جوليانو ولورنزو في وقت واحد ، وان يحتل بعض المتآمرين قصر الحكومة ، وأن يهددوا المجلس، بينما يدعو بعضهم الى الثورة والحرية . وحاول المتآمرون ان يجذبوا الاخوين معاً الى حفلة من الاحتفالات العامة، فلم يوفقوا الى ذلك رغم استعدادهم للتنفيذ في كل مرة . واتفق أن يتولى سلفياتي وجاكوبو براشوليني ولد المؤرخ ، وجماعة من جند المتآمرين احتلال قصر الحكومة . وان يتولى جاكوبو دي بازي اثارة الشعب . وتعهد فرنشيسكو بازي

وبرناردو بانديني بقتل جوليانو ، وباتستا دا مونتسيكو بقتل لورنزو وكان غياب جوليانو في حفلتين متواليتين قد اضطر المتآمرين الى تأجيل التنفيذ الى حفلة دينية تقام في الكنيسة الكبرى ويشهدها الاخوان حتماً . فتقرر أن يطعن القتلة الاخوين حينما يجثوان امام الكاهن اثناء الصلاة . ولكن باتستا دا مونتسيكو ابى أن يرتكب جريمته في مكان مقدس وأثناء الصلاة . فابى الباقون مثله معتبرين ان ارتكاب الجريمة فيهذه الظروف اثم لا يغتفر . فاضطر المتآمرون عندئذ أن يلجأوا الى راهبين هما انتونيو دا فولتيرا واستفانو دي بانيوني لم يأنسا مثلهذا التوجس ، فكان ذلك سبباً في انهياركل شيء

وكان كل شخص في مكانه حينما دخل جوليانو ولورنزو الى الكنيسة في يوم ٢٦ ابريل سنة ١٤٧٨ . واتخذ كل مكانه على قيد مسافة صغيرة من الآخر . ثم بدأ القداس ، فلما جثا المصلون ، تحرك انتونيو دا فولتيرا ، ووضع يده على كتف لورنزو ليجيد الطعن . فذعر لورنزو ، وتحاشى الطعنة . وجرد سيفه ، وكذلك جرد وصيفاه سيفيهما ، ففر الراهبان في الحال . ولكن برناردو بانديني انقض على جوليانو في نفس الوقت وارداه قتيلا . واراد فرنشيسكو بازي أن يطعنه ايضاً . ولكنه جرح نفسه في فخذه . ثم انقض بانديني في الحال على لورنزو ففر امامه ، واوصد باب المقدس على نفسه ، فلما رأى المتآمر الجريء فشل محاولته ، انتهز فرصة الهرج العام ، وفر من المدينة ولم يهدأ روعه حتى وصل الى قسطنطينية . وفشل سلفياتي ايضاً في محاولته احتلال دار الحكومة . وقبض الحرس على جاكوبو براشوليني ، وعلى بعض زملائه المتآمرين وقتلوهم على الاثر . وصلبه

سلفياتي بملابسه الدينية على نوافذ القصر . وطورد الراهبان انتونيو واستفانو ومزقا • اما جاكوبو دي بازي الذي اخذ على نفسه اثارة الشعب ، فلم يصغ اليه احد ، فبادر بالفرار ، ولكنه اخذ على مقربة من المدينة ، وشنق جاكوبو وفرانشيسكو وريناالدو دى بازي جميعاً بجانب سلفياتي على نوافذ القصر • وهب انصار آل مديتشي للانتقام لهم ، فبطشوا بكل قريب ، أو نصير للمتآمرين ، واقتحموا دورهم ، وهلك في هذا الحادث الدموي مائتان من شبان المدينة وصفوة نبلائها . ولم يدخر لورنزو وسعاً في القبض على من فر من المتآمرين وسعى لدى السلطان محمد الثاني حتى رد اليه قاتل اخيه برناردو بانديني الذي أعدم باروع الاساليب

ولم تكن نتيجة هذه المؤامرة الكبرى ، كما يلاحظ مكيافيلي . سوى ازدياد سلطان آل مديتشي وكانوا يقنعون الى ذلك الحين بتبوء المكانة الاولى في فيرنزا . ولكن لورنزو عمد عندئذ الى الاستئثار بكل سلطة ، وانتزاع البقية الباقية من الحريات الجمهورية واتخذ سمة الامارة ، وأحاط نفسه ببذخ ملوكي هو الذي اسبغ عليه لقب « الانخم »



لورنزو دى مديتشى

ولما علم البابا سكستوس الرابع بما حدث ، وما نزل بسلفياتي

استشاط غضباً . وأصدر قراراً بنفي شعب فيرنتزا من حظيرة الـكنيسة وتحالف على قتالهم مع فرديناند ملك نابولي ، فاختل بذلك التوازن الدولي الايطالي الذي كان يؤيده آل مديتشي وآل سفورزا . وقد كانت ميلان وفيرنتزا ونابولي قادرة الى ذلك العهد على مقاومـة البابوية والبندقية ، ووضع حد لاطماعهما . ولـكن ايطاليا شطرت عندئذ الى كتلتين متعاديتين ـ ميلان والبندقية وفيرنتزا في الشمال ، والبابوية ونابولي في الجنوب ـ ثم اضطرمت بنار حرب أهلية شعواء

٨ ـ وفي ذلك الحين بعينه كانت الولايات المتحدة مسرحاً لطائفة من أروع المؤامرات والجرائم التى عرفها التاريخ . وترتبط هذه السلسلة الدموية باسم رجلين لهما المكانة الاولى في صحف الدس والجريمة ، هما البابا اسكندر السادس وولده شيزارى بورجيا . ونحن لانستطيع في هذا المقام الضيق أن نأتي على كل ما يحتويه ثبتهما الاسود من الجرائم والخيانات التي ترتجف لهولها الفرائص ، ولـكنا نأتي على خلاصة موجزة ففي سنة ١٤٩٢ ارتقى عرش البابوية رودريجو بورجيا باسم اسكندر السادس . وارتقى بالائتمار مع الـكرادلة . وكان

البابا اسكندر السادس

قبل أن ينتظم في سلك الـكنيسة قد أمضى حياة حافلة بالجريمة في

أسبانيا . فلما نفذ الى أسرار الكنيسة ، ونال رتبة الكردينال لبث حيناً محوراً للدسائس والمؤامرات التي دبرت في عهد بيوس الثاني وبول الثاني وسكستوس الرابع ، وأنوصان الثامن . وكان يخفي تحت ثوبه الكهنوتي نفساً فياضة بالاثم والشر والرذيلة ، فكان فاجراً خليعاً ، جباراً ، لئيم الطبع ، وضيع الميول . فلما ارتقى عرش البابوية كان همه أن يؤسس مجد أسرته فلم يحجم في هذا السبيل عن ارتكاب أشنع الجرائم ، فامعن في الاسر الرومانية قتلاً وسلباً ، كما أمعن في نسائها هتكاً . ولبث حيناً يؤلب الدول الايطالية بعضها على بعض . وبلغ من نذالة هذا الحبر الفاسق ان هام حباً بابنته الحسناء لوكريزيا وكانت له معها ، على قول بعض المؤرخين علاقات مجرمة . وكان شيزاري ولده الاكبر . وكان يعده لمناصب الكنيسة ، ولكن الحياة الدينية لم ترق في عينه ، فدبر مؤامرة لقتل أخيه الاصغر دوق دي جانديا واستمال أباه البابا الى مساعدته في تحقيق مطامعه السياسية . وكان شيزاري بورجيا يرمي الى انشاء حكومة سياسية قوية خارج الولايات الكنسية ، فاستعان بالفرنسيين في فتح رومانيا التي كانت الى ذلك العهد خاضعة لبعض الامراء المستقلين . وانشأ فيها حكومة مركزية فوق اكداس القتلى ، وتوصل بدهائه الفائق الذي أثار اعجاب مكيافيلي الى بسط حمايته على أوربينو وبيروجيا وغيرها من الاقاليم الصغرى . وارتاب ذات يوم في بعض أنصاره فاحتال عليهم وغدر بهم في سنجاجليا ولما ساد نفوذه على أواسط ايطاليا أخذ يفكر في غزوة توسكانيا ولكنه كان يخشى دائماً معاكسة القدر ، فقد يتخلى عنه الفرنسيون وقد يموت أبوه . فتحول الى مفاوضة اسبانيا ، وأخذ يتأهب للحركة

الرجعية التي قد تحدث عقب وفاة أبيه ، فاستمال اليه معظم الكرادلة حتى اذا مات اسكندر السادس اختاروا لكرسي البابوية رجلا لا يعترض على سياسته. ثم احتال في قتل كل خصومه ومنافسيه بالسم والخنجر. غير ان تلك الخطة المحكمة لم تنجح لوفاة اسكندر السادس فجأة . وما نعلمه بذلك الصدد هو ان اسكندر السادس وابنه شيزاري شربا بالمصادفة سماً كان معداً لاعدام الكردينال دا كرنيتوفتو في البابا ونجا شيزاري ولكن حياته بقيت حيناً بين الرجاء واليأس فحال هذا الحادث دون اهبته ومكن خصومه من تنفيذ سياستهم بلا معارضة. ووقع اختيار الكرادلة على جوليانو دللاروفيري ابن أخي سكستوس الرابع ، فتولى عرش البابوية باسم جوليوس الثاني وسجن شيزاري ، وارغمه على التنازل عن أملاكه للبابوية . فلما أطلق سراحه فرَّ الى نابولي حيث قبض عليه القائد جونز الفودي كردوفا، وارسله سجيناً الى أسبانيا . وهنالك قضى في الاسر ثلاثة أعوام. ثم فز الى نافار . وتوفي هنالك في حرب أهلية في سنة ١٥١٠


شيزارى بورجيا

وهكذا حطم سلطان آل بورجيا الذي شادوه في غمر من المؤامرات والجرائم الدموية . وليس مثل اسكندر السادس فذاً بين البابوات وان كانت وسائله فريدة في بطشها وروعتها . فان عرش

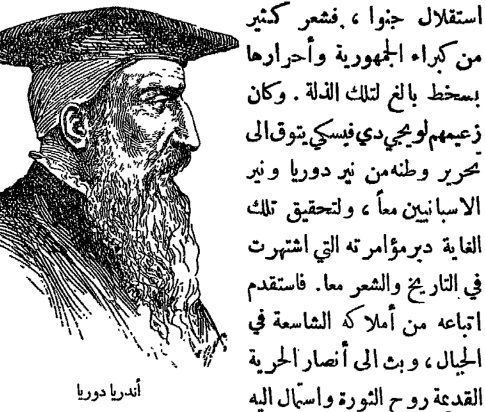
الفاتيكان كان على كر العصور محوراً للدسائس والمؤامرات المختلفة وكان لاولئك الاحبار الذين يتطلعون الى تبوئه وسائلهم الخفية . ومن الصعب كما قدمنا ان نحصي ضحايا السم من بين البابوات أو الكرادلة ، ولكن المحقق أنهم كانوا جميعاً يخشونه ويحتاطون له . وكان البابوات ، كما رأيت ، روح كثير من المؤامرات السياسية التي عصفت بالدول الايطالية في ذلك العهد الفياض بالاضطرابات والمحن

٩ ـ وأنفق جوليوس الثاني عهده في محاربة الدول الايطالية . ثم خلفه ليون العاشر . وهو جوفاني دللا مديتشي ولد لورنزو «الافخم» ومن أشهر البابوات حتى ان عصره في ايطاليا يعرف بعصر ليون العاشر . رفع الى مرتبة الكردينال صبياً في الثالثة عشرة ولكنه ارغم على مغادرة فيرنزا حينما غزاها شارل الثامن سنة١٤٨٨ فوفد على رومة والتحق بخدمة جوليوس الثاني ، وقاد جيش بيروجيا. وانتخب لكرسي البابوية سنة ١٥١٣. وفي عصره انفجرت ثورة الاصلاح على يد لوثر . وقد تحالف مع شارل الخامس على الفرنسيين وكانت معركة الامبراطورية يومئذ بين شارل الخامس وفرانسوا الاول. وكانت ايطاليا أيضاً مسرحا لهذه المعركة الكبرى ولكن سياسته لم ترق لجماعة من أصدقائه القدماء الذين اخفقت آمالهم ومطامعهم التي علقوها على انتخابه فدبروا مؤامرة لقتله بالسم سنة ١٥١٨ . ولكنها افتضحت. ولم يعرف مدبرها الحقيقي . واشتبه في الكردينال بروتشي بأنه هو رأسها وروحها . فزج في السجن وخنق في سجنه . وحكم على الكردينال بندنيلي بالسجن المؤبد

وفي فاتحة عهد ليون وقعت في فيرنزا حادثة أو مؤامرة كان من أبطالها الفيلسوف مكيافيلي ذاته. وكان آل مديتشي قد اشتد عسفهم بفيرنزا فاستأثروا بجميع السلطات . واغتصبوا كل الحريات. وكان نفر من أنصار الحرية والحكومة الشعبية يدعون الى الحرية بالقلم واللسان دعوة سلمية . ولكن آل مديتشي اتقاء لعواقب هذه الدعوة زعموا أن أولئك الدعاة يأتمرون بالحكومة . ولم يقدموا دليلا على ذلك الاتهام سوى بعض الاقوال والخطب التي القيت تأييداً لمبدأ الحريات الجمهورية . ولكنهم أرادوا ان ينتحلوا عذراً للبطش بكبراء المدينة وأعلامها ، فقبض على كثير من النبلاء والكبراء . وعذب مكيافيلي وعدة آخرين ثم نفوا. واعدم بيترو بسكولي واوجستينو كبوني وهما من الزعماء النبلاء (سنة ١٥١٣) . وكانت البابوية في نفس الوقت ترهق بحكمها المطلق جميع الولايات الرومانية، وكذا بعض الجمهوريات الصغرى مثل لوكا وسينا . فاضطربت الامور . وكثرت الدسائس والفتن في ظل حكومة الاحبار . ولبثت حيناً فريسة للثورات والحروب الاهلية والغزوات الاجنبية

١٠ ــ وكانت جمهورية جنوا قد أخذت في ذلك الحين تستعيد استقلالها القديم على يد بطلها أندريا دوريا أعظم بحار في عصره . ولكن دوريا لم يعد الى جنوا من الجمهورية سوى الاسم . ولم يعد اليها الحرية الحقيقية ، بل أنشأ فيها جمهورية ارستوقراطية واستولى على مقاليد الحكم فيها مع ابن أخيه جانتينو ، وتحالف

في نفس الوقت مع الاسرة الامبراطورية محالفة أهدر فيها استقلال جنوا ، فشعر كثير من كبراء الجمهورية وأحرارها بسخط بالغ لتلك الذلة . وكان زعيمهم لويجي دي فيسكي يتوق الى تحرير وطنه من نير دوريا ونير الاسبانيين معاً ، ولتحقيق تلك الغاية دبر مؤامرته التي اشتهرت في التاريخ والشعر معا. فاستقدم اتباعه من أملاكه الشاسعة في الجبال ، وبث الى أنصار الحرية القديمة روح الثورة واستمال اليه



أندريا دوريا

كل الاذهان المضطرمة التي تتوق الى الانقلاب ، ثم استطاع اخيراً ان يحصل على مساعدة فرنسا . وفي ٢ يناير سنة ١٥٤٧ . استولى فجأة على ثغر جنوا ، واسطولها ، وأبوابها ، وقتل جانتينو دوريا وهو يحاول تهدئة الهياج،وفر أندريا دوريا وكان يومئذ شيخاً متهدماً. وتمت الثورة . ولكن حدث حادث مدهش في نفس اليوم فان لويجي دي فيسكي زعيم الثورة ومدبر دفتها اختفى فجأة ولم يعثر انسان بأثره . والمرجح أنه سقط الى الماء بينما كان يثب من سفينة الى اخرى ولم يره أحد . وجره سلاحه الثقيل الى القاع تواً . عندئذ اضطرب أنصاره وحاروا في أمرهم ، ولم يستطيعوا الاستفادة من

ظفرهم بل اضطروا الى مفاوضة مجلس الحكومة وقنعوا بوعد بالعفو ولكن آل دوريا لم يفوا بوعدهم ، فأعدموا كل من ظفروا به من المتآمرين ، ولم يوفق شعب جنوا الى تحديد سلطان الاقلية الارستقراطية الا بعد ان توفي أندريا دوريا في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٠ . وفي مارس سنة ١٥٧٦ ، وسع مجلس الحكومة ودخله ممثلون جدد من النبلاء . ولكن الارستقراطية لبثت تحافظ على ما بقي لها من امتياز وايثار ، وحاولت اسبانيا مراراً ان تسقط الجمهورية ، ولكن جنوا استطاعت ان تقاومها وان تهزمها في فرصتين

ولم يمض نصف قرن حتى كادت الارستقراطية الجنوية تذهب ضحية مؤامرة كبيرة اخرى . وكان الكتاب الذهبي الذي تسجل فيه الاسر النبيلة التي يحق لها ان تجلس في كراسي الحكم يشمل مائة وسبعين اسرة فقط ، في حين ان ليجوريا وحدها كانت تضم أكثر من أربعمائة اسرة نبيلة ، من ذوات الالقاب والاقطاعات والثروة ، ولكنها مبعدة عن كراسي الحكم . وكان زعيم هؤلاء النبلاء الساخطين يوليوس قيصر فاكيرو . فالتفوا حوله واتمروا معه على انتزاع تلك السلطة التي حرموا منها دون حق . وكان فاكيرو تاجراً وافر الغنى ، يعيش في بذخ فياض ، ويسير في ركبه دائما جمع من المغامرين . وكان اذا انسان جرؤ على اغضابه مزقته خناجر القتلة من اتباعه في الحال ، وافلت القتلة من العقاب لفعل الوعيد والتهديد في الشهود والقضاة . فاتفقت كل الاسر الناقمة على ان تضم المغامرين من اتباعها الى بطانة فاكيرو . واعتزم المتآمرون ان يهاجموا القصر العام ، وان يقتلوا كل الاسر القديمة . ويقيموا

حكومة جديدة تحت حماية الدوق دي سافويا . ولكن المؤامرة اكتشفت ليلة اليوم الذي حدد للتنفيذ وهو أول ابريل سنة ١٦٢٨، فقبض على فاكيرو وجماعة من زملائه وحوكموا واعدموا

١١ ـ وكانت البندقية أعرق الدول الايطالية في النظم الجمهورية وأقواها وأغناها في نفس الوقت . وكانت حكوماتها أكثر استقراراً وتماسكا ، وأشد احتراما للحريات والحقوق العامة . ولذا فانها لم تشهد كثيراً من المؤامرات السياسية الشعبية . ولكن الجمهورية التالدة كادت تذهب ضحية المؤامرة في حادثتين هما أشهر المؤامرات السياسية التي وقعت في البندقية :

الاولى « مؤامرة مارينو فاليرو » . ولم تكن مؤامرة شعبية . ولكنها مؤامرة زعيم ناهض ، ورئيس حكومة يريد ان يستأثر بالحريات والسلطات العامة . وكان فاليرو سيداً ، وجنديا قديراً من أهل زارا التي كانت خاضعة يومئذ للبندقية ، ففي سنة ١٣٤٦ هاجم المجريون زارا وحاولوا اقتحامها ، فظهر فاليرو عندئذ في طليعة المدافعين عن الوطن ، وانتصر على العدو المغير انتصاراً باهراً وطبق صيته أرجاء الجمهورية . وفي سنة ١٣٥٤ رشح لمنصب الرياسة (الدوجي) ، وانتخب (دوجا) للبندقية . ويصفه الشاعر بترارك بأنه حكيم مستنير. وهو ما لم تثبته الحوادث. لان فاليرو ما كاد يعتلي عرش الرياسة ، حتى فاضت نفسه أطماعا ، وأخذ يتحين الوسائل والفرص للتخلص من رقابة النبلاء والاستئثار بالسلطان المطلق . فائتمر مع جماعة كبيرة من زعماء الشعب للبطش بالنبلاء واهلاكهم . ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها ، فقبض على فاليرو . وهو

يومئذ شيخ في السبعين ، وحوكم ، وأعدم ، وغدا مجلس العشرة (مجلس الحكومة) أقوى منه في أي وقت آخر سنة (١٣٥٥)

والثانية « مؤامرة بدمار » الشهيرة ، وهي مؤامرة دبرها أجنبي لاستلاب حرية البندقية واخضاعها للنير الاجنبي . وكانت أسبانيا في عهد فيليب الثالث يمثلها في ايطاليا ثلاثة من النبلاء الاقوياء الطامعين المتآمرين وهم الدوق بيدرودي توليدو حاكم ميلان ، والدوق دسونا حاكم نابولي . والمركيز دي بدمار سفير اسبانيا في البندقية . وكانت العلائق بين البندقية والبلاط الاسباني يومئذ فاترة تكاد تدنو من العداء الظاهر . ففي سنة ١٦١٨ وضع أولئك السادة مشروعاً لتحطيم جمهورية تقف عثرة في سبيل مطامعهم ، وتناهض منذ بعيد مشروعات اسبانيا في ايطاليا . واتصل بالمركيز دي بدمار جماعة من المغامرين الفرنسيين الذين خدموا الجمهورية ، وظهروا في الاسطول والجيش وأشهرهم زعيم القرصان جاك بيير ، وانتوان جافييه ، وعرضوا عليه خدماتهم ، فحثهم المركيز على أن يحشدوا في صفوفهم كل القتلة واللصوص والمغامرين الذين يقرون على اخلاصهم وشجاعتهم واتفق ان يثب هؤلاء ، لدى اشارة معينة ، بالقصر العام ، فيقتلوا « الدوجي » (رئيس الجمهورية) والشيوخ ، والنبلاء . ثم تسلم المدينة بعد ذلك الى النهب والسلب ، ثم يخفي المتآمرون جرمهم باضرام نار عامة في المدينة. ولكن سر المؤامرة نما الى مجلس الشيوخ (مجلس العشرة) بطريقة لم تعرف . والظاهر ان زعيم القرصان جاك بيير ، قد اخطر المجلس بسرها منذ الساعة الاولى ، وانه سار في تدبيرها بتحريض المجلس أيضاً وذلك اخفاء لمشروع آخر دبره المجلس من جانبه مع

الدوق دسونا يرمي الى انقاذ ايطاليا من النير الاسباني بمساعدة البندقية ، واستعادة استقلالها واثابة الدوق دسونا عن خدماته بعرش نابولي . والظاهر أيضاً ان اتوان جافييه نقل الى المجلس ان المتآمرين يفضلون نهب البندقية على الاشتراك في مشروع مريب كاضرام الثورة في نابولي . كما يلوح فوق ذلك ان الانباء التي كان يقدمها جاك بيير وجافييه لم تكن الا مخادعة واتقاء لرقابة أعضاء مجلس التحقيق . ومع ذلك فقد خاضت حكومة الجمهورية غمار دسائس ومشاريع سرية لم يلق عليها التاريخ ضياء كافياً . وكل ما نعرف هو ان أهل البندقية روعوا ذات صباح برؤية جثث جاك بيير . ورينول . وبولان وغيرهم من الزعماء الفرنسيين معلقة في ساحة سان مارك . وقيل ان عشرات آخرين قد اغرقوا في الترعة الكبرى . ولم تشر الحكومة الى سبب هذا التقتيل بكلمة . ولم توجه أي عتاب الى بلاط اسبانيا وكان مجلس العشرة يريد قبل كل شيء صمتاً يدعمه الارهاب . ولم يكتب عن هذه المأساة الشهيرة سوى تاريخ لسان ريال ظهر في سنة ١٦٧٤ . وتراجيديا لاتواي ظهرت سنة ١٦٨٢ بعنوان « خلاص البندقية » ولم يظهر عنها سوى ذلك شيء من الوثائق الرسمية أو العامة

١٢ — ولم تلبث البندقية وهي الجمهورية الايطالية الوحيدة التي نجت من نير الاجنبي ان دخلت في دور الانحلال . فانضبت مواردها حروبها مع الترك . واضمحلت نظمها . وعفت تجارتها وصناعتها . واعتورها الخور والضعف ولبثت ايطاليا في نفس الوقت موضعاً لمزاعم الاسر والدول المختلفة . ومرتعاً للحروب والدسائس والفوضى حتى

جاء نابوليون بونابرت فافتتح ايطاليا كلها ، وأدمج أطرافها الممزقة في مملكة واحدة . وكان النير أجنبياً أيضاً ، ولكن الفتح الفرنسي كان أول حجر في صرح الوحدة الايطالية . فلما انهارت امبراطورية بونابرت ، مزقت ايطاليا ثانية ، واستولت النمسا على البندقية ، وقامت مملكة سافويا . وأعيدت الدولة البابوية . ولكن دعوة التحرير والوحدة كانت قد نفذت الى جميع أنحاء ايطاليا . وبدأت ايطاليا من ذلك الحين تضطرم بنار الثورة التحريرية وقامت الجمعيات السرية وفي مقدمتها الكربوناري تدبر مشاريع الخلاص. وليس من موضوعنا ان نعني بهذه الهيئات السرية [1] ، وان لم تكن جهودها سوى سلسلة من المؤامرات السياسية ، ويكفي أن نقول هنا ان الكربوناري أدت دوراً عظيماً في حركة التحرير الايطالية ولا سيما في اوائل القرن التاسع عشر ، فدبرت ثورة في نابولي سنة ١٨٢٨ ، ودبرت بعد ذلك عدة ثورات محلية في الولايات البابوية . وكان أثرها يظهر أينما ظهر علم الاستقلال والحرية . ثم اتحدت الكربوناري مع الجمعيات السرية الاخرى التي أنشأها الزعيم ماتسيني ، وعكفت جميعها على العمل لبناء الوحدة والحريات الايطالية

وبذا نختتم الكلام على المؤامرات السياسية في ايطاليا

---

(١) اتينا فى كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية » على تاريخ الكربونارى وغيرها من الجمعيات السرية

الفصل الثاني

المؤامرات السياسية فى فرنسا

(١) نهوض الملوكية الفرنسية (٢) فرانسوا الاول . معركة الامبراطورية . الدوق دى بوربون . الخصومة بينه وبين فرانسوا الاول . مؤامرته . فراره الى ايطاليا . مقتله (٣) هنرى الثانى وكاترين دى مديتشى . نفوذها فى الحكم . آل جيز . خصومتهم لكاترين . الهوجنوت. (٤) فرانسوا الثانى . تغلب آل جيز . سخط الاشراف . مؤامرة امبواز البرنس دى كوندى . فشل المؤامرة ومصرع المتآمرين . الميل الى التسامح (٥) الخصومة الدينية . المجمع الكاثوليكى . الحرب الدينية . مقتل زعماء الهوجنوت. مقتل فرانسوا دى جيز . كاترين والهوجنوت . مؤامرة مو . حصار باريس . معاهدة لونجيمو . العود الى سياسة الاضطهاد . معاهدة سان جرمان (٦) شارل التاسع . تقربه الى الهوجنوت . دسائس كاترين . زواج هنرى دى نافار من مرجريت دى فالوا . المؤامرة الكبرى . القديس بارتلمى . نكبة الهوجنوت . رأيان فى المذبحة (٧) تأهب الهوجنوت للدفاع . هنرى الثالث وسياسته . مسألة الوراثة . حقوق هنرى دى نافار . المجمع الكاثوليكى . الحرب الاهلية . مطامع آل جيز . اغتصابهم للسلطة . ائتمار هنرى الثالث بآل جيز . نكبة آل جيز . وفاة كاترين دى مديتشى . الثورة . مقتل هنرى الثالث . هنرى دى نافار ملكا لفرنسا ، فوزه وجلوسه (٨) الدوق دى بيرون ومؤامراته . مقتل هنرى الرابع (٩) لويس الثالث عشر . الكردينال ريشليه . اضطهاده للاشراف . خروج الهوجنوت . سياسة القمع

العصر الاول

من فرنسوا الاول الى هنري الرابع

١ ـ ابتدأت الملوكية الفرنسية وضيعة جداً ، فلم يحكم آل كابيه في بدء سلطانهم سوى باريس واعمالها . وقلما كان الامراء الاقطاعيون يعترفون لهم بالسيادة ولو بالاسم . غير ان العرش أخذ يبسط نفوذه تدريجياً ، ويعتدي على استقلال الامراء والسادة شيئاً فشيئاً وينتزع أقاليمهم تباعاً . ثم كانت حروب انجلترا في فرنسا عاملاً في تقوية الوحدة الوطنية والسلطة الملكية ، ودفع شارل السابع سلطة العرش الى حدود شاسعة ، ونالت الملكية على يديه من الظفر ما لم تنل على يد أحد من أسلافه. ثم خلفه ولده لويس الحادي عشر فمال على الامراء الاقطاعيين وحطم سلطانهم ، واستولى على بورجونيا وبروفانس ، وشاد للملكية الفرنسية صرحاً منيعاً ، ولفرنسا هيبة باذخة . وهدم نفوذ النبلاء واثرتهم . ثم توفي في سنة ١٤٨٣ ، وأخذت فرنسا منذ عهده تخرج من غمار العصور الوسطى، وتتبوأ مركزها في حوادث اوربا وسياستها

وكانت المعركة التي يستعر لظاها بين العرش وبين النبلاء تارة في الجهر وتارة في الخفاء مبعث كثير من المؤامرات السياسية التي يفيض

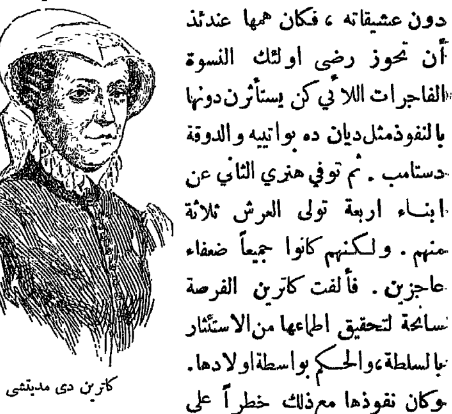
بها تاريخ الملوكية الفرنسية . كذلك كانت الخصومة الدينية مبعث البعض الآخر . ولكن السلطان السياسي كان قبلتها في معظم الاحيان

٢ - وتولى فرانسوا الاول عرش فرنسا في سنة ١٥١٥ ، والعرش الفرنسي يومئذ أشد ما يكون بأساً . واستهل حكمه بافتتاح دوقية ميلان التي افتتحها سلفه لويس الثاني عشر من قبل . وكان للعرش الفرنسي عليها حقوق يدعيها . ثم نشبت بينه وبين شارل الخامس ملك اسبانيا من أجل تاج الدولة الرومانيـة المقدسة تلك المعركة الكبرى التي استغرقت حكم هذين العاهلين في حروب وغزوات مستمرة كانت ايطاليا مسرحها الاول . وكان الفوز لشارل في هـذا النضال المستمر . فاستولى على تاج الامبراطورية . وأجلى الفرنسيين عن ايطاليا . وفي غمار هذه المعارك وقعت أول مؤامرة سياسية شهيرة في التاريخ الفرنسي . وكان لويس الحادي عشر قد زوج ابنته آن (حنه) لبيير دي بوجيه وارث دوقية بوربون على ان تعود املاكه الى العرش اذا لم يعقب ذكراً . فلما توفي عن ابنته الوحيدة سوزانا كان للعرش ان يطالب بضم الدوقية ، ولكن لويس الثاني عشر لم يعن بهذه المطالبة ، بل زوج سوزانا من شارل دي مونبانسييه فغدا بذلك دوقاً لبوربون . وكان الدوق دي بوربون جندياً قديراً ذا عزم وذكاء ، فجاز مراتب الدولة سراعاً حتى رفعه فرانسوا الاول الى منصب الكونيتابل ، وهو يومئذ أعظم مناصب الدولة السياسية والعسكرية . بيد أنه لم يمض الا قليل حتى غدا نفوذ الكونيتابل موضع غيرة الملك . ثم نشب نزاع بين بوربون ولويز دي

سافويا والدة فرانسوا الاول ، لأنه لما توفيت سوزانا عادت لويز الى المطالبة بدوقية بوربون باعتبارها ابنة اخي بيير دي بوجيه . وكان للعرش ان يطالب بها أيضاً استناداً الى العهد الذي أخذه لويس الحادي عشر على الدوق بيير . فلما رأى الكونيتابل دي بوربون أنه يوشك ان ينزع املاكه وان يجرد من القابه ونفوذه لجأ الى الخيانة والتآمر. ففاوض شارل الخامس، وهنري الثامن ملك انجلترا وعرض عليهما ان يسهل لهما غزو فرنسا. وكان شارل الخامس يتوق الى تحطيم قوة فرنسا . وكان هنري الثامن يطمح الى تحقيق أطماع أسلافه في اغتصاب العرش الفرنسي وأما بوربون فكان يريد احياء مملكة آرل القديمة . وعلم فرانسوا الاول بهذه المؤامرة إذ كان يتأهب للمسير بجيشه الى ايطاليا . فأسرع بالعودة الى باريس ولما رأى بوربون افتضاح أمره فر الى الجيش الامبراطوري المعسكر في لومباردو ، وبدلاً من ان يعد شارل بجيشه ، تقدم اليه بخدمات مجرم محكوم عليه. ولكن الامبراطور أحسن لقاءه مع ذلك ، وولاه القيادة . فقاد بوربون جيوش الاعداء ضد مواطنيه، ولبث في خدمة الامبراطور حتى قتل في بدء مهاجمة الجيش الامبراطوري لرومة سنة (١٥٢٦)

٣ ـ ويجب لكي نفهم ما تعاقب بعدئذ على فرنسا من مختلف الدسائس والمؤامرات ان نلم بلمحة من ظروف فرنسا يومئذ ومواقف أسرها وأحزابها المختلفة . خلف فرانسوا الاول ولده هنري الثاني . فتزوج من كاترين دي مديتشي ابنة لورنزو « الافخم » صاحب فيرنزا . وكانت كاترين آية في حياكة هذه الدسائس الشائنة التي كانت

تعتبر يومئذ في ايطاليا ضرباً من السياسة البارعة . ولكنها لم تلق فرصتها اثناء حياة زوجها لأن هنري الثاني كان يهملها ويقصيها دون عشيقاته ، فكان همها عندئذ أن تحوز رضى اولئك النسوة الفاجرات اللاتي كن يستأثرن دونها بالنفوذ مثل ديان ده بواتييه والدوقة دستامب . ثم توفي هنري الثاني عن ابناء اربعة تولى العرش ثلاثة منهم . ولكنهم كانوا جميعاً ضعفاء عاجزين . فألفت كاترين الفرصة سانحة لتحقيق اطماعها من الاستئثار بالسلطة ، والحكم بواسطة اولادها . وكان نفوذها مع ذلك خطراً على



كاترين دي مديتشي

المملكة لأنها كانت تشجع ابناءها على الرذائل والخلال الفاسدة لكي تميت عزائمهم ، وتقصي اهتمامهم . وكان ما أرادت . وكان ذكاؤها في الدس ، وبراعتها في تعرف الطبائع البشرية ، وإقدامها على ارتكاب أية جريمة مهما كانت من الهول والسفالة ، أسلحة ماضية تشق لها كل السبل وتمحى كل العثرات

وكان اشد ما تلقى من المعارضة والمنافسة من أسرة « جيز » الشهيرة . وكان لآل جيز قسط وافر من النفوذ السياسي والعسكري . وأصلهم من اللورين . وفد عميدهم كلود دي جيز مع أبنائه الستة على البلاط الفرنسي ليبحث عن طالع أسرته . فظهر الى الميدان منهما

اثنان هما فرانسوا دي جيز الذي اشتهر بحمايته لمتز وغزوه لكاليه ، وأخوه الذي انتظم في سلك الكهنوت حتى صار كردينالاً للورين ثم وزيراً لهنري الثاني . وكان آل جيز حماة الكثلكة يؤيدون جانب البابوية . وكان الاصلاح الديني (البروتستانتية) قد بزغ عندئذ فجره ، وقام لوثر بثورته ، وتسربت عوامل الخلاف الديني الى معظم انحاء اوربا . وكانت كاترين رغم تعصبها للكثلكة تشد أحياناً بأزر انصار الاصلاح في فرنسا ، وهم الهوجنوت ، لتستعين بهم في نضالها لآل جيز . وكان الاشراف من جهة اخرى ينقمون من آل جيز سلطتهم ونفوذهم ، ويلتفون حول اسرة بوربون . وكان انتوان دي بوربون أقرب وارث للعرش بعد ابناء هنري الثاني ، فتزوج من جنة ملكة نافار واعتنق البروتستانتية . ولكنه كان ضعيف العزم والارادة، فتولى زعامة الحزب المعارض أخوه الصغير لوي دي كوندي . وكان أشد أنصار آل بوربون ، أسرة شاتيون وعميدها جسبار دي شاتيون او الاميرال دي كوليني بطل الهوجنوت . كذلك كانت عمومة آل شاتيون ، وهم آل مونمرانسي يعارضون في استئثار آل جيز بالسلطة رغم اعتناقهم للمبادىء المحافظة

٤ ــ فلما توفي هنري الثاني خلفه ولده فرانسوا الثاني صبياً وسقط في قبضة آل جيز أعمام زوجته الفتية الحسناء ماري استوارت . وتولى الكردينال دي لورين الحكم ، وتولى أخوه هنري دي جيز قيادة الجيش

وكانت جهود آل جيز ترمي الى غايتين الاولى إجلاس ماري استوارت ، وهي ملكة ايكوسيا ، على عرش انجلترا مكان الملكة

البزابيث ، والثانية سحق الهوجنوت في فرنسا ، ولكن عقبات كثيرة كانت تحول دون ذلك ، منها : تضعضع موارد الدولة ، واجماع الاشراف على بغض آل جيز باعتبارهم أجانب مغتصبين

وكانت أول محاولة قام بها الاشراف وسوادهم من الهوجنوت لاسقاط آل جيز مؤامرة تعرف بمؤامرة امبواز دبرها جماعة من كبار النبلاء بوحي كوندي لاختطاف فرانسوا الثاني وانقاذه من اسر آل جيز أثناء وجوده في مصيف البلاط في مدينة « بلوا » واعتزم المتآمرون تنفيذها رغم اعتراض يوحنا كالفن زعيم المصلحين عليها . وكان الزعيم مغامر جريء من سادة بريجور يدعى لارينودي ولكن كوندي كان روح المؤامرة وذهنها المفكر . وكانت الحرية الدينية غاية المؤامرة قبل كل شيء . فاعتزم المتآمرون أن يسيروا مسلحين الى « بلوا » حيث كان البلاط في ١٥ مارس سنة ١٥٦٠ ولكن السر نما الى آل جيز في الوقت المناسب بواسطة محام باريزي يدعى افنيل ، فامتنع آل جيز مع الملك في حصن امبواز ، وهوجم لارينودي اثناء اهبته فمات مدافعاً عن نفسه وهوجمت شراذم المتآمرين ، وهي تزحف على امبواز وأرغمت على التسليم (١٧ مارس) ومات كثيرون فوق نطع الجلاد ، وقبض على كوندي نفسه بتهمة اشتراكه في المؤامرة وحوكم ولم يفلت من العقوبة الا بعد ان اقسم يميناً رسمية بأنه لم يشترك في المؤامرة

وهكذا أخفقت المؤامرة واشتد بأس آل جيز عن ذي قبل ، فعمدوا الى سياسة القمع والمطاردة . ولكن فرانسوا الثاني توفي

فجأة في ديسمبر سنة ١٥٦٠ ، فانهارت تدابير آل جيز وتنفس الهوجنوت الصعداء

وكانت هذه المؤامرة رغم اخفاقها سبباً في ارتياع الكردينال فال الى الاعتدال نوعاً ، وعين لوبيتال زعيم المعتدلين وزيراً للمالية ولكن المسألة الدينية شغلت رجال الحكم والاحزاب حيناً ، ثم انتهت بصدور قرار في سنة ١٥٦٢ يؤيد بعض الشيء سياسة الحرية الدينية التي كان يؤثرها لوبيتال ، وفيه أبيحت العبادة العلنية للهوجنوت من ابناء الاسر الشريفة ، وفي القرى والمدن غير المسورة

٥ ـ ولكن هذا القرار الذي لم يسبغ على الهوجنوت سوى حرية نسبية ولم يقصد به الا تخفيف اسباب الجفاء والخصومة اعتبر جريمة في نظر الكثلكة ، فهب انجاد الدين القديم لحمايته ، وأنشأوا في الحال للذود عنه جماعة موحدة تعرف « بالمجمع » بزعامة مونمورانسي والدوق دي جيز والمارشال سان اندريه ، واستمالوا اليهم انتوان دي نافار . ونشبت الحرب بين الفريقين في نورماندي فقتل انتوان دي نافار ، وسان اندريه وكوندي ، ومونمورانسي . وتولى الاميرال كوليني قيادة الهوجنوت بعد مقتل زعيمهم كوندي ، وتقهقر الى شاطىء اللوار ، فتقدم الدوق فرانسوا دي جيز لحصار اورليان مركز اعدائه ، فدسوا عليه متعصباً يدعى بولترو اغتاله في ١٨ فبراير سنة ١٥٦٣ ، وبقتله انتهت الحرب وعقد الطرفان صلح امبواز ، وبه نال الهوجنوت الحرية الدينية بقيود وشروط معينة

وكان مقتل زعماء الاحزاب، عاملا في ازدياد سلطة كاترين . وكانت تتوق في أعماق نفسها الى سحق اولئك الهوجنوت الذين

يناوئون سلطانها . ولكنها آثرت الدهاء على العنف . ومضت في تنفيذ صلح امبواز رغم تحريضات اسبانيا . وكان الاسبان يومئذ يتبعون في الاراضي السفلى (هولنده والباجيك) سياسة دموية ، ويحصدون اعناق البروتستانت آلافا مؤلفة. وكان الهوجنوت يرقبون هذه السياسة بجزع ، ويرتابون من جهة اخرى في صدق نيات الملكة الوالدة (كاترين) ويرون ان سلامتهم تتوقف على استمرار الذود والجهاد . ففي سنة ١٥٦٧ دبروا مؤامرة جديدة لاختطاف الملك شارل التاسع في « مو » لكي يرغموا الحكومة على تغييرسياستها وطرد الجنود السويسرية. وتأهبوا لتنفيذ خطتهم بكل حذر لولا ان استدرج زعيمهم كوندي الاصغر الى مفاوضات عقيمة استطاعت الحكومة خلالها ان تحشد الفرق السويسرية وان ينتقل البلاط من « مو » الى باريس . ولكن كوندي زحف على باريس وحاصرها ، ونشبت بين الفريقين معارك جديدة انتهت بمعاهدة لونجيمو التي لم تكن سوى تجديد لصلح امبواز

بيد ان الحكومة لم تعقد الصلح الا مكرهة . وكانت كاترين دي مديتشي ترى مذ رأت اشتداد بأس الهوجنوت سياسة الاعتدال خطراً على العرش . فانضمت الى تحالف الدول الكاثوليكية الذي انشيء لاخماد البروتستانتية ، وصدر قرار ملكي ينقض المعاهدة ويحظر على الهوجنوت اقامة الشعائر ، وحاولت الحكومة القبض على كوندي وكوليني ففرا الى روشل . ولم يمض عام حتى اضطرمت نار الحرب الدينية الثالثة . وليس من موضوعنا ان نتتبع أدوار هذه المعارك الدموية ، ويكفي ان نقول أنها انتهت في أغسطس

سنة ١٥٧٠ بمعاهدة سان جرمان وبها استعاد الهوجنوت الحرية الدينية وعدة معاقل لحمايتهم هي : لاروشـل وموتوبان وكونياك ولاشارتيه

٦ ـ وعلى أثر ذلك حدث انقلاب عظيم في سياسة البلاط[٢]، واعتزم شارل التاسع ان يرفع نير والدته وان يتولى مقاليد الحكم بنفسه . فقطع علائقه مع اسبانيا ، وبدأ بمفاوضة انجلترا والاراضي السفلى ، وابتعد عن آل جيز ، ومال الى حزب الاعتدال ، وتقرب الى الهوجنوت بخطبة اخته الصغرى مرجريت لهنري دي نافار ، فقوي بذلك نفوذ كوليني في البلاط وأخذ يسير شارل التاسع طبقاً لنصحه وآرائه

ولكن كاترين دي مديتشي لم تستسلم الى الهزيمة . ورأت أزاء ذلك الخطر الذي ينذر بسحق سلطتها وقلب سياستها ، ان تلجأ لدرئه الى أروع الوسائل ، فاستمالت اليها ولدها الدوق دانجو ولي العهد ، وحرضته على اغتيال كوليني ، فأطلق القتلة النار عليه فجرحوه فقط ، فلم يزد الا نفوذاً وقوة . وكان الهوجنوت يتأهبون عندئذ للاحتفال بزفاف هنري دي نافار. فاحتشدوا في باريس جموعاً غفيرة ، وقصد سادتهم الى العاصمة من جميع الانحاء . والشعب الباريزي المتعصب يرقب أهبتهم وقدومهم غاضباً ساخطاً . وألفت كاترين طالعها في تلك الفرصة الحاسمة ، وعولت على انقاذ نفسها وانقاذ العرش بتدبير مذبحـة هائلة يزهق فيها كوليني وسادة الهوجنوت قاطبة وما زالت تحث ولدها الملك بالتضرع والوعيد حتى اضطر الى اصدار الاوامر الخاصة بذلك . وكان قد حدد للزفاف

ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ ، وهي ليلة القديس بارتلمي ، وحدد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم الشنعاء نفس الليلة . ففي منتصف الليل أعطى ناقوس كنيسة سان جرمان لكسروا الاشارة المتفق عليها فوثب القتلة من كل ناحية ، وفي الحال قتل كوليني وأعضاء أسرته في كمين نظمه هنري دي جيز ، وفوجيء الهوجنوت مفاجأة رائعة ، واقتحمت كل المنازل والفنادق التي يأوون اليها ، وجرت دماؤهم غزيرة في جميع شوارع باريس ، ولم يفلت منهم الا افراد قلائل منهم هنري دي نافار ، الذي أوته عروسه الى جناحها في اللوفر ، وفوجيء الهوجنوت في الاقاليم أيضاً في كل مدينة وقرية وقتل نيف وعشرون الفاً من الهوجنوت في تلك المذبحة الرائعة التي تسمى « بالقديس بارتلمي » أو « أصباح باريس »

والمؤرخين في تلك المؤامرة الهائلة رأيان : فيرى بعضهم أنها دبرت قبل وقوعها بمدة طويلة وأنها نتيجة لنصائح الدوق آلفا حاكم الاراضي السفلى ، ويرى البعض الآخر أنها كانت بنت ساعتها وان كاترين لم تكن تتأثر بعامل التعصب الديني وانما كانت تتأثر قبل كل شيء بأطماعها الشخصية ومصالح اسرتها ، وانها استطاعت بدهائها وذكائها ان تستفيد لتحقيق سيادتها من ظرف قلما يسنح مثله ، وهو احتشاد الهوجنوت امراؤهم وسادتهم في باريس بين القوات الملكية والشعب الباريزي الساخط . والقرائن كلها تدل بأن المذبحة كانت حادثاً فجائياً تمخضت عنه الظروف التي أحاطت به

٧ ـ وعلى أثر تلك الخيانة الشائنة نهض باقي الهوجنوت للدفاع عن أنفسهم ولكن دون أمل في النجاح لما تولاهم من الضعف لفقد زعمائهم وانجادهم ، وتأهبت الحكومة من جانبها لاخضاعهم وسحقهم وسيرت جيوشها الى معاقلهم . ولكن انصار الاعتدال برزوا الى الميدان وجاهروا بضرورة الحرية الدينية والتفوا حول آل مونمورانسي الذين ورثوا بغض آل جيز عن أبيهم رغم كونهم من الكاثوليك ، واشتد الخلاف في الرأي وتحرج مركز الحكومة ورأت انها لا تستطيع المضي في سياستها الحمقاء ، فأصدرت من جديد قراراً بالحرية الدينية

وتوفي شارل التاسع فريسة الآلام المعنوية التي أصابته من جراء المذبحة ومناظرها المروعة ، فخلفه أخوه هنري الثالث في مايو سنة ١٥٧٤ وسرعان ما سقط الملك الجديد صريع نفوذ والدته الداهية ، فعاد الى سياسة الارهاق الديني ، وعاد الهوجنوت وحلفاؤهم الى الجهاد حتى أرغمت الحكومة على اصدار قرار جديد يؤكد الحرية الدينية في سنة ١٥٧٥

وسادت السكينة اعواماً حتى وقع حادث جديد أيقظ الفتنة من رقادها . وذلك ان فرانسوا دوق دانجو ولي العهد توفي في يونيه سنة ١٥٨٤ ، ولم يك ثمة ولد لهنري الثالث ، فكانت أسرة فالوا على وشك الانقراض ، وكان وارث العرش الفرنسي طبقاً لقانون الوراثة هنري دي بوربون ملك النافار وبيارن . ولكن هنري دي نافار كان بروتستانتياً ، وكان أبغض ما يثير الكاثوليك ان يتولى العرش كافر وكالفيني . وهنا عاد آل جيز الى التآمر والدس ، وأنشأوا « المجمع

الكاثوليكي » عملاً بوحي السفير الاسباني . وكان الغرض من انشائه سحق البروتستانتية في فرنسا وأقصاء هنري دي نافار عن العرش وانضم هنري الثالث الى المجمع تبعاً لنصح والدته . وعادت الحرب بين الكاثوليك والهوجنوت ، فانتصر الهوجنوت بادىء بدء ، ولكنهم هزموا بعد ذلك . وطارت شهرة المجمع في أنحاء فرنسا ، وهتف الشعب لهنري دي جيز ، والتف حوله دون الملك . وقد كان آل جيز يتطلعون الى غاية أبعد من حماية الكثلكة هي العرش الفرنسي ذاته ، ويتخذون من حماية العرش والكثلكة قناعاً يسترون به مطامعهم . فلما انتصروا على الهوجنوت نصرهم الاخير والتف حولهم الشعب الباريزي ، كشفوا طرفاً من القناع ، فجردوا الحرس الملكي من سلاحه ، وحرضوا الباريزيين على إقامة المتاريس في شوارع المدينة وحول اللوفر ، فبادر هنري الثالث وكاترين دي مديتشي بالفرار الى « بلوا » وهنالك لحق هنري دي جيز بالملك ظافراً متوعداً ، فلم ير هنري الثالث سبيلاً للنجاة الا التآمر والحيلة. فدبر مؤامرة لاغتيال آل جيز . ودعاهم الى حفلة شائقة أقامها في جناحه الخاص في قصر « بلوا » . فسقط هنري دي جيز صريع خناجر القتلة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٥٨٨ ، ثم قبض على أخيه الكردينال وأعدم ، ففقدت الاسرة القوية الباغية بذلك سلطانها ونفوذها ، وتوفيت ايضاً كاترين دي مديتشي بعد ذلك بأسابيع فقط في « بلوا » فاختفت بوفاتها شخصية أثيمة غدارة لبثت دسائسها ومؤامراتها الشائنة أعواماً طويلة أعظم عامل في إثارة الفتن وإهراق الدماء

وثار الشعب الباريزي على أثر مقتل الدوق دي جيز . ونشبت الحرب بين الملك والمجمع . فالتجأ هنري الثالث الى محالفة هنري دي نافار . وزحف الملكان على باريس . ولكن راهباً يدعى جاك كليمان أغمد خنجره في صدر هنري الثالث فتوفي قتيلا في ١٠ أغسطس سنة ١٥٨٩ ، وانقرضت بموته اسرة فالوا التي حكمت فرنسا منذ سنة ١٣٢٨ م ، واضحى الوارث الشرعي للعرش الفرنسي هنري دي نافار الذي يرجع نسبه الى ولد لويس التاسع

وفي الحال نادى هنري دي نافار بنفسه ملكاً باسم هنري الرابع ولكنه كان ملكاً بلا عرش . وكان عليه ان يغزو مملكة باسرها . وكان الكاثوليك جميعاً يبغضونه وكان المجمع سيداً في باريس . بيد انه نهض يشق طريقه بعزم ، وسار لقتال خصومه ، وكاد يظفر لولا تدخل اسبانيا وقدوم القوات الاسبانية لانجاد المجمع . ولكن التفرق دب أخيراً الى الكاثوليك. واعتنق هنري دي نافار نفسه الكثلكة فاخذ الشعب يتحول عن المجمع ويخشى نير الاجانب . وفي سنة ١٥٩٤ دخل هنري الرابع باريس ظافراً وتربع على العرش الفرنسي ودخلت فرنسا بذلك في عهد جديد من السكينة والسلام .

٨ — وقضى هنري الرابع أعوامه الاولى في اصلاح الشئون التي عصفت بها حروب أهلية استطالت اربعين عاماً . ولكن عهده الهادىء الرغد لم يخل من سلسلة من المؤامرات دبرها صديقه القديم بيرون . وهو ابن الماريشال بيرون التحق بخدمة هنري الرابع منذ سنة ٨٩ ، وخدمه أيام محنه وحروبه باخلاص وشجاعة ولا سيما في حصار باريس وحصار روان ، فلما فاز هنري الرابع بغايته وابتسم

له الدهر ، اغدق على صديقه القديم عطفه ونعمه ورفعه أميراً لفرنسا سنة ٩٢ ، ثم ماريشالاً ، ثم عينه حاكماً لبورغونيا . ثم بعث به سفيراً الى بلاط انجلترا . وكان بيرون جريئاً الى حد المخاطرة ، ولكن متكبراً نزق الطباع ، لا يدين بشيء من مبادىء الاخلاق . وكان يعتقد انه لم يثب عن خدماته الكبرى ، وان هنري الرابع يقصر في منحه ما يريد من الاموال العامة . وسرعان ما تحول من الغضب والتذمر الى الجريمة ، فاتصل بدعاة اسبانيا ، ووعد ملكها بمؤازرته ولم يكن قد تخلى عن مزاعمه بالنسبة لفرنسا . وهكذا ائتمر بيرون بحياة المحسن اليه ، ونما سر هذه المؤامرة الى هنري الرابع ، فغلب بره على نقمته وآثر الصفح عن صديقه وخادمه القديم . ولكن بيرون لم يقف عند هذا الحد ، بل عاد الى الدس والتآمر ، ودبر مع دعاة أسبانيا مؤامرة واسعة النطاق لاغتيال هنري الرابع ، ودخول الجنود الاسبانية الى فرنسا . فافتضحت هذه المؤامرة الثانية على يد كاتم سره لافان الذي قدم الى الملك كل الادلة المادية على جرم سيده . وأراد هنري الرابع ان يعفو تلك المرة أيضاً بشرط ان يعترف الماريشال ، ولكن بيرون صمم على الانكار ، فسارت العدالة سيرها ، وقبض على بيرون ، وحوكم ، وقضي باعدامه ، واعدم بقطع الرأس في ساحة الباستيل في ٣١ يولية سنة ١٦٠٢

وفي ١٤ يناير سنة ١٦١٠ زهق هنري الرابع صريع خنجر فرانسوا رافياك . ولكن جريمة رافياك كانت نزعة فردية دينية ولم تجثم وراءها أية مؤامرة أو محاولة سياسية

العصر الثاني

من لويس الثالث عشر الى الوصاية

٩ ـ وخلف هنري الرابع ، ولده لويس الثالث عشر ، وكان ملكا ضعيف العزم والارادة ، مضطرب الخلال . وكان وزيره الاشهر الكردينال ريشليه كل شيء في ادارة الشئون داخلية كانت أو خارجية . وكان ريشليه رجلا وافر الدهاء والعزم، صارم المبادىء، يعمل لتوطيد السلطة المركزية بكل ما وسعت خلاله الباهرة من مضاء وبراعة . وكانت الفتن الدينية والسياسية تعصف بسلام فرنسا يوم تولى ذلك السياسي الكبير حكم فرنسا ، ودسائس الاشراف تضطرم حول العرش للافتئات على سلطته . فنشط الكردينال الى اخماد الفتن الدينية ، ومال على الاشراف فحطم نفوذهم ، وأذل عزتهم . وكان لويس الثالث عشر بالرغم من تضاؤل سلطته أمام سلطة وزيره



لويس الثالث عشر

الكبير يؤيده في سياسته ، ويصغي الى نصحه، ويعتمد عليه في سحق الخارجين عليه . وكان الهوجنوت والاشراف كلما اشتد ريشليه في ارهاقهم والضغط عليهم ، وكلما آنسوا من الملك استسلاماً لوزيره، كلما ازدادوا نشاطاً في تدبير الدسائس والمؤامرات سعياً الى الانتقام واسترداد ما فقدوا من سلطة ونفوذ



الكردينال ريشليه

وكان الهوجنوت أول الخارجين على الكردينال ، ففي سنة ١٦٢٥ ، أقامت الحكومة حصناً ملكياً بالقرب من روشل معقل الهوجنوت فذعر الهوجنوت لذلك ، وثاروا بزعامة كبيرين منهما هما سوبيز ورهان. ونشبت بين القوات الملكية والهوجنوت حرب بحرية ، هزم فيها الهوجنوت ، وعقد الصلح . ولكن الكردينال رأى عندئذ وجوب تطهير البلاد قبل كل شيء من أسباب الفتن الداخلية ، وجمع كلمتها

قبل المغامرة بأية جهود خارجية ، ومن ثم كانت صرامته في مطاردة الهوجنوت والنبلاء . ففي سنة ١٦٢٦ صدرت عدة قرارات ملكية بحظر المبارزة وهدم الحصون التي ليست على الحدود، وأمثالها مما كان يعتبر الى ذلك العهد من حقوق النبلاء وامتيازاتهم . فكانت هذه السياسة نذير الحرب الخفية التي شهرها النبلاء على الكردينال واستطالت كل حكمه

وكان محور هذه الدسائس والمؤامرات بادىء بدء جاستون دانجو أخو الملك لويس الثالث عشر ، وكان أميراً متهتكا ، فاسد الخلال ، عاجز الرأي . فألفى فيه النبلاء آلة صالحة لتدبير دسائسهم . وكان يحقد على الكردينال لأنه حاول أن يرغمه على زواج المدموازيل دي مونبانسييه ، فأبى ، وغضب الكردينال عليه أيضاً، وكان يحرضه على ذلك الاباء الكونت دي شاليه ، وهو فتى من أخصاء الملك يبغض الكردينال من صميم قلبه ، ولا يترك فرصة للوشاية به. وكان امراء البلاط وأميراته وسادته وسيداته جميعاً ينقمون من الكردينال صرامته ، وتجريده اياهم من كل نفوذ وسلطة ، ويعملون على اسقاطه بكل وسيلة . وكانت أول محاولة خطيرة بذلت في ذلك السبيل ، مؤامرة واسعة النطاق دبرت في القصر ، كان من بين زعمائها جاستون دانجو ، والدوق دي فندوم وأخوه وهما ولدان دعيان لهنري الرابع ، والكونت دي شاليه . ويقال ان الملكة حنة النمسوية (دوتريش) زوج لويس الثالث عشر كانت أيضاً من المدبرين لها . وكانت غاية المتآمرين هي قتل الكردينال ، وخلع لويس الثالث عشر ، واجلاس أخيه جاستون على العرش . ولكن

الكردينال كان يقظاً ساهراً ، يرقب خصومه بدقه ، فافتضحت المؤامرة . وأصر الكردينال على معاقبة المتآمرين ، فقبض على شاليه وحوكم واعدم . ونفى الدوق دي فندوم وجماعة كبيرة من النبلاء ، أما جاستون دانجو فعفي عنه لانه اعترف بكل شيء ، ولكنه ارغم على تزوج المدموازيل دى مونبانسييه ، ورفع دوقاً لاورليان ، ولم تنج الملكة الفتاة من لوم الكردينال ومر تأنيبه

وهكذا سحق الكردينال خصومه من النبلاء ورجال القصر . ولكن أعداءه على ضعفهم وتشتتهم لم ينقطعوا عن الكيد له ، ولم ينقطع هو عن مراقبتهم واذلالهم ، وقدر للوزير الكبير أن ينال على أولئك الخصوم قبيل وفاته ظفرين متواليين

١٠ ـ ففي سنة ١٦٤١ نظم الكونت دي سواسون ، وهو من النبلاء المنفيين بمؤازرة اسبانيا ، محاولة جديدة لأثارة الثورة على الكردينال واسقاطه ، فاجتمع حوله نفر كبير من زملائه النبلاء المنفيين واتباعهم ، وزحف الخوارج على قلعة سيدان وهزموا القوة الملكية التي ارسلت لقتالهم . ولكن الكونت دي سواسون قتل اثناء مطاردته لخصومه . فاضطر اشياعه الى القاء السلاح وطلب العفو

بيد انه لم يمض على اخفاق تلك المحاولة بضعة اشهر ، حتى دبرت في البلاط مؤامرة كبيرة هي اخطر ما لقي الكردينال من كفاح اعدائه

وبطل هذه المأساة الشهيرة [١] في تاريخ المؤامرة هو المركيز

---

(١) فصلنا تاريخ هذه المؤامرة الشهيرة فى فصل مسهب فى كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى »

دي سنك مارس . وهو فتى عريق الحسب تولى ابوه المركيز ديفيات عدة مناصب كبيرة في حكومة لويس الثالث عشر ، وبلغ مرتبة الماريشال . وكان الكردينال يحبه ويؤثره ، فلما توفي تولى الكردينال حماية اولاده ورعايتهم ، فعين سنك مارس ضابطاً في الحرس الملكي ولم يبلغ الثامنة عشر حتى كان رئيساً لخزائن الثياب الملكية . ولم يلبث لويس الثالث عشر ان قدر مواهب ذلك الفتى وصفاته الخلابة فمال اليه واغدق عطفه عليه حتى غدا جليسه ، وخله الذي لا يستطيع صبراً عنه . ولم يمض الا قليل حتى اسندت اليه وظيفة « كبير الركائب الملكية » وهي أهم مناصب البلاط

فكانت هذه الحظوة الكبرى ، وذلك الفوز الباهر داعيين الى غرور سنك مارس وزهوه ، اذ يجد نفسه وهو دون العشرين اعظم رجال البلاط الفرنسي ، واشدهم نفوذاً


الاميرة مارى دى جونزاج

في ذلك الحين ظهرت في البلاط الاميرة ماري دي جونزاج ابنة الدوق دي نفرومانتوا فاحبها سنك مارس وتقرب اليها . وكانت ماري دي جونزاج فتاة رائعة الحسن ، وافرة الذكاء والظرف ، ولكن شديدة الاطماع ، لا تضحي

في سبيل عواطفها ذرة من امانيها . فلما تقدم اليها سنك مارس وكاشفها بحبه ، لم ترده ، ولكن اشارت اليه في رقة ولطف انها لا تستطيع الاقتران به الا اذا رفعه الملك الى مرتبة الامارة . فالتجأ سنك مارس الى الكردينال حاميه وصديق والده القديم ، وطلب اليه ان يساعده على نيل أمنيته ، فرده الكردينال بغلظة ، وأفهمه انه سيد بسيط لم يرتفع الا بالحظوة ، وان أطماعه وأمانيه ليست الا ضرباً من الحماقة . فاسر سنك مارس خشونة الكردينال ، وانقلب من ذلك اليوم الى خصومته . وراب الكردينال أيضاً نفوذه الكبير لدى الملك ، فعمل على تقويضه فذكا حقد المركيز على الكردينال ، ولبث يترقب الفرص للانتقام

وغدا سنك مارس عندئذ محور الدسائس التي تدبر لسحق ريشلييه ، وكان يحفز بغضه ويشجعه على الانتقام سيد أحدب من سادة البلاط يدعى المركيز دي فنتراي . فلم يلبث ان اعتزم سنك مارس أمره ، وقرر الائتمار بحياة المحسن اليه

١١ ــ وكان الدوق دي بويون صاحب سيدان قد اشترك في المحاولة التي دبرها الكونت دي سواسون . ولكن الكردينال عفا عنه بعد ان قتل سواسون حتى لا تسقط سيدان في يد الاسبان . فاتصل سنك مارس بالدوق دي بويون بواسطة صديقه دي تو المستشار بالبرلمان . وكان دي تو وهو ولد المؤرخ دي تو ، من أذكى سادة عصره وأفصحهم فقام بالمهمة خير قيام ، ورحب الدوق دي بويون بصداقة سنك مارس . ثم تقابلا وتفاهما . وتفاهم سنك مارس أيضاً مع الدوق دورليان الذي كان يرحب بكل فرصة للانتقام من

الكردينال . ثم اجتمع المتآمرون جميعاً ، وقرروا اعدام الكردينال واسقاط حكومته ونظمه ، ومخاطبة البلاط الاسباني لتحقيق هذه الغاية . ووضعوا مشروع معاهدة مع أسبانيا حمله المركيز فونتراي الى مدريدليوقعه من رئيس حكومتها الدوق أوليفاريس . وتعهد الدوق دي بويون ان يدخل الاسبان من سيدان ، والدوق دورليان بقيادة الجنود المتحدة . وتعهد ملك أسبانيا بان يمد المتآمرين بالرجال والخيل والاموال . وكان لويس الثالث عشر يتهيأ في ذلك الحين للسفر الى الجنوب ليشرف على حصار بربنيان فغادر سان جرمان في ٢٥ يناير سنة ١٦٤٢ . وكان الكردينال مريضاً ولكنه سافر مع الملك بالرغم من ذلك محمولاً فوق محفة ، ثم تخلف في ناربون لاشتداد مرضه . وكان ذلك الظرف داعياً الى ارتياع أنصار الكردينال ، فقد خشوا ان ينتهي نفوذ سنك مارس باسقاطه وادالة دولتهم . واعتقد سنك مارس انه قرب من غايته ، فازداد غروراً وغطرسة وخفة حتى انفض عنه كثير من أنصاره ومحبيه وتغير عليه الملك . وكانت عين الكردينال ساهرة أيضاً رغم مرضه وتخلفه ، فكان يرقب حركات خصمه وسكناته . وما لبث ان نما اليه خبر المعاهدة السرية بطريقة غامضة . فادرك بثاقب فكره ان سنك مارس ليس بعيداً عنها ، واشتبه أيضاً في الدوق دورليان والدوق دي بويون . وسرعان ما ظفر بصورة من المعاهدة ، وقدمها الى لويس الثالث عشر . ولما شعر المتآمرون بافتضاح أمرهم فر فونتراي الى انجلترا ، وقبض على سنك مارس ودي تو . أما الدوق دي بويون فاخطر في الوقت المناسب واختفى . وارتاع الدوق دورليان فتقدم الى الكردينال

نادماً مستغفراً ، وقدم اليه اعترافاً مكتوباً يتضمن تفاصيل المؤامرة وما قام به كل من المتآمرين . وافتدى حريته بتلك الخيانة ، وافتدى الدوق بوبون نفسه باستقلاله ، فتنازل عن سيدان للملك ، وغادرها ليعيش مع أسرته في بعض الضياع

وقرر الكردينال محاكمة المتهمين في مدينة ليون ، وانتدب لذلك محكمة برياسة المستشار سجييه . ثم سافر الكردينال الى ليون . وبدأت تلك المحاكمة الشهيرة في ٤ سبتمبر سنة ١٦٤٢ . واستعان الكردينال في جمع الادلة برجل من صنائعه يدعى لوباردمون . فاحتال على سنك مارس حتى حمله على الاعتراف . واصدرت المحكمة حكمها في ١٢ سبتمبر سنة ١٦٤٢ باعدام المتهمين . فاعدما في نفس اليوم عند مغيب الشمس في مدينة ليون . وورد على الكردينال عقب ذلك نبأ سقوط بربنيان ، فكتب الى لويس الثالث عشر عبارته المشهورة « مولاي : لقد مات اعداؤك ، وملكت بربنيان » . بيد انه كان آخر فوز للوزير الاشهر ، فان المرض اشتد عليه عندئذ ، وتوفي في ٤ ديسمبر سنة ١٦٤٢ بعد ان شاد لفرنسا صرحاً باذخاً من العظمة والسلطان

١٢ — ولم تزدهر المؤامرات السياسية في عهد لويس الرابع عشر ، ففيه خمدت الاضطرابات الدينية حيناً ، واستحالت دسائس البلاط الى مكائد غرامية وخصومات شخصية ضئيلة ، والتف النبلاء حول الملك . وانباء هذا العصر حافلة بسير هذه المكائد . ولكنه لم يخل أيضاً من المؤامرات السياسية ، وأشهرها مؤامرة الشفاليه دي روهان . وكانت أسرة روهان من أعرق بيوتات بريتانيا ، يتصل

حسبها مباشرة بملوك بريتانيا القدماء . وقد أنجبت كثيراً من الكبراء منذ عصر آل فالوا ، وكان لها حظ كبير من الزعامة السياسية والرياسة الاجتماعية ، وكان من أعلامها الشفالييه دي روهان ، ولد لويس دي روهان امير جمنيه ، تدرج في المناصب حتى رقي سنة ١٦٥٦ الى وظيفة كبير الصيد ، ونال وسام الكولونل ، وظهر في الحروب الاسبانية والهولندية ، وكان من أقوى وأجمل سادة عصره ، بيد انه كان خليعاً ، مجترئاً ، قلما يحفل بمبادىء الاخلاق والذمة ، وكانت



لويس الرابع عشر

له حوادث ومخاطرات غرامية كثيرة أثارت عليه سخط البلاط والسادة ، منها اشتراكه في تدبير فرار هورتنس دي مانشيني دوقة مازاران خليلة لويس الرابع عشر . وكان هذا الحادث نذير سقوطه ، فان الملك سخط عليه ، وارغمه على الاستقالة من منصبه ، وكان فوق ذلك سفيهاً يبدد الاموال دون حساب حتى أثقله الدين ، واخذ شبح الفقر يروعه ، ونبذته اسرته ، وتخلى عنه اصدقاؤه . ففكر في استرداد منصبه وثروته باية وسيلة ، واتصل به ضابط قديم يدعى لاتريمو ، وجره الى الاشتراك في مؤامرة دبرها مع استاذ هولندي يدعى فان دن اندن لاسقاط حكومة لويس الرابع عشر . وقرر المتآمرون ان يسلموا قلعة كلييف للهولنديين وان يضرموا الثورة في

نورماندي ، وان يغتالوا الملك في حالة النجاح . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها ، فقتل لاتريو مدافعاً عن نفسه امام الجند الذين حاولوا اعتقاله ، وقبض على الشفاليه دي روهان ، وحوكم ، واعدم في ميدان الباستيل سنة ١٦٧٤ ، واضحى آل روهان من بعده موضع ريب العرش وغضبه . وكانت هـذه المأساة الشهيرة مستقى خصيباً لاقلام جماعة من اعلام القصصيين

١٣ ـ واستطال حكم الملك الاعظم (لويس الرابع عشر) حتى سنة ١٧١٥ . وشهد قبل موته وفاة ولده وولي عهده ، ثم وفاة ولد ولده ، فلم يخلف من عقبه الذكور ، سوى لويس حفيد ولده . تركه طفلاً في الخامسة ، وعم هذا الطفل وهو فيليب الخامس ملك اسبانيا الذي نزل عن كل حق له على عرش فرنسا . فتولى الوصاية على الملك الطفل الدوق فيليب دورليان ولد أخي لويس الرابع عشر . وكان لويس الرابع عشر قد أوصى بالوصاية لاثنين من ولده الادعياء هما الدوق دي ماين والكونت دي تولوز ولدا خليلته

الدوق فيليب دورليان

مدام دي مونتسبان ، وأوصى الى فيليب دورليان فقط برياسة مجلس الوصاية . ولكن البرلمان قضى ببطلان وصية الملك الاعظم

واسناده الوصاية الى الدوق دورليان وحده . وكان فيليب دورليان حازماً كريم الخلق ولكن خليعاً ، يؤثر الطرب والمرح . كذلك كان مستشاره الكردينال دبوا فاسقاً ، فاسد السيرة . وكان خصومه يحصون زلاته ، ويوغرون عليه الصدور ، وكان رأس مناوئيه الدوق دي ماين وزوجه الدوقة . وكانت الدوقة امرأة ، شديدة العزم ، وافرة الدهاء ، فاتصلت بالبلاط الاسباني . وكان فيليب الخامس يتوق سرًّا الى انتزاع الوصاية ، ويحقد من جهة أخرى على فرنسا لتحالفها مع انجلترا . وكانت الدوقة تعمل في نفس الوقت على اثارة النبلاء . وكان زعيم الناقمين منهم الكونت دي لافال . وكان المتآمرون يجتمعون في قصر الدوقة في « سو » ، فاذا جاءت الى باريس اجتمعوا في قصرها في «الارسينال» وكان البرنس دي كلامار سفير اسبانيا يحضر هذه الاجتماعات . وكان من بطانة الدوقة أيضا الكردينال دي بوليناك، والاب تورمنين وهو يسوعي بارع والمركيز دي بومبادور والكونت ماليزييه وغيرهم من ناقمين على الوصاية . وكان أمين الجماعة وأنشطهم قس يدعى الاب

البروني

ريجو. وكانت الدوقة بسحرها ، والزعماء بنفوذهم يحشدون في صف المؤامرة كثيراً من شبيبة النبلاء والضباط . غير أن الزعماء كانوا يرون أن لا فلاح للمؤامرة الا بمساعدة من الخارج . ومن ثم كانت جهودهم في استمالة اسبانيا. وكان روح المؤامرة في الواقع الكردينال البروني رئيس الحكومة الاسبانية . وكان البروني ولد جنان ، ابتسم له الدهر ، وارتقى الى أرفع مناصب الدولة في ظروف مدهشة . وكان البرنس دي كلامار نائبه لدى المتآمرين ، ولكنه كان عاجزاً ضعيف الرأي

وكانت خطة المتآمرين هي أن يختطف الدوق دورليان ، ويرسل سجيناً الى اسبانيا ، وأن يقوم بتنفيذ المشروع جماعة مسلحون يتنكرون في ثياب الحرس ، وذلك ليلة الميلاد في سنة ١٧١٨ ، حين القاء قداس منتصف الليل . فاذا تم ذلك ، نودي بفيليب الخامس وصياً على فرنسا ، ودعي البرلمان العام الى الاجتماع لتأليف مجلس للدولة . واشتغل الزعماء في نفس الوقت باعداد الوثائق والمذكرات المؤيدة لوجهة نظرهم وتوزيعها على المتآمرين . وعهد البرنس دي كلامار بنقل بعضها الى جماعة من مهرة الكتاب ، فراب واحد منهم يدعى جان بيفات ما قرأه في تلك الوثائق ، وحملها الى الكردينال دبوا ، ونبأه بكل ما يعلم ، فأمره دبوا أن يسير في مهمته ، وان يخفي كل شيء ، وان ينبئه تباعاً بما يعلم .فصدع بيفات بالامر ، وحمل الى دبوا ذات ليلة كل خطط المؤامرة مدونة في نحو خمسين مذكرة مختلفة نقلها جميعاً . وكان مقرراً أن يحمل أصول الوثائق الى اسبانيا قس يدعى الاب بورتوكاريرو فقبض عليه في بواتييه في ٢ ديسمبر

سنة ١٧١٨ ، وضبطت معه جميع الاوراق التي كان يحملها

وأخطر البرنس دي كلامار بالحادث في حينه ، فاتلف في الحال باقي الوثائق ، وذهب الى وزير الحربية مستفسراً ، فنبأه الوزير في خشونة أنه تلقى الامر بتفتيش داره بحضور الكردينال دبوا وغيره من كبراء الحكومة ، وعبثاً تذرع السفير بامتيازاته الدبلوماسية ، ففتشت داره ووضعت الاختام على جميع أوراقه ، واعتقل في داره . ثم أخذ الى بلوا ، وبقي هنالك سجيناً حتى ٦ مارس سنة ١٧١٩ . والقي المركيز دي بومبادور ، وسان جنيه ، وكورسيون والاب بريجو الى الباستيل . وقبض كذلك على جماعة من كبار الضباط . ثم قبض بعد ذلك على الدوقة دي ماين في ٢٣ ديسمبر سنة ١٧١٨ ، واعتقل ابناؤها في « أو » ، وبناتها في الدير . وقبض أيضاً على الدوق دي ريشليو ، والمستشار ماليزيه ، والآنسة دي مونتوبان ، ومدام دي لوناي ، والكونت لاڤال ، وغيرهم من السادة . ونفي الكردينال دي بوليناك الى دير أنكان . ولكن الدوق دورليان ، لم يرد أن تجري محاكمة ما ، لانه كان يعرف أن المؤامرة لم تكن خطيرة ، ولا بعيدة الغور ، فقضى المتهمون في الباستيل أشهراً فقط . وأفرج عنهم بعد أن اعترفوا بكل شيء . وأرغمت الدوقة دي ماين أن تفتدي حريتها وحرية أبنائها وأقاربها بأن تكتب بيدها اعترافاً ليقرأه الوصي وحده . وهكذا أخفقت المؤامرة ولم يكن لها من أثر سوى تقوية مركز الدوق دورليان وحكومته ، واشهار فرنسا الحرب على اسبانيا

العصر الثالث

من الثورة الى عصرنا

١٤ ـ وانقضت حداثة لويس الخامس عشر وعهد الوصاية في معترك من الدسائس الصغيرة داخل القصر وخارجه . ثم كان عصر هذا الملك الفاجر الذي استطال زهاء نصف قرن ، وكانت فضائحه ومخازيه الشائنة وكان حكم الغانيات من الدوقة دي شاتورو الى بومبادور دوباري ، فلقيت فرنسا ما لقيت من اسباب الذلة، وامتهان الكرامة واختلال الشئون ، والانحلال الاقتصادى والاجتماعي . وكان ثمة في الواقع عهد خصب للمؤامرة السياسية، وكان هنالك من الاسباب والعوامل المشروعة ما يحمل الشعب على ان يبطش بهاته الحكومات الملوثة . ولكن الشعب الفرنسي المرح لبث يرقب انحلاله وخرابه جامداً ، وقد يهتف احياناً الى ما يغرق فيه مليكه

لويس الخامس عشر

العاجز الطروب من اسباب اللهو والحفلات الشائقة ، بيد انه كان السكون الذى يتقدم العاصفة ، وكانت العوامل الفكرية والمعنوية تفعل فعلها ، وتمهد للانفجار النهائي . واستحالت المؤامرة السياسية عندئذ الى دسائس قصر وضيعة ، تجتمع خيوطها في ايدي العواهر اللائي يحكمن دون الملك .


المركيزة دي بومبادور

فمن وزير يحاول اسقاط الحظية الملكية كما فعل ماشول أو يأتمر معها كما فعل شوازيل . وكانت وفاة الكردينال فليرى رئيس حكومة لويس الخامس عشر سنة ١٧٤٣ خاتمة حكومة حازمة متماسكة . فلما تألق نجم المركيزة دي بومبادور وغدت كل شيء في فرساي ، رأى الدوق دي شوازيل رئيس الحكومة ان خير وسيلة للحكم والنفوذ مهادنة المركيزة ومحالفتها . وكان قد رأى قبل ذلك الوزراء يسقطون تباعاً باشارة من الدوقة دي شاتورو او خليفتها المركيزة كما سقط ماشول

ودارجنسون وغيرهما من كبراء الدولة . فلما انقضى عهد المركيزة ، وسطع نجم الكونتة دي باري ، أبى شوازيل أن ينحني أمام الحظية الجديدة التي لم يكن لها شيء من ذكاء المركيزة ، وخلالها المصقولة ، فسقط ، وارتد الى الظلام . وكانت هذه المؤامرات والدسائس الوضيعة هي كل ما يشغل البلاط والنبلاء في هذا العهد

وفي سنة ١٧٥٧ وقع اعتداء على لويس الخامس عشر ، قيل انه نتيجة المؤامرة . ففي ٥ يناير ، تقدم شخص يدعى داميان الى الملك وهو يصعد الى عربته في قصر تريانون ، وطعنه بمدية فجرحه جرحاً بسيطاً ، وقبض على المعتدي ، وحوكم ، وقضى بتعذيبه واعدامه. وكان عذابه من أروع ما سطر ، فقد احرقت يده ببطء ، ثم مزق لحمه بالمدى المحمية ، واذيب الرصاص في جروحه . ثم قطع بعدئذ الى أربع بواسطة الخيل . ويرى البعض ان داميان ارتكب جرمه لحساب اليسوعيين وانهم دبروا مؤامرة واسعة النطاق لاسقاط الحكومة وقتل الملك انتقاماً لما أصاب جماعتهم من الحل . ولكن داميان لم يعترف قط بشيء من ذلك . بل لبث كل أدوار التحقيق والعذاب يؤكد انه ارتكب جرمه لما انزله الملك بالبرلمان من صنوف الانتهاك والتعدي

١٥ ــ ومن الصعب ان نحاول في هذا المقام المحدود أن نأتي على تفاصيل المؤامرات السياسية في عصر الثورة الفرنسية ، اذ الواقع ان هذه المؤامرات انما هي سدى الثورة ، سواء من جانب الشعب ذاته ، أو من جانب الملوكية والنبلاء . صحيح ان الثورة كانت انفجاراً علنياً ظاهراً ، وكانت حوداثها من البداية الى النهاية تتعاقب

في وضح النهار ، ولكن عنصر الخفاء والمؤامرة كان ماثلاً في معظم هذه الحوادث . ويكفي ان نذكر على سبيل التعليل ، ان فرار لويس السابع عشر الى فارين ، ومذابح سبتمبر ، وحوادث فنده ، كانت نتيجة لمؤامرات سابقة . وقد سقطت رءوس لويس السادس عشر وماري انتوانت ، والجيرونديين ، وداتون وديمولان ، وغيرهم من شخصيات هذا العصر بتهمة التآمر . وقد دبرت مؤامرات ملكية عديدة لانقاذ لويس السادس عشر ، وماري انتوانيت ، وولي العهد. وكانت المؤامرات تضطرم دائماً حول المؤتمر الوطني ، وحول جميع الاحزاب والزعماء . وهل الثورة الا سيرة هذه المعارك المستمرة ، سواء في الخفاء أو الجهر ، بين الملوكية والنبلاء وبين الشعب من ناحية ، وبين أحزاب الثورة وزعمائها أنفسهم من ناحية اخرى ؟ ولهذا نرى ألا نعطف في هذا المقام على حوادث هي الثورة بذاتها مع ما يعتورها من خفاء

ولكن الحكومة المؤقتة (الديركتوار) شهدت مؤامرة سياسية شهيرة ، تتصل بمثل الثورة وحوادثها أيضاً . وبطل هذه المؤامرة هو فرانسوا بابيف . وهو كاتب وصحفي نابه ، خاض غمار الثورة الى جانب اليعقوبيين ، وذاق مرارة السجن حيناً . فلما اطلق سراحه انشأ صحيفة « منبر الشعب » على مثل جريدة « صديق الشعب » التي كان يصدرها مارا . وكان بابيف يدين بالمبادىء الثورية والشيوعية المتطرفة . وكان مثل سلفه مارا ، يدعو الى التخريب والسفك ، وتحطيم البقية الباقية من أعداء الثورة التي افلتت من مذابح سبتمبر . وكان يعبر عن مثله بتحقيق « السعادة العامة » . وكان قلمه

قوياً ملتهباً ، ولكن منطقه كان ضعيفاً ، ونظرياته جوفاء . فذاع « منبر الشعب » بسرعة ، والتفت حول بابيف جماعة كبيرة من الاذهان المضطربة . وكانت « الحكومة المؤقتة » تطارد « الوطنيين » القدماء ، اولئك الذين لا يعيشون الا في غمار القلاقل والفوضى . وكان بابيف يجد في هؤلاء عوناً وعضداً لنظرياته ومشاريعه . فلما اشتدت وطأة المطاردة على الوطنيين لجأوا الى التآمر . ووضعوا مشروع مؤامرة كبيرة لاسقاط « الحكومة المؤقتة » واقامة لجنة سرية للسلام العام يكون بابيف ودرويه من أعضائها . وتتصل هذه اللجنة باثني عشر مندوب لا يعرفون بعضهم البعض ، يعملون على تأليف جماعات وطنية في جميع أنحاء باريس تسعى الى تحقيق « السعادة العامة » وكان بابيف روح المؤامرة ، وروح مشروعها ونظمها . وكان يرى أن تتخذ باريس مسرحاً للانقلاب ، وان يدعى مؤتمر وطني جديد من اليعقوبيين . وقد سمى المتآمرون بالفعل كثيراً من أعضاء هذا المؤتمر الذي كانت مهمته أن يستولي على كل السلطات حتى تحقق « السعادة العامة »

ولما تمت الاهبة قرر المتآمرون أن يقوموا بالثورة في مايو سنة ١٧٩٦ . فتخرج جموع الوطنيين مسلحة في الوقت المعين ، وتسحق كل معارض . وتقوم حركة مماثلة في نفس الوقت في جميع المدن الكبرى ، ويقتل أعضاء الحكومة الخمسة وقائد الجيش الداخلي ، ويحتل قصر اللوكسمبور ، والمالية ، ومخازن الذخيرة ويقود قوات الثورة في باريس القائد الملكي السابق روسنيول

ولكن عين الحكومة كانت ساهرة . وكان مدير البوليس كوشون يرقب سير المؤامرة وحركات المتآمرين . فترك المتآمرين حتى اعدوا كل معداتهم . وفي ٩ مايو اجتمع بابيف ودرويه وبعض الزعماء الآخرين في دار في شارع بليه ، فدهمهم رجال الشرطة وقبض عليهم وزجوا الى السجن . وقبض في نفس الوقت على جماعة من أعضاء المؤتمر القدماء مثل لنيلو ، وفاديه ، وريكور ، وشودييه وغيرهم . وحاول بابيف أن يهدد الحكومة بخطاب ، زعم فيه انه رئيس فرقة هائلة ، وان موته يفضي إلى بلاء عظيم فضلا عن انه لا يجدي لان الحكومة لم تقبض إلا على طرف واحد من خيوط المؤامرة ، وناشد الحكومة ألا تسفك دماً لا فائدة من سفكه ، وان تفاوض الوطنيين . فلم تعبأ الحكومة بوعيده وأمرت بالتحقيق فاستطال أشهراً . وحوكم المتآمرون في فبراير سنة ٩٧ ، ولكنهم برؤوا جميعاً ما عدا بابيف ودراتيه فقد قضي عليهما بالاعدام وأعدما في ٢٥ مايو سنة ٩٧

١٦ ـ وكان آل بوربون والنبلاء منذ شردتهم الثورة في مختلف الاقطار يرقبون تطوراتها ويحتشدون في كل حملة يدبرها أعداء فرنسا لسحقها . فلما هدأت فورات عهد الارهاب الاخيرة ، اشتد عزمهم ، وتوالت دسائسهم ومؤامراتهم . ودبر الملكيون في فنده وبريتانيا ونورماندي عدة ثورات محلية . ولكنها سحقت تباعاً ، واستطاعت الحكومة المؤقتة أن تسهر على سلامة فرنسا ، حتى جاء بونابارت فقبض على ناصية الامور ، واستأثر بكل سلطة . وشهد آل بوربون في روعة ان سكون الثورة لم يسفر عن عودة الملوكية وعودتهم بل تمخض عنه ظهور هـذا الجندي العظيم الذي أخذ يتدرج في مراتب النفوذ

والسلطان حتى غدا وهو قنصل فقط اكثر من ملك مطلق . وكان آل بوربون مذ تألق نجم القنصل الاول (بونابارت) لا ينقطعون لحظة عن العمل لاسقاطه واهلاكه . فدبرت منذ سنة ١٨٠٠ عدة محاولات دموية لتحقيق هذه الغاية ، منها مؤامرة دبرت لقتله في شارع سان نكيس ، وأخرى في الاوبرا ، وثالثة لاهلاكه بواسطة آلة جهنمية مفرقعة . ورابعة لاختطافه في سان كلو أو مالميزون . وقد أخفقت كلها . وكانت هذه محاولات محلية


نابليون بونابارت

تقصد إلى سحق شخص القنصل الاول قبل كل شيء . ولكن مؤامرة سياسية كبرى دبرت في سنة ١٨٠٣ لاسقاط النظام الجمهوري من أساسه ، واهلاك القنصل الاول ، وإعادة الملكية . وكان روح هذه المحاولات والمؤامرات كلها هو الكونت دارتوا اخو لويس السادس عشر . وكان يقيم في ذلك الحين في لوندرة حيث كان يحتشد أعداء بونابارت من امراء ونبلاء شريدين ، تمدهم الحكومة الانجليزية بالمال والوحي

وكان أقطاب هذه المؤامرة الكبرى غير الكونت دارتوا ، الجنرال بيشجرو من قواد الثورة السابقين وجورج كادودال وهو زعيم ملكي سابق ، والجنرال مورو وهو من قواد بونابارت ذاته وجماعة من كبار

النبلاء . وكان المتآمرون يعتمدون قبل كل شيء على مساعدة مورو الذي كان يضطرم سخطاً على نابليون وغيرة منه ويتطلع الى تحقيق


مورو

اطماعه الكبيرة . ولكن مورو أبى أن يعمل لاعادة آل بوربون . ولم يقبل معاونة المتآمرين إلا لسحق القنصل الاول . وجرت في ذلك مقابلات سرية بينه وبين بيشجرو . وتقرر أن يهاجم كادودال على رأس جماعة من المخاطرين القنصل الاول في موكبه وأن يقتله أثناء سيره بين باريس ومالميزون . وأن يقود بيشجرو قوة لاسقاط الحكومة . وكانت المؤامرة خطيرة في الواقع ، ولكن مورو كان منذ بعيد موضع ريب القنصل الاول ، وكان يحيطه باعوانه وجواسيسه . فلم تلبث المؤامرة ان اكتشفت في يناير سنة ١٨٠٤ . وقبض على كادودال وبيشجرو ومورو . واعترف كادودال في التحقيق انه كان ينتظر للبدء في التنفيذ قدوم أمير من آل بوربون . وكان نابوليون قد أعيته دسائس آل بوربون . ولكنهم كانوا جميعاً بعيداً عن قبضته يلوذون بحماية الحكومات الاجنبية . وكان من قبل يبدي مقته واشمئزازه من الوسائل الدموية التي كان يلجأ اليها زعماء الارهاب ايام الثورة لتوطيد سلطانهم واخافة أعدائهم ، ولكنه رأى يومئذ تلك الوسائل وحدها كفيلة بانذار خصومه وارهابهم . وكما روع زعماء الثورة دعاة الملكية

وروعوا اوربا باعدام لويس السادس عشر وماري انتوانيت ، فكذلك كان القنصل الاول يتوق الى اراقة دم ملكي جديد يروع به خصومه داخل فرنسا وخارجها

١٧ ـ وكان يقيم في ذلك الحين في اقليم باد ، على قيد أميال قليلة من الحدود الفرنسية امير من آل بوربون هو دوق دنجين الفتى ، ولد البرنس دي كوندي . وكان آل كوندي قد هاجروا منذ فاتحة الثورة ، ونظم البرنس دي كوندي الكبير (جد الدوق) جيش الرين من النبلاء والمهاجرين وهو الجيش الذي لبث يحارب جيوش الثورة الى جانب أعداء فرنسا حتى حل في سنة ١٨٠١ ، وذهب البرنس دي كوندي الى انجلترا ، وبقي حفيده الدوق دنجين في ايتنهايم من أعمال باد . وكان ينسب اليه أنه يتردد سراً الى ستراسبورج وأحياناً الى باريس . وكان الدوق في الواقع بعيداً عن هذه المؤامرات التي يدبرها الامراء من آن لآخر . ولكن جواسيس القنصل الاول ، في الوقت الذي اكتشفت فيه مؤامرة كادودال وبيشجرو ومورو أخطروه بان

دوق دنجين

الجنرال ديموريه وهو من قواد الثورة السابقين ، وفد من انجلترا على ايتنهايم واجتمع بالدوق دنجين سراً ، وأن الدوق منذ حين يتردد

سراً بين ستراسبورج وايتنهايم . فاستشاط نابليون حنقاً ، وآثر أن يصدق هذه الرواية . ويقال أنه صاح برجال حكومته : « هل أعتبر كلباً أيها السادة حتى يهمل السهر على سلامتي الى هذا الحد ؟ وماذا يعمل البوليس اذن ؟ لست أترك أيدي القتلة تمتد الي دون أن أدافع عن نفسي ، وسوف أجعل أولئك الرجال يرتعدون فرقاً ، ويلزمون السكينة » . وفي الحال اتجه بصر القنصل الاول الى ايتنهايم ، وقرر ان يكون الدوق دنجين موضع نقمته ، وان يقذف برأسه ودمه خصومه من الامراء والنبلاء . ولما كان الدوق يقيم في أرض أجنبية فقد اضطر بونابارت ان يلجأ إلى العنف والمفاجأة ، فاوفد في ليلة ١٥ مارس سنة ١٨٠٤ فرقة قوية من الفرسان وثلة من رجال المدفعية والشرطة لاختطـاف الدوق . وداهم الخاطفون الدوق في منزله في ايتنهايم في فجر اليوم التالي ، وقادوه أسيراً الى ستراسبورج . ثم الى باريس حيث زج إلى قلعة فنسان في عصر يوم ٢٠ مارس . وفي مساء نفس اليوم ، عقد مجلس حربي لمحاكمة المتهم ، فاستجوب وأنكر كل علاقة له بالمؤامرة ، ولم تكن ثمة أدلة قط . ولـكن أوامر بونابارت كانت حاسمة . فاصدر المجلس حكمه بادانة الدوق في تهمة التآمر على سلامة الجمهورية وقضى باعدامه . وتم التنفيذ في نفس الليلة ، فاعدم الدوق الفتى في فنسان رمياً بالرصاص ، ودفن في حفرة أعدت له من قبل في إحدى ساحات السجن ، واهتزت أوربا من أقصاها الى أقصاها لسفك هذا الدم البريء . وارتاع الملكيون وفت في نشاطهم وخمدت دسائسهم الى حين . ولـكن هذا الحادث او بالحري هذه الجريمة اسبغت سحابة على خلال بونابارت وهيبته . وقد ادرك بونابارت

غير بعيد خطأه ، فحاول ان يتنصل من تبعة الحادث وحاول ان يبرر في وصيته بأنه كان ضرورة لسلامة فرنسا

أما كادودال فحوكم واعدم فوق النطع . وقتل بيشجرو غيلة في سجنه . وقضي على مورو بالنفي . فاقام حيناً في امريكا . ولكنه عاد الى اوربا سنة ١٨١٣ وحارب الامبراطور الى جانب الجيش البروسي سنة ١٨١٣ . وقتل في موقعة درسدن

١٨ ـ ثم سقطت الامبراطورية ، واختفى بونابارت من الميدان بعد ان جعل أوربا ثكنة هائلة وخضب بسائطها بالدماء زهاء عشرين عاماً ، وعادت الملكية . واعتلى الكونت دي بروفانس عرش فرنسا باسم لويس الثامن عشر . وفي عهده دبرت عدة مؤامرات بونابارتية ذات صبغة عسكرية في معظمها ، أهمها مؤامرة دبرت في ليون سنة ١٨١٧ ولكن الملكيين والنبلاء الذين عادوا ليتبوأوا مكانتهم نشطوا الى مطاردة أنصار بونابارت في كل ناحية وامعنوا فيهم قتلاً وانتقاماً . وحدثت في

لويس الثامن عشر

عهد لويس الثامن عشر أيضاً ، وفي عهد خلفه شارل العاشر عدة ثورات محلية . ثم ولي العرش لويس فيليب في سنة ١٨٣٠ . وهو من ولد الدوق دورليان . وكان الجمهوريون يعلقون آمالاً كبيرة على

ولايته ، ولكن لويس فيليب ما لبث ان ابتعد عن الحزب الجمهوري ومال عليه ، فحدثت عدة ثورات محلية في ليون وجرينوبل . وكان آل بوربون من جهة أخرى وعلى رأسهم الدوقة دي بري يدبرون المؤامرات والثورات المتوالية في فنده التي لبثت معقلا للملكيين منذ الثورة . ولكن هذه المحاولات اخفقت جميعها . ثم كانت ثورة يونية سنة ١٨٣٢ التي دبرها الجمهوريون ، وانتهزوا فرصة الاحتفال بتشييع جناز الجنرال لامارك للقيام بتنفيذها . وكانت ثورة خطيرة ، ولكنها اخمدت لانها لم تلق زعيما ولم تنظم . وفي سنة ١٨٣٥ ، دبرت مؤامرة لاغتيال لويس فيليب لم تعرف ظروفها تماماً . ولكن الذي قام بتنفيذها جندي قديم كورسيكي ، يدعى فيسكي . واختار للعمل يوم عرض الحرس الاهلي في ٢٨ يولية فاختبأ في منزل في شارع التامبل واطلق من آلة جهنمية تشبه المدفع السريع عدة قنابل صغيرة على الملك ومن حوله ، فقتل ثمانية عشرة ، منهم المارشال مورتييه وجرح عديدون ونجا لويس فيليب . واستطال حكمه الى سنة ١٨٤٨ ، وفيها حدثت الثورة الكبرى التي احتملت على كاهلها عرش آل اورليان ، فارغم لويس فيليب على التنازل ، وقامت حكومة الجمهورية الثانية ولكنها لم تدم طويلاً حتى جاء نابليون الثالث ، فاعتلى العرش وقامت الامبراطورية الثانية . وفي ١٤ يناير سنة ١٨٥٨ القى ايطالي يدعى ارزيني من أعضاء جمعية الكربوناري السرية على موكب نابليون الثالث حين سيره الى الاوبرا عدة قنابل ، فنجا الامبراطور أيضاً ولكن زهاء مائة وخمسين من الحضور قتلوا او جرحوا

ثم كانت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، فسحقت فرنسا ، وسقطت الامبراطورية ، وقامت الجمهورية الثالثة ، التي ما زالت الى يومنا تشرف على اقدار الشعب الفرنسي

١٩ ـ ونرى قبل ان نختم هذا الفصل ان نأتي على خلاصة وجيزة لمؤامرة سياسية فريدة في نوعها ، ونعني قضية دريفوس التي اذكت نضال الاحزاب حيناً وأثارت في فرنسا مدى أعوام معركة سياسية واجتماعية هائلة . ففي ١٥ اكتوبر سنة ١٨٩٤ اتهم ضابط يهودي في المدفعية يدعى الفرد دريفوس بانه قدم الى سفارة أجنبية تقريراً مكتوباً عن بعض المشاريع العسكرية السرية ، فاحيل على مجلس حربي ، وحوكم سراً ، وحكم عليه بالنفي مدى حياته والتجريد من رتبه (٢٢ ديسمبر سنة ٩٤) . وكان دريفوس يؤكد بكل قواه مذ قبض عليه براءته من كل تهمة وريب . وكان يؤمن ببراءته جماعة كبيرة من الساسة والكبراء . ويرون يد الخصومة السامية ماثلة في تلك المسألة . وكان في مقدمة هؤلاء المسيو شوررکستنر وكيل مجلس الشيوخ والليوتنان كولونيل بيكار ، فقد أيقنا بعد البحث والتحري ان دريفوس كان بريئاً وضحية ، وان واضع التقرير الحقيقي هو رئيس فرقة يدعى استرهازي ، وفي الحال آثارا دعوة قوية لاعادة النظر في القضية ،فقبض على استرهازي، وحوكم أمام مجلس حربي ، ولكنه برىء . فكانت هذه البراءة نذير فورة أشد من الاولى.وكان الكاتب القصصي الاشهر أميل زولا قد نشط للدفاع عن دريفوس منذ البداية فنشر في ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ ، في صحيفة « الاورور » الراديكالية خطاباً مشهوراً بعنوان « اني اتهم ! » وجهه الى رئيس

الجمهورية ، واتهم فيه المجلس الحربي الأول في عبارات عنيفة ملتهبة انه انتهك العدالة والقوانين ، واتهم المجلس الثاني ، بانه أراد ان يتستر على الاول ببراءة مجرم يوقن باجرامه . فاحيل زولا على محكمة الجنايات متهماً بالقذف ، وحكم عليه بالحبس عاماً وبغرامة قدرها ثلاثمائة فرنك (في ٣ فبراير سنة ٩٨) ولكنه فرّ الى انجلترا تفادياً من تنفيذ الحكم . ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى أعترف ضابط هو الليوتنان كولونل هنري ، وكان من شهود الاثبات على دريفوس بانه زوّر وثيقة من وثائق القضية قدمها وزير الحربية كدليل قاطع على التهمة ، فقبض عليه وسجن ، ولكنه انتحر في سجنه . وعندئذ قرر وزير الحربية المسيو بريسون ان يحيل الطلب الذي قدمه الضابط البريء باعادة النظر في قضيته فقدم الى محكمة النقض ، وقضت هذه بنقض الحكم في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩ . وأحيل دريفوس الى المجلس الحربي في رن فقضى بادانته ثانية (سبتمبر سنة ٩٩) مع الظروف المخففة وحكم بسجنه عشرة أعوام . ثم أصدر رئيس الجمهورية المسيو لوبيه عفواً عن المحكوم عليه . ولكن الضابط البريء وأسرته وأنصاره ، لم تفتر لهم همة ، فلبثوا يعملون لاظهار الحقيقة حتى اكتشف التزوير ، ووجدت مستندات جديدة لم تقدم الى محكمة النقض ، ولا الى مجلس رن . وعندئذ قدم دريفوس طلباً جديداً باعادة النظر ، فقررت محكمة النقض اجراء تحقيق جديد ، ثم اصدرت حكمها في ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦ بالغاء حكم مجلس رن ، وبراءة الضابط اليهودي . وفي الحال أعيد دريفوس الى فرقته ، ومنح وسام الشرف

وأسدل الستار على تلك المأساة وهدأت العاصفة السياسية الكبرى تي أثارتها حيناً

وما نريد ان نلفت النظر اليه هو ان مسألة دريفوس لم تكن قضية فقط ، ولم يكن المقصود فيها شخص دريفوس . ولكنها كانت مؤامرة كبرى ، لاسامية من جهة ، وسياسية من جهة أخرى . فاما خصومة السامية أو مخاصمة اليهود ، فقد ظهرت في ألمانيا في أواسط القرن التاسع عشر ، وأثارت هنالك طائفة من الاضطرابات والعواصف السياسية والاجتماعية ، ثم انتشرت بسرعة في النمسا والمجر وروسيا . وسالت دماء اليهود ونهبت أموالهم في جهات كثيرة وامطروا صنوف الذلة والارهاق السياسي والاجتماعي . واتخذت هذه الدعوة في فرنسا شعارها الخطر الذي تتعرض اليه الجمهورية من جراء ازدهار اليهود في السياسة والمالية ، وازدياد نفوذهم وسلطانهم في الشئون العامة . وكان أقطاب هذه الدعوة جماعة العسكريين ورجال الدين ، والوطنيين بصفة عامة او أعداء النظم البرلمانية والديموقراطية وكانت حادثة دريفوس من تدبير رجال العسكرية بلا مراء . وكان الحزب العسكري هو الذي يسيطر يومئذ . ولكن العاصفة التي أثارها الحادث هزت أركان الحياة السياسية في فرنسا ، واذكت نضال الاحزاب ، وكانت نواة لدعوة قوية ضد العسكرية ما زالت تضطرم في يومنا

الفصل الثالث

المؤامرات السياسية فى انجلترا

(١) حروب الورد . هنرى السادس . آل لانكستر وال يورك . الادعياء (٢) دعوى لامبرت سمنل . اهبة المتآمرين . الحرب . بركن واربك . خروجه . هزيمته ومقتله (٣) هنرى تيودور . هنرى الثامن . ادوارد السادس . المؤامرة على العرش . مارى تيودور . اللايدى جان جراى . مبايعتها بالملك . اهبة مارى . الحرب الاهلية . هزيمة المتامرين وجلوس مارى . محاكمة جان جراى واعدامها . (٤) الملكة اليزابيث . دسائس الكثلكة . مارى استوارت ملكة ايكوسيا . الخصومة بينها وبين اليزابيث . دسائس مارى استوارت . فرارها واعتقالها فى انجلترا . مؤامرتها اثناء الاعتقال . التشريع المنشود (٥) المؤامرة المدبرة . تقرير محاكمة مارى . المحاكمة والحكم . اعدام مارى استوارت . تأملات فولتير وسكوت (٦) جيمس الاول وسياسته . سخط الكثلكة . مؤامرة الديناميت . كيف نظمت . المتامرون واهبتهم وخطتهم . اتساع المؤامرة . الاهبة الاخيرة . الافتضاح . مطاردة المتامرين . محاكمتهم واعدامهم . السير والتر رالى . اتهامه بالتآمر والخيانة . مصرعه . تشارلس الاول . المعركة الدستورية (٨) تشارلس الثانى . تيتوس اوتس . المؤامرة اليسوعية . يد الكثلكة . المذبحة . عود المعركة الدستورية . التامر على حياة الملك . دوق مونموث . فشل المؤامرة ومصرع المتامرين (٩) وفاة تشارلس الثانى . تهمة التسميم . جيمس الثانى . اطماع مونموث . خروجه . هزيمته واعدامه . ندرة المؤامرة فى ما يلى من تاريخ انجلترا

١ ــ كانت مسألة العرش ووراثته في انجلترا مبعثاً لطائفة من المؤامرات الشهيرة . وكان النبلاء ، فضلاً عن أمراء الاسر الملوكية عماد كثير من هذه المحاولات التي كانت تدور حول الاسر والاشخاص قبل كل شيء . ويرجع هذا النضال الى منتصف القرن الخامس عشر حيث بدأت المعارك التي تعرف في تاريخ انجلترا بحروب الورد . في سنة ١٤٥٣ أصيب هنري السادس ملك انجلترا بالجنون . فتولى الوصاية عليه رتشارد دوق يورك . فلما استعاد رشده وحكمه طلب اليه سادة يورك ان يعزل من مجلسه كل سادة لانكستر . فلما أبي حاربوه فهزم وأسر ، وحكم يورك بضعة أعوام أخرى ، ثم عزل ، فنشبت الحرب ثانية وانتصر آل يورك مرة أخرى ، ولكن هنري السادس عاد فجمع فلوله وزحف عليهم وهزمهم ففر يورك الى ارلندة وزميلاه واروك وسالسبوري الى فرنسا . ولكن الحرب استؤنفت بعد قليل وتعاقبت بين سادة لانكستر وعلى رأسهم الملكة مرجريت والملك هنري السادس ، وسادة يورك وعلى رأسهم آل يورك وسالسبوري وواروك سلسلة طويلة من المعارك سميت بحروب الورد لان كلا الفريقين المتحاربين كان يحمل الورد شعاراً ، فريق يورك الورد الابيض وخصومهم الورد الاحمر . وفي سنة ١٤٦١ انتصر اليوركيون في معركة حاسمة ، وتوج ادوارد ولد الدوق يورك ملكاً على انجلترا باسم ادوارد الرابع ، وفرت الملكة مرجريت ، وزج هنري السادس الى البرج [1] وسادت السكينة حيناً ، ولكن واروك بدأ يكيد

(١) برج لندره ، وهو قلعة قديمة على ضفة التمز بدىء بانشائها فى القرن الحادى عشر . وكانت تحفظ جواهر التاج فى بعض معاقلها ، ويزج الى البعض الاخر من يعتقل او يحكم عليه من كبراء الدولة او نبلائها

للعرش ثم انضم علناً الى سادة لانكستر أعداء ادوارد الرابع . وعادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى انتهت بهزيمة واروك ومقتله في سنة ١٤٧١ . بيد ان هذه المعارك الدامية لم تلق ختامها الا في موقعة بسوورث في سنة ١٤٨٥ ، التي ولي هنري السابع على أثرها العرش. وعندئذ اتخذ النضال لوناً آخر ، فان سادة يورك وسادة لانكستر بعد ان فقد كلاهما زعماءه من الامراء ، عمدوا الى الالتفاف حول جماعة من الابناء غير الشرعيين أو الادعياء الزائفين ، ووقعت على ذلك النحو عدة محاولات أو مؤامرات لاغتصاب العرش

٢ ـ وأشهر هذه المؤامرات اثنتان وقعت كلتاهما في عهد هنري السابع ، الاولى سنة ١٤٨٧،وبطلها مغامر يدعى لامبرت سمنل وهو من أسرة وضيعة من اكسفورد ، ولكنه كان وافر الذكاء والعزم والجرأة . فاتصل به كاهن من اكسفورد هو رتشارد سيموندس من أعوان آل واروك ، وأوحى اليه هؤلاء ان يمثل شخص الدوق واروك الاصغر ، وكان منذ مقتل أبيه قد أسر وزج الى البرج ثم قيل انه هلك في سجنه ، ولكن حقيقة أمره لم تعرف بصفة قاطعة واختار المتآمرون لتنفيذ مشروعهم أرلنده ، فاوفد اليها سمنل حيث دعا الى نفسه وتوج ملكا في كنيسة دبلن في مايو سنة ١٤٨٧ . فلما علم هنري السابع بالامر اخرج للناس دوق واروك ، وكان لا يزال حياً يرسف في سجنه . ولكن المؤامرة كانت قد تفاقمت ، وبعث المتآمرون من ارلنده بقوة كبيرة يقودها السير توماس فتزجرالد ، فنزلت في لانكشير وسارت لقتال الجيش الملكي والتقى الفريقان على ضفاف نهر الترنت ، فهزم الخوارج واسر الدعي . ولم تمض أعوام

على ذلك حتى وقع الحادث الثاني وظهر دعي جديد يطالب بالعرش وهو بركن واربك إصله من تورني . ولكنه في سنة ١٤٩٠ ظهر في البلاط البورجوني بوصفه اصغر الاميرين اللذين قيل ان الملك رتشارد الثالث قتلهما في البرج . فاحتفي به ، ورحبت به «عمته» الدوقة دي بورجونيا . وظهر في البلاط الفرنسي بهذه الصفة ايضاً. ثم وفد على اسكتلندة ، فرحب به ملكها جيمس الرابع ، وزوجه من احدى اميرات البيت المالك . ومن ذلك الحين بدأ يدعو لنفسه ، ويطالب بعرشه المغصوب . وفي سنة ١٤٩٨ ، سار على رأس قوة كبيرة وغزا جنوب انجلترا الغربي وحاصر اكستر ، ولكنه هزم واسر وزج الى البرج . واستطاع ان يفر من سجنه بعد حين ، ولكنه اسر ثانية واعدم في تلك المرة . ولم تنته سلسلة هذه المحاولات الدموية حتى هلك كثير من الامراء والسادة سواء في ميدان الحرب او فوق نطع الجلاد ، واضمحلت او تلاشت معظم الاسر القوية ، وعندئذ فقط اجتمعت كل حقوق الاسر المتطاحنة من آل بلانتاجنيت في أسرة تيودور

٣ـ وحكم هنري تيودور او هنري السابع رأس هـذه الاسرة حتى سنة ١٥٠٩ بعد أن قضى معظم حكمه في توطيد عرشه وسحق الخارجين عليه نخلفه هنري الثامن المشهور في التاريخ الانجليزي بخصومته للكنيسة الرومانية وبطشه وبذخه ومخاطراته او جرائمه الغرامية ، فاستطال حكمه حتى سنة ١٥٤٧ ، ثم خلفه ادوارد السادس، فاخته ماري تيودور . ولكن ماري تيودور لم ترق عرش اخيها

قبل ان يأتمر بها الامراء الطامعون وقبل ان تنزع العرش فعلا .
وذلك ان ادوارد السادس توفي في اليوم السابع من يوليو سنة ٥٣


ماري تيودور

فاخفى كبراء القصر موته . وكانت وارثة العرش من بعده ماري . ولكن القابضين على السلطة من رجال البلاط كانوا يخشون بطش ماري وقوة عزمها ويعتزمون ابعادها عن العرش . وكانت ماري تعلم ذلك وكانت على قدم الاهبة والحيطة منذ اشتد مرض الملك . فلما توفي الملك ، اخطرها انصارها في الحال بذلك واوحوا اليها بالفرار ففرت تحت جنح الظلام الى نورفولك حيث كان يحتشد انصارها .
وكان المتآمرون قد اعتزموا القبض عليها ليلة الوفاة ، فلما جاء رسولهم برجاله يبحث عنها في صباح اليوم التالي ، كانت قد قطعت على ظهور الجياد مراحل شاسعة ، ولم تقف الا في حصن هواردس على قيد مائة ميل من لندرة

وكان المتآمرون يريدون اعتقال شخص ماري قبل ظهور خبر الوفاة ، فخاب هذا المسعى الاول وكان كبيرهم الدوق نورثمبرلند يتطلع الى الحكم . ولكنه لم يجرؤ الى التطلع الى نفس العرش قبل ان تحين الفرص . وكان لذلك لابد من ملء العرش بشخص من

اعضاء الاسرة المالكة يمكن ان يغدو آلة ذليلة في يد المتغلب . وكانت انظار المتآمرين قد اتجهت منذ مرض الملك الى ابنة عمه اللادي جان جراي ، كبرى بنات الدوق سفولك ، وكانت من ارقى نساء عصرها ذكاء وتربية ، وكانت قد زوجت صغيرة من جلفورد دودلي ولد الدوق نورثمبرلند وكانت ذات وجل ووداعة لا تفقه كثيراً من دسائس البلاط ومعاركه الخفية . فلما شرع المتآمرون في التنفيذ اعتقلت بضعة ايام حتى توفي الملك


جان جراي

وعندئذ ارسل في طلبها الى قصر سيون حيث زهق الملك فذهبت ، وهنالك استقبلها زعماء المؤامرة نورثمبرلند ، وبمبروك ، ونورثمبتون وغيرهم . وجثا امامها بمبروك وقبل يدها ، وتكلم دوق نورثمبرلند بوصفه رئيس المجلس فقال : « ان الملك قد دعا في فراش موته الى الله ان يحفظ المملكة من الآراء الزائفة ، ولا سيما من اخته الخسيسة . وقد حرمت اللادي ماري من العرش بقرار من البرلمان وكانت عاقة لابيها ثم لاخيها ، ولم يفكر الملك هنري في أن يترك عرشه لها او لاختها اليزابيث . وقد اوصى الملك ادوارد قبل موته

بعرشه الى ابنة عمه اللادي جان» ثم جثا نور ثمبرلند امام اللادي جان وحذا حذوه السادة ، وبايعوا اللادي جان بالملك ، وأقسموا لها يمين الطاعة

ولما اخفق المتآمرون في اعتقال ماري تيودور ، اذاعوا وفاة الملك، واصدروا الاوامر والكتب باسم الملكة جان جراي، وذهبت لاديجان الى القصر الملكي في ١٠ يولية . ولكن الشعب في لوندره لم يكن راضياً عن هذا الاغتصاب . وكانت ماري من جهة أخرى قد جمعت انصارها ، ونادت بنفسها ملكة ، وارسلت الى الامراء والاعيان تطلب اليهم يمين الطاعة اليها . وكانت في نفس الوقت تعتمد على مؤازرة اسبانيا . وكان افلات ماري اكبر ضربة نزلت بالمتآمرين لانها استطاعت ان تحشد قوى انصارها ، وان تبث دعوتها بين السادة والكافة في مختلف المقاطعات . ولم تمض ايام قلائل حتى زحفت ماري بقواتها على لوندره فاضطرب نورثمبرلند وزملاؤه ، ومزقت قوام بسهولة . وفي الحال قبضت ماري على اللادي جان والقت بها الى البرج في ١٩ يولية ، وقبضت في نفس الوقت على رءوس المؤامرة . واعدمت اللاديجان وزوجها جيلفورد دودلي في البرج في ١٢ فبراير سنة ١٥٥٤ بتهمة الخيانة العليا ، واعدم زعماء المؤامرة . وسجنت ماري اختها اليزابيث في البرج حيناً . وانتهت المؤامرة في سيل من الدماء ، وذهبت اللادي جان ضحية اطماع لم تكن لها ، ومحاولة دبرت رغم ارادتها . واستقر الامر لماري تيودور التي عرفت بعد بماري الدموية لما ارتكبت في اواخر عهدها من سفك رائع باسم الدين

٤ ـ وخلفت ماري تيودور على العرش اختها اليزابيث فكان حكمها عصر انجلترا الذهبي ، وكان فاتحة سلطانها الباذخ وعظمتها الشاملة . ولكن اليزابيث ورثت ما أثاره بطش ابيها هنري الثامن واختها ماري في قلب الكاثوليك من سخط ونقمة ، وقضت اعواماً طويلة من حكمها في مقارعة مؤامراتهم ودسائسهم . وكانت مهمتها شاقة بالاخص لان الكثلكة الفت في ماري استوارت ملكة اسكتلندة (ايقوسيا) معقلاً منيعاً لازكاء هذه الخصومة


الملكة اليزابيث

وحياكة هذه الدسائس. وكانت ماري استوارت ابنة جيمس الخامس ملك اسكتلندة وماري دي لورين ، قد زوجت فتية من فرنسوا الثاني وارتقت مع زوجها عرش فرنسا سنة ١٥٥٩ ولكن أمد ملكها لم يطل اذ توفي زوجها بعد عام ونصف ، فغادرت فرنسا الى وطنها اسكتلندة . وكانت الخصومة تضطرم بينها وبين اليزابيث منذ الساعة الاولى ، لان ماري استوارت حينما توفيت ماري تيودور طالبت بعرش انجلترا باعتبارها حفيدة لهنري السابع ، وتجاهلت وجود اليزابيث لانها ابنة غير شرعية لهنري الثامن ، وتسمت بملكة اسكتلندة وانجلترا وارلندة . ولم تكن اليزابيث في ذلك الحين قد

بلغت الثلاثين فلم تكن خصيمة لماري استوارت كملكة فقط بل كامرأة ايضاً . وكانت تتفوق على ماري بالذكاء والتربية ، ولكن ماري كانت تتفوق عليها بجمالها الباهر وظرفها الخلاب . وكان هذا في نظرها جريمة لا تغتفر


ماری استوارت

ولما استقرت ماري استوارت في ادنبورج اندفعت الى خوض غمار شائكة من الدسائس الغرامية فثارت فوق رأسها العواصف من كل ناحية ، وهب السادة والاشراف لمحاربتها حتى اضطرت الى ان تفر الى انجلترا حيث وعدتها ابنة عمها اليزابيث بالمعونة والحماية ولكنها ما كانت تصل الى انجلترا حتى اعتقلتها اليزابيث ، وعولت على ألا تتركها أو تفلت من يدها ، وان تحطم في شخصها مؤامرات الكثلكة . وكانت الملكة الاسيرة في الواقع محوراً لمعترك شاسع من الدسائس التي يدبرها انصارها في رومة ومدريد وباريس ، وكانت آمال الكاثوليك في انجلترا واسكتلندة تجتمع حولها ، وتتوقف على استعادتها لعرشها وسلطانها

وتبدأ سلسلة المؤامرات التي كانت ماري تدبرها أثناء اسرها لمناوأة عدوتها واستعادة ملكها بمؤامرة وضعتها مع الدوق نورفولك وكان الدوق يطمح الى الاقتران بها ، فبدأت بين الاثنين مراسلات

سرية تفيض عطفاً وكآبة ، وعول الدوق على ان يخوض غمار الدسائس السياسية ، وتعهد باثارة الكاثوليك في انجلترا اذا امده فيليب الثاني ملك اسبانيا بقوة يرسلها في نفس الوقت الى انجلترا . غير ان هذه المؤامرة الاولى لم تلبث ان فضحت اذ ضبطت رسالة سرية من فيليب الثاني الى ماري استوارت ، وترجمت ، ووقفت اليزابيث على تفاصيل المشروع كله . فقبض على دوق نورفولك . وحوكم ، واعدم . وثار الرأي العام البروتستانتي مطالباً بمحاكمة ماري استوارت ، فاجابت ماري انها وهي ملكة اجنبية مستقلة اعتقلت في انجلترا اتهاكا لكل قانون وعدالة ، حرة في ان تدافع عن نفسها كيفما استطاعت . ولم تر اليزابيث ان تختار هذه الفرصة لانزال ضربتها حتى ينضج السخط على ملكة اسكتلندة

فاستمرت ماري في دسائسها . وكانت عين اليزابيث ساهرة فكلما وضعت الملكة الاسيرة اسس مؤامرة او مكيدة جديدة اكتشفت وحوكم الشركاء واعدموا ، حتى ذهب في سبيل هذه المحاكمات المتوالية عدة من كبراء السادة والاشراف

وعندئذ ضج البروستانت ورأوا حياة ماري ، بالرغم من كونها اسيرة تحاط باقسى ضروب الرقابة والحجر ، خطراً دائماً على ملكتهم وعلى دينهم فاصدر البرلمان قانوناً جديداً يقضي باعدام كل من يثبت انه ائتمر بحياة الملكة « وكل من تدبر لاجلهم » هذه المؤامرات بشرط ان يكونوا على علم بها ، فكان من الواضح ان المقصود بتلك الفقرة هي الملكة الاسيرة . ولم يبق الا انتهاز فرصة لتطبيق هذا التشريع الجديد . وبينما كانت ماري منهمكة في

تدبير مشاريعها للفرار والانتقام ، اخذت اليزابيث وانصارها في تدبير شرك تؤخذ به ملكة اسكتلندة

٥ ـ ولم يكن هذا الشرك سوى وضع مؤامرة تستدرج ماري استوارت الى العلم بها والموافقة عليها. وهذا ما عني به والسنجهام احد وزراء اليزابيث . فقد عهد الى قسيس فتى يدعى جيفورد ينتمي الى اسرة كاثوليكية متعصبة ان ينظم مؤامرة لاغتيال اليزابيث حتى اذا تم تدبيرها اخبرت بها ماري استوارت ، وحملت بوسيلة من الوسائل على ان تكتب بيدها رسالة تثبت فيها علمها بالمؤامرة واشتراكها في تدبيرها . فاستطاع جيفورد ان يتصل بالسفير الفرنسي ، وان يتبادل مع ماري استوارت مكاتبة سرية كان يرقبها والسنجهام . ثم سافر الى فرنسا ليتصل هناك باصدقاء الملكة الاسيرة ، واتصل هناك ايضا بسفير اسبانيا . ثم عاد الى لوندرة واخذ يثير زعماء الكثلكة ، ويذيع بينهم ان فيليب الثاني قد وطد عزمه على غزو انجلترا لينقذ الملكة ، وليعيد على يدها سلطان الكثلكة في انجلترا ، وانه لا بد من قتل اليزابيث حتى تستطيع ملكة اسكتلندة ان تستعيد حقوقها بلا منازع . ثم دخلت المؤامرة في طورها الاخير حيث تعرف جيفورد بفتى كاثوليكي متعصب يدعى انتوني بابنجتون تعهد بقتل اليزابيث واستطاع ان يجذب الى مشروعه عدة فتيان آخرين . وعقدت المراسلة السرية بين الملكة الاسيرة وبين بابنجتون . ويروى ان الرسالة المنشودة ضبطت في ١٧ يولية سنة ١٥٨٦ ، وفيها ترد ماري استوارت بالارقام السرية على رسالة لبابنجتون بالموافقة على مشروعه ، ونصائح اليه لتأكيد

النجاح . وكان المترجم لهذه الرسالة أحد أعوان المؤامرة المزعومة وهو توماس فلبس ، وكان بارعاً في ترجمة الرسائل الرقية وتزوير الرسائل. ففي الحال قبض على بابنجتون وشركائه وسجنوا في البرج، ثم بدأت محاكمتهم ، وماري استوارت لا تعلم في عزلتها شيئاً من ذلك . ثم عذبوا ، فهلكوا أثناء التحقيق بين أشنع ألوان العذاب دون أن يعترف أحـد منهم باشتراك ملـكة اسكتلندة في تدبير المؤامرة

ولـكن اليزابيث لم تتردد طويلا ازاء اضطرام الرأي العام ، وتحريض وزرائها ، فأصـدرت في ٥ اكتوبر سنة ١٥٨٦ قراراً بانتداب لجنة كبرى لمحاكمة ماري استوارت تتألف من اكثر من خمسين عضواً من الاشراف وأعضاء المجلس الخاص والقضاة . ثم أصدرت أمرها بالقبض على ماري استورت ، فقبضت عليها قوة كبيرة من الفرسان ، وقادتها سجينة الى قصر فوذرنجاي حيث تقرر أن تجلس المحكمة . وأبت ماري استوارت أن تجيب اللجنة التي عهد اليها بالتحقيق ، وانكرت صفة المحكمة بادىء بدء ولـكنها هددت بأن تحاكم في غيبتها ودون سماع أقوالها ، وأعلنت بصيغة التهمة ونصها : « ان ماري استوارت الملقبة بملـكة اسكتلندة ، وابنة جيمس الخامس ، نظراً لاتهامها بأنها اذنت بتدبير مؤامرة شائنة لاغتيال ملكة انجلترا وغزو المملكة ستسأل بواسطة اللجنة عن هذه الوقائع » : وكان جواب الملكة الاسيرة عن ذلك أنها وهي ملكة أجنبية لا تعترف بالشرائع الانجليزية ولا قرارات المحكمة . وفي يوم ١٤ اكتوبر مثلت ماري استوارت أمام المحكمة . واعترفت بأنها

كانت تتبادل الرسائل مع سفيري فرنسا واسبانيا، وأنها في حل من أن تفاوض الامراء الاجانب سعياً الى استعادة حريتها . ولكنها انكرت بشدة مكاتبتها لبابنجتون، وأقسمت بأنها لم تأمر قط بحياة البزابيث، وطالبت بابراز الرسائل المزعومة، ومواجهتها بباقي المتهمين . ولكن الاتهام أجاب بأنه لا يملك سوى صور الرسائل فقط، وأما الشركاء فقد اعدموا . ودافعت ماري استوارت عن نفسها بشجاعة وبراعة، ولكن المحاكمة لم تكن الا صورة، وكان الحكم أمراً مقرراً . وفي ٢٥ اكتوبر أصدرت المحكمة حكمها باعدام ماري استوارت

وهكذا صدر الحكم المنشود، ولكن تنفيذه لم يكن سهلاً لان البزابيث كانت تخشى ان يتخذ تنفيذه حجة لتدخل اسكتلندة او فرنسا او اسبانيا . فمضت اسابيع دون تنفيذه . وكانت البزابيث خلال ذلك تبحث عن وسيلة لاتقاء المسئولية، واعدام ماري استوارت بطريقة خفية . وهذا ما كانت تخشاه ماري استوارت نفسها . ولكن البزابيث لم توفق الى تحقيق هذه الجناية، واضطرت اخيراً ان تأمر بتنفيذ الحكم . واعلنت ماري استوارت بذلك في ٧ فبراير سنة ١٥٨٧ . وتقرر التنفيذ في صباح اليوم التالي . فكتبت المحكومة عليها وصيتها، ورسالة لصهرها هنري الثالث ملك فرنسا توصيه بولدها خيراً . وفي فجر اليوم التالي دوى قصر فوذرنجاي بضجيج الجند، وقعقعة السلاح، وقيدت الى ساحة الاعدام . وسقطت رأسها بين صيحات « ادام الله الملكة البزابيث ! »

قال فولتير في كلامه عن هذه القضية : « لم يشهد التاريخ

محكمة ابعد عن الاختصاص الذي تدعي ، واجراءات اشد بطلاناً فقد قدمت اليها صور بسيطة من رسائل ، ولم تقدم اليها الاصول قط . واخذت ضد المتهمة بشهادة امينيها مع انها لم تواجه بهما قط . وزعمت أنها ظفرت بالدليل القاطع من اعتراف ثلاثة من المتهمين اعدموا ، وكان في الاستطاعة تأجيل اعدامهم حتى يواجهوا بالمتهمة . ولو اتبعت ابسط الاجراءات التي تقضي العدالة باتباعها نحو اقل الناس ، واذا كانت الادلة قد نهضت على ان ماري استوارت تبحث عن المساعدة وعن المنتقمين ، فقد كان من المتعذر اعتبارها مجرمة

« لم يكن لاليزابيث عليها سوى قضاء القوي على الضعيف والمنكوب »

ويقول السير والتر سكوت : « ان الادلة التي قدمت على اتهام ملكة اسكتلندة لم يكن فيها ما يكفي لازهاق حياة اخس المجرمين. ومع ذلك فقد كان للجنة من القسوة والنذالة ما اعتبرت معه ماري مجرمة ، ووافق البرلمان الانجليزي على ذلك الحكم الجائر »

٦ ـ ولكن شاء القدر ان تقضي الملكة اليزابيث حياتها عانساً ، وان تموت دون عقب وأن يرث عرش بريطانيا وارلندة ولد ماري استوارت من زوجها اللورد دارنلي الذي تولى عرش اسكتلندة باسم جيمس السادس ثم عرش بريطانيا وارلندة باسم جيمس الاول وكان حكمه لاسكتلندة هادئاً رغداً ولكنه لما تولى عرش بريطانيا سنة ١٦٠٣ تطورت سياسته . وكان قد ربي على التعاليم الكلفينية والبرسبيترية . ولكنه لم يكن يخلص لناحية معينة من المبادىء الكنسية

وكان مع ذلك متعصباً يؤثر اضطهاد الكثلكة ، ثم كان ايضاً يميل الى الحكم المطلق وانتقاص الحقوق الدستورية ، ويعتقد قبل كل شيء في « حق الملوكية الالهي » . وسياسته هي التي مهدت في انجلترا الى الحرب الاهلية القادمة . وكان الكاثوليك يحقدون عليه بوجه خاص لانه خيب آمالهم وانقلب غير بعيد الى اضطهادهم . وكان سخط الحزب الكاثوليكي عليه يشتد يوما عن يوم ، ففي مهد هذا السخط نشأت فكرة المؤامرة الشهيرة التي دبرت لاعادة الكثلكة كدين للدولة واستعادة الكنيسة الكاثوليكية سلطانها الديني والسياسي التي تعرف في التاريخ بمؤامرة الديناميت لان مدبريها رأوا ان يصلوا الى غايتهم بنسف البرلمان الانجليزي عند افتتاحه واهلاك الملك واعضاء المجلسين بتلك الوسيلة . وكان اول من فكر في ذلك المشروع روبرت كاتسباي ، ولد وليم كاتسباي ، وهو زعيم كاثوليكي سجن من قبل مراراً بسبب تعصبه للكثلكة . والظاهر ايضاً انه تلقى وحياً وتشجيعاً من هنري كارنت كبير اليسوعيين في انجلترا ، وكان قد اتهم ايام اليزابيث بالتآمر مع ملك اسبانيا وعفي عنه ولكنه لبث مع ذلك محوراً لدسائس الكثلكة

وفي سنة ١٦٠٤ أفضى روبرت كاتسباي بمشروعه الى نبيلين ينتميان الى أسرتين عريقتين هما جون رايت وتوماس ونتر . فاجتمع الثلاثة وأرسل توماس ونتر الى الاراضي السفلى (هولندة) ليفاوض دوق قشتالة مبعوث اسبانيا ، وكان قادما الى انجلترا ليعقد معاهدة مع جيمس الاول . وانضم اليه هنالك جاي فوكس وهو نبيل من يوركشير كان يعمل في جيش الفلاندر . ولكن المهمة اخفقت ، ولم

يقبل الدوق أن يسعى لان يدخل في المعاهدة شروطا لصالح الكاثوليك . وعلى أثر ذلك انضم الى المتآمرين توماس برسي صديق الكونت نورثمبرلند وكبير حشمه ، وأقسم الجميع يمينا بالاخلاص والكتمان ، وصلوا ، وبوركوا . وعهد الى برسي بالاستعدادات الاولى ، فاستأجر منزلا يلاصق قصر وستمنستر (دار البرلمان) . وكان اجتماع البرلمان قد أجل الى ١١ فبراير سنة ١٦٠٥ ، فاجتمع المتآمرون في لوندرة في نوفمبر سنة ١٦٠٤ في المنزل الذي استأجره برسي ، وبدأوا يحفرون نفقاً ، واستعانوا في عملهم بزميل جديد يدعى كايس ، واخ لجون رايت . واستمروا في عملهم حتى عيد الميلاد . وكان المقدر أن ولي العهد سيرافق أباه الى البرلمان فيهلك معه ، وأما الدوق يورك الذي يغدو عندئذ وارثاً للعرش فقد تعهد برسي باختطافه ، فاذا أخفق في محاولته نودي للعرش بمن يلي من أعضاء الاسرة المالكة . واتفق المتآمرون على ان تكون مقاطعة يورك محط رحالهم وعدتهم ، وان يحشدوا في منازلهم ومنازل أصدقائهم هنالك جماعات مسلحة . وفي أثناء ذلك اجل انعقاد البرلمان ثانية ، واهتدى المتآمرون أثناء الحفر الى مخزن شاسع يقع بالضبط تحت قاعة اللوردات ، فاستأجروه من صاحبه ، ونقلوا اليه عشرين صندوقاً من الديناميت ، وملأوه بالحديد والخشب وتمت أهبتهم في شهر مايو . وأرسلوا رسلهم الى الفلاندر والى البابا للحصول على معاونة من الخارج

ولكن افتتاح البرلمان اجل للمرة الثالثة الى ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ فارتاع المتآمرون حيناً وخشوا أن يكون مشروعهم قد افتضح . فلما

اطمأنوا عادوا الى اهبتهم . واستمالوا الى مشروعهم ثلاثة من كبار الاغنياء هم السير افيرارد دجبي ، وامبرواز ركوود ، وفرنسيس تريشام وذلك لكي يساعدوا بأموالهم في حشد القوات اللازمة . وعهد الى فوكس أن يضع النار في الديناميت بواسطة شريط يحترق في مدى ربع ساعة ، والى السير دجبي أن يعد في واروك جماعة مسلحة ، والى برسي أن يختطف ولي العهد أو أخيه . ولكن عرضت خلال ذلك نقطة دقيقة اختلف عليها المتآمرون ، وهي اخطار الكاثوليك من أعضاء مجلس اللوردات حتى لا يذهبوا ضحية بريئة . وكان تريشام أشدهم تمسكاً بهذا الاخطار لأن ابنتيه كانتا زوجين لاثنين من اللوردات هما مونتيجل وستورتون . فأبى المتآمرون اذ خشوا أن يكون فشل المؤامرة وهلاكهم جميعاً في هذه الخطوة وانفصل عنهم تريشام . وحدث بعدئذ ان وصل الى اللورد مونتيجل خطاب من مجهول يحذره فيه من شهود جلسة الافتتاح ويناشده ألا يعرض حياته للخطر لان نكبة هائلة ستقع يومئذ . ولم يعرف كاتب هذا الخطاب بالضبط ولكن الظاهر أنه هو تريشام أشفق على حياة صهره وعرض اللورد مونتيجل هذا الخطاب على كثير من زملائه فقرروا ألا يعيروه اهتماما . وعلم المتآمرون بذلك ولكنهم استمروا في أهبتهم . ولكنهم ارتاعوا بعد ذلك اذ علموا ان الخطاب عرض على الملك في ٣١ أكتوبر . فغادر بعضهم لندرة واختفى آخرون فيها على قدم الفرار . ولم يصر على التنفيذ منهم سوى فوكس . وكان مغامراً شجاعاً وافر الجرأة . فاختفى في نفس الكهف الذي يتكدس فيه الديناميت . ولكن الريب تفاقم . وفي

يوم ٤ نوفبر بدأ الحاجب (كبير الامناء) واللود مونتيجل البحث، واشتبه في استئجار برسي لمنزل لا يسكنه، وكون قبوه قد ملىء باخشاب لا لزوم لها. فتقرر عندئذ تفتيش جميع الاماكن المجاورة ونفذ القرار في الحال. وفي مساء نفس اليوم قبض على فوكس خارجاً من القبو، وضبط معه الشريط المعد للاشعال ووجد القبو غاصا بصناديق الديناميت

وفي الحال قدم فوكس الى المجلس الخاص والى الملك. فاقر بمشروع المؤامرة وتفاصيله ولكنه لم يعترف على أحد من شركائه. وما علم المتآمرون بذلك حتى تفرقوا في غالة وواروك يحاولون اضرام الثورة. ولكنهم لم يظفروا بكثير من الانصار. ولحقت بهم في هولبيش قوة ملكية فدافعوا عن انفسهم ببسالة، ولكنهم هزموا، وقتل رايت واخيه وبرسي وكاتسباي، وجرح ونتر وركوود، ووقع الباقون اسرى. ومات ترشام في السجن. وحوكم روبرت وتوماس ونتر، وفوكس، وكايس وركوود وجرانت في وستمنستر امام محكمة خاصة واعترف بعضهم، وقضى عليهم جميعاً بالموت، وهلكوا في اروع صنوف العذاب. وحوكم جارنت كبير اليسوعيين ايضاً، وأعدم شنقاً في ٣ مايو سنة ١٦٠٦. وهكذا فشلت المؤامرة الكبرى، ولم تجن منها الكثلكة سوى فقد جماعة من اعلامها، وزيادة الريب في نياتها، واشتداد الوطأة عليها

٧ ـ وفي عهد جيمس الاول هلك السير والتر رالي بتهمة الخيانة والتآمر. وكان رالي من أشهر المغامرين من رجالات البحر والاكتشاف في عهد اليزابيث. وكان من رجالها المقربين، عينته قائداً

لحرسها ، وأغدقت عليه العطف والهبات . فكان هذا مثار الظن حتى قيل ان اليزابيث كانت خليلة له . وفي سنة ١٥٩٢ أحب رالي وصيفة من وصيفات الملكة تدعى اليزابيث ترجمورتون، ونشأت بينهما علاقات غرامية سرية . ولكن الملكة اكتشفت أمرهما فألقت بهما حيناً الى البرج . فلما اطلق سراحه قام بعدة رحلات وغارات بحرية . ولكنه اتهم في فاتحة حكم جيمس الاول بالتآمر والخيانة العليا فزج ثانية الى البرج . وقضي عليه بالاعدام ، غير ان هذا



السير والتر رالى

الحكم استبدل بالسجن ، فلبث يرسف في أغلاله حتى سنة ١٦١٦ وعندئذ اطلق سراحه ليتولى قيادة حملة بحرية. ولكنه كان قد شاخ وفقد كل براعته القديمة. فلم تفعل الحملة سوى ان أحرقت بعض المحلات الاسبانية في اميركا . فلما عاد الى انجلترا طالب السفير الاسباني بمعاقبته . وكان في الواقع مغضوباً عليه ولا نصير له في البلاط فقبض عليه ونفذ فيه حكم الاعدام السابق في شهر اكتوبر سنة ١٦١٨

ثم كان حكم تشارلس الاول المشهور في التاريخ الانجليزي . ففيه حاولت الملوكية ان تغتصب الحريات العامة وان تجعل من البرلمان اسماً بلا مسمى ، ووقع ذلك النضال المشهور بين تشارلس الاول

وبين البرلمان ، فلم ينته الا بالثورة ومحاكمة هذا الملك الطاغية واعدامه سنة ١٦٤٩ . وحكم زعيم الثورة أوليفر كرمويل وجيشه حيناً . ولكن الامة عادت بعد أن هدأت الامور ، وانتخب برلمان جديد ، الى دعوة تشارلس الثاني ولد تشارلس الاول الى تولى العرش فاستعاد آل استوارت بذلك عرشهم وملكهم

٨ — وفي عهد تشارلس الثاني وقعت مؤامرتان شهيرتان و نت الاولى ذات صبغة دينية نسب تدبيرها الى البابوية ، وذكر فيها اسم اليسوعيين . وخلاصتها ان قساً من قساوسة الكنيسة الانجليزية يدعى تيتوس اوتس جرد من صفته الدينية لسوء سلوكه فارتد عن البروتستانتية واعتنق الكثلكة ، وطاف حيناً في القارة وتجول في كليات اليسوعيين ، وتشبع اثناء طوافه بفكرة استرداد الكثلكة للكنيسة الانجليزية الثائرة عليها . والظاهر أن هذه الفكرة قد اضطرمت في مخيلته الهائمة ايما اضطرام حتى غدت فكرة ثابتة وحلماً دائماً . فكان يدعو اليها ، ويقول ان البابا قد عهد الى اليسوعيين بحكم انجلترا ، وان اليسوعيين هم الذين رفعوا كل احبار الكثلكة ، وكل النبلاء والسادة الى مراتبهم سواء في الكنيسة او الدولة . والظاهر ان تيتوس اوتس كان يعبر بهذه الدعوة عن مؤامرة كبيرة حقيقية ، دبرها اليسوعيون وانصار الكثلكة لاحراق مدينة لوندرة ، وذبح جميع البروتستانت ولا سيما كبار الاحبار وعظماء الدولة ، وان يقتل الملك في نفس الوقت ، وان يقدم جيش فرنسي الى ارلنده ليشد بارز الثوار . هذا على الاقل ما اذيع يومئذ ، فآمن به الرأي العام المضطرب رغم ما يشوبه من مبالغة . فقبض

على تيتوس اوتس وجماعة من اعيان الكثلكة منهم ادوارد كولمان ، وكان من اشدهم دهاء ودساً ، وضبطت لديه اوراق اعتقد المحققون انها تؤيد مزاعم اوتس ، وان كانت في الواقع لا تحتوي غير اشارات الى ما تلقاه الكثلكة من الاضطهاد ، وما تؤمل من انتصاف . ولم تمض ايام على ذلك حتى حدث حادث زاد في اضطراب الرأي العام وايمانه بحقيقة المؤامرة ، هو أن السير جودفري ، وهو القاضي الذي استجوب اوتس قد اختفى ، فبحث عنه في كل مكان حتى وجدت جثته في حقل بالقرب من لوندرة . وكان الموت جنائياً ، ولكن قاتله لم يعرف قط وان كان المرجح انه كاثوليكي متعصب اعتقد انه ينتقم بذلك لدينه واخوته . وهنا انفجر بركان السخط من كل ناحية ، وقبض على مئات من الكاثوليك وفتشت دورهم في كل مكان ، وعينت سريات قوية للطواف بالمدينة ، ونصبت المدافع حول دور الحكومة ، وعرضت جثة القاضي القتيل امام الجماهير اياماً ثم دفنت في احتفالات ومظاهرات كبيرة ، وسالت الدماء البريئة باسم العدالة (سنة ١٦٧٨) ، واعفي اوتس من العقوبة اذ اعتبر اعترافه فدية عن اثمه

ولم تمض بضعة اعوام على ذلك حتى وقعت المؤامرة الثانية . وكانت المعركة الدستورية التي استعرت ايام تشارلس الاول بين العرش والبرلمان ، قد بدأت تضطرم ثانية في اواخر عهد تشارلس الثاني . ولكن خصوم تشارلس الاول كانوا اغلبية ساحقة في البرلمان وكانوا يعملون باسمه ، ومن ورائهم سواد الامة ، وفي يدهم معظم موارد الدولة . اما خصوم تشارلس الثاني فكانوا اقلية ، وكانوا افراداً

ولم يكن من ورائهم رأي عام قوي يشد بأزرهم . وكان واضحاً أن الثورة في مثل هذه الظروف صائرة الى الفشل . ولكن زعماء الحزب الساخط فكروا في المقاومة مع ذلك ، ووضعوا مشروعاً لاثارة الثورة في بعض الاقاليم ، وأخذوا في مفاوضة بعض زعماء اسكتلندة الناقمين . واذ هم كذلك بين الاقدام والاحجام ، رأى جماعة من أنصارهم في نفس الوقت ان قتل الملك وأخيه خير وسيلة لاسترداد حريات انجلترا وسلطان البروتستانتية ، فوضعوا خطة لتنفيذ الفكرة ، وعينوا الزمان والمكان . وكان دوق مونموث وهو ولد غير شرعي لتشارلس الثاني من زعماء المعارضة وخصوم العرش ، ولكنه لم يكن يذهب في خصومته الى حد التفكير في قتل أبيه ، ولذا أخفى أصحاب فكرة الاغتيال عنه كل شيء . وكان أصحاب فكرة الخروج يرمون الى اثارة الامة ضد الحكومة القائمة والعرش ، وأما المؤامرة الصغرى وهي التي تعرف بمؤامرة « راي هاوس » فكانت ترمى الى اغتيال الملك وولي عهده

ولكن المشروعين افتضحا على يد بعض الشركاء الجبناء . وكانت فكرة اغتيال الملك كما رأيت بعيدة عن زعماء المعارضة الذين فكروا في تدبير الثورة ، ولم يفكر فيها سوى بعض الانصار المخاطرين . ولكن تشارلس الثاني وحكومته آثرا أن يمزجا بين المشروعين، وأن ينسبا تهمة الاغتيال الدنيئة الى جميع الزعماء، والفى تشارلس الفرصة سانحة لينزل بخصومه ضربة حاسمة ، فقبض على مونموث ، واسكس وسدني ، ووليم رسل . وفر شافتسبوري الى هولندة ، وتضرع مونموث الى أبيه فعفا عنه ، ولكنه سافر بعد ذلك الى هولندة ،

وانتحر اسكس في البرج. وحوكم سدني ورسل ، وقضي باعدامهما دون أن تقدم على جرمهما أدلة ما ، واعدما بقطع الرأس . وشنق آخرون من صغار المعارضين ، وهاجر كثيرون اتقاء لبطش الحكومة ، وتوالت المحاكمات والمصادرة ، حتى مزق المعارضون ، واستطاع العرش أن يعود الى الافتئات على الحريات الدستورية بلا منازع

٩ ـ وتوفي تشارلس الثاني فجأة في فبراير سنة ١٦٨٥ ، وظهرت عليه عند الوفاة اعراض غريبة ، فسرت في الحال اشاعة السم . وكانت تهمة السم تتوالى في البلاط الانجليزي منذ عصر جيمس الاول ، فقد اتهم جيمس الاول بانه قتل الامير هنري بالسم ، واتهم تشارلس الاول بانه سم جيمس الاول ، واتهم كرمويل بانه سم الاميرة اليزابيث ، ثم قيل بان كرمويل نفسه مات مسموماً . وكانت هذه التهمة تلقى بالنسبة لموت تشارلس الثاني اذناً صاغية ، لان الرأي العام كان قد اعتاد في اعوام تشارلس الاخيرة ان يسمع بالمؤامرات التي يدبرها زعماء الكثلكة لاغتياله من آن لآخر ، وان يرى المحاكمات تترى من اجل هذه التهمة . فكان الاعتقاد العام بان تشارلس هلك مسموماً في مؤامرة دبرها خصومه من المعارضين او الكاثوليك . بيد انه فرض لم يتعدَّ الحدس والظن

فخلفه اخوه جيمس الثاني . وكان الدوق مونموث كما تقدم ولداً غير شرعي لتشارلس من خليلته لوسي والترس ، او كان كما يقول البعض ولد الكولونل روبرت سدني . وعلى اي حال فقد احبه تشارلس واحسن تربيته ، ورفعه دوقاً لمونموث ، ثم عينه قائداً للحرس

وكان مونموث محبوباً لجماله وشجاعته وتعصبه للبروتستانتية . وكانت له اطماع خفية في السلطان وربما في العرش . وقد رأيت انه كان من اقطاب المؤامرة التي دبرها المعارضون لاضرام الثورة ، وانه سافر الى هولندة بعد أن عفا عنه ابوه . فلما توفي تشارلس ، وتولى جيمس الثاني العرش ، تحركت اطماع مونموث القديمة . وكانت هولندة يومئذ ملاذاً لزعماء الخوارج على العرش ومعارضيه وكان الدوق ارجيل محور الدسائس التي تدبر هنالك لمحاربة العرش ، فحرض مونموث على ان يرفع علم الثورة ، ووعده بالتأييد والمؤازرة . وصادف هذا التحريض ما يجيش به نفس مونموث من الاطماع ، فقصد الى انجلترا ، ونزل في ثغر ليم ريجيس ، ودعا الى الثورة على جيمس الثاني ، فلم يجب دعوته الا جموع قليلة ، ولحقت به القوات الملكية في سدمور (سنة ١٦٨٥) ، فهزمت جموعه المختلة ، واخذ اسيراً الي لوندرة ، حيث قطعت رأسه بعد ذلك بايام قلائل

ونقف عند هذا القدر من سير المؤامرات السياسية في انجلترا . والواقع اننا قلما نعثر بعد ذلك في التاريخ الانجليزي بمؤامرة سياسية هامة . ويرجع ذلك كما قدمنا الى ان المعركة التي لبثت زهاء نصف قرن تضطرم في انجلترا بين الدستور والحكم المطلق ، قد انتهت اخيراً بفوز النظم الدستورية الحرة وهزيمة عرش يناضل من اجل الطغيان والعبث بالحريات العامة ، ونجت انجلترا بذلك من شر الثورات والعواصف السياسية التي لبثت تجوس خلال الامم الاوربية زهاء قرنين آخرين

الفصل الرابع

المؤامرات السياسية فى روسيا

(١) بلاط القياصرة . اسطورة دمترى الزائف . ايفان الهائل . ولده فيودور . بوريس جودونوف . عزمه واطماعه . الطفل دمترى . نفيه . استئثار جودونوف بالحكم . مقتل دمترى . وفاة فيودور . ولاية جودونوف للعرش (٢) بعث دمترى . من دمترى الزائف ؟ ادم فشفتسكى ودعواه. اهبة جودونوف . وفاته . تغلب المدعى (٣) القيصر دمترى . عزمه وخلاله . شويسكى واطماعه . الثورة ومصرع دمترى (٤) شويسكى قيصراً . المدعى الجديد . زحفه على موسكو . بلاط توشينو . الدعاة (٥) بطرس الاكبر وولده الكسى . الحزب المحافظ . الوحشة بين الكسى وابيه . حرمانه من العرش . مطاردة المتآمرين . محاكمة الكسى ووفاته . روايات متناقضة (٦) كاترين الاولى . بطرس الثانى الامبراطورة حنه وايفان السادس . البزابيث بتروفنا . المعارضون . تحرك البزابيث . انتزاعها للعرش (٧) بطرس الثالث . صوفيا فون انهالت او كاترين الثانية . اطماعها ودسائسها . خصوم القيصر . المؤامرة . تحرك كاترين . المعركة . وفاة القيصر . كاترين الكبرى (٨) بول الاول وسياسته . ولده إسكندر . المؤامرة . اغتيال القيصر . اسكندر الاول قيصرا . سخط بونابارت (٩) النهليزم . منشؤها وتطورها . النضال بينهما وبين القيصرية . عهد الارهاب . الضحايا . اخر اطوار النهليزم

١ – لم يبق أمامنا من الامم التي ازدهرت فيها المؤامرة السياسية ، والتي يجدر ان تعامل مؤامراتها في فصل خاص سوى روسيا ، فمنذ فاتحة العصور الحديثة نرى بلاط القياصرة مسرحاً لسلسلة لا نهاية لها من الدسائس الدموية ، وسنرى كما رأينا في سير المؤامرات في الدولة البيزنطية ، ان الجريمة كانت وسيلة لمعظم القياصرة الروس في اغتصاب الملك

ويفتتح تاريخ المؤامرات السياسية الكبرى في روسيا بحادث فريد في تاريخ الامم الحديثة ، كان مبعثاً لمؤامرات شهيرة عدة في ظروف وعصور متعاقبة ، ونعني به قصة ديمتري الزائف . وهي تكاد تكون أسطورة اكثر منها قصة وتشبه من وجوه كثيرة حادثة سمرديس الساحر التي أتينا عليها فيما رويناه من أنباء فارس القديمة ، ثم تشبه أيضاً قصة المهدي المنتظر في الاسلام . فكما أسس دعاة المهدية دولاً ، كذلك تربع اكثر من واحد من أولئك الذين زعموا في فرص عدة أنهم من ولد « ايفان » الهائل على عرش القياصرة . ولكن أسطورة المهدي المنتظر تجد أصلها في تقاليد الاسلام الدينية أو بالحري في الدعوات الروحية التي صاغتها الفرق والاسر المختلفة لتأييد اطماعها . أما أسطورة ديمتري الزائف فترجع الى ضرب من الخيال أو الوهم العام ، وتجد أصلها في حقوق الوراثة والاسرة العادية

تصور انه بعد موت القيصر ايفان الهائل سنة ١٥٨٤ م ، وولاية خلفه وولده الاكبر القيصر فيودور ، ثم نفي ولده الاصغر ديمتري طفلاً ، يقتل ديمتري الطفل هذا ضحية لمغتصب هو الوزير بوريس

جودونوف ، ثم يرتبع هذا المغتصب القاتل على عرش القياصرة ، ولكن لا تمضي أعوام حتى يبعث ديمتري القتيل من قبره فجأة وينهض لمطالبة المغتصب بعرشه ، فيؤمن الشعب الروسي ببعثه ويلتف حوله وينزع المغتصب عرشه ، ويغدو ديمتري بذلك قيصراً . ثم تصور انه يقتل ثانية ثم يبعث ليعود قيصراً وهكذا . وتصور ان عدداً لا نهاية له من الدعاة يتعاقبون في فرص وتواريخ مختلفة ، وكل يزعم انه اما ديمتري المقتول وقد بعث ، أو انه من ولد القيصر القتيل ، وان الشعب الروسي يتقدم في معظم الاحيان لتأييد أولئك الدعاة مؤمناً بدعواتهم ومزاعمهم

ولتفصيل الحوادث نقول : لما توفي ايفان الهائل سنة ١٥٨٤ خلفه ولده فيودور . وكان خاملاً ضعيفاً . فاستأثر بالحكم والسلطات الحقيقية رجل داهية وافر الذكاء والعزم يعتبر من أعظم شخصيات التاريخ الروسي ، هو الوزير بوريس جودونوف . وكان وزيراً لايفان من قبل . وكانت نفسه تحدثه مذ توفي ايفان باغتصاب العرش . فلم يكن له همّ من ذلك الحين الا ان يبعد كل منافسيه ، وأن يسحق كل عقبة تحول دون بغيته . ولكن ايفان الهائل ترك ولداً آخر أصغر من فيودور يدعى ديمتري . وكان عند وفاته طفلا ، ولكن مجلس الاعيان خشي أن يكون الطفل محوراً للدسائس فأمر بابعاده مع أمه وجميع أقاربه الى اوجلتش . وكان بوريس جودونوف يستر أطماعه الحقيقية بقناع كثيف من الرياء ، ولكنه لم ينس مع ذلك ان ينتهز كل فرصة للتمهيد الى تحقيقها ، فكان يبطش تباعاً بخصومه بحجة المصلحة العامة أو حماية العرش ، ويخلق من حوله في مناصب

الحكم والرياسة اشخاصاً من انصاره وصنائعه . وكان اولئك الخصوم الذين سلبهم جودونوف كل نفوذ وسلطة يتجهون بأبصارهم نحو الطفل ديمتري . وكان العرش سيؤول اليـه بطبيعة الحال بعد وفاة أخيه فيودور ، وعندئذ تثأر أسرته المنفية ويثأر انصاره لانفسهم ، ولم يكن جودونوف غافلا عن ذلك . ففي سنة ١٥٩١ علم الناس ان الامير الطفل ديمتري قد قتل ، فارتفع الصوت العام في الحال متهماً جودونوف بتدبير هذه الجريمة الشنيعة ، وأراد جودونوف أن يخمد الصيحة العامة فأمر بتحقيق الجريمة على يد جماعة من صنائعه ، وذهب هؤلاء في الجرأة الى حد القول بأن ديمتري مات منتحراً ، وان اهل اوجلتش وأسرة الامير قد قتلوا الابرياء بزعم أنهم قتلة الامير . فكانت نتيجة التحقيق اهلاك آل ناجوى أقارب الامير وتخريب اوجلتش ، واشتداد بأس الطاغية

ثم توفي القيصر فيودور دون عقب فاعتنقت أرملته وهي أخت جودونوف الرهبانية . فقام مجلس الاعيان حيناً بالامر ، برياسة البطريق ايوب الذي كان من خلق جودونوف وصنائعه . وكان جودونوف يرقب العرش كما يرقب الصياد فريسته . وكان الاعيان والكبراء من جهة أخرى يتجهون بأبصارهم نحو جودونوف . فاجتمعوا واختاروه ملكا . ونزل جودونوف على ارادة ممثلي الامة وتقبل العرش ، ونال بذلك أمنية حياته

٢ ــ وكان حكماً مجيداً في معنى من المعاني ، فمضت عدة أعوام ويد جودونوف القوية تسير اقدار روسيا بمهارة وحزم . ولكن حدث حوالي سنة ١٦٠٣ ان ذاعت فجأة اشاعة غريبة مفادها ان

ديمتري الامير المقتول ، ولد القيصر إيفان ، ما زال حياً ، وانه يجد في الاهبة لاستعادة الملك

فمن هـذا الشخص الغريب الذي ينعتـه المؤرخون الروس « بديمتري الزائف ؟ » هل كان حقاً ولد ايفان الهائل ، انقذته عناية أسرته من خنجر القتلة ، وابدلوه في التابوت كما يروى بولد كاهن ؟ أم هل كان ، كما زعم القيصر والبطريق ، شخصاً يدعى جريجوري او تربييف ، وهو قس شريد ، كان في وقت ما أميناً للبطريق ايوب ، فاستطاع بذلك ان يقف على أسرار الدولة وان يستثمرها ، ثم نزح الى القوقاز فمهر هنالك في الفروسية والحرب ؟ هذه مسألة ما زالت على التاريخ سراً مغلقاً

وعلى أي حال ففي نحو سنة ١٦٠٣ دخل فتى في خدمة سيد بولوني يدعى آدم فشفتسكي ، وهنالك مرض او تظاهر بالمرض ، وافضى الى قسيسه بانه ديمتري ولي العهد ، وانه فر من قتلة اوجانتش ، وتقدم فشفتسكي لتأييد خادمه . ثم تقدم لتأييده منزيك حاكم صاندومير ، وزوجه من ابنته مرينا التي اقسم المدعي ان يجعلها قيصرة . وذاعت قصة بعث ديمتري في طول بولونيا وعرضها ، وتقدم الاحبار والكبراء لتأييد دعوته ، والتفت حوله جماعة كبيرة من السادة والاشراف . وكان الجهل ما يزال أثيلاً في المجتمع الروسي ، وما زال يعصف بعقليته شغف الخرافة والخوارق . ولم يعرف التاريخ أمة كروسيا اخذت مراراً وتكراراً بنفس الاسطورة القائلة ببعث أمير قيل انه قتل ، فنحن نعرف من المحفوظات السرية الروسية انه ظهر في روسيا أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر مئات من الأدعياء الذين

زعموا انهم ديمتري ولد ايفان او الكسي ولد بطرس الاكبر او بطرس الثاني او بطرس الثالث حتى لقد يقال ان الشعب الروسي كان أشد شعوب الارض ايماناً بنظريات البعث والحلول . ومع ذلك فقد استطاع بوريس جودونوف ان يخمد كل نزعة الى الخروج والثورة حيناً ، وان يبعث اليأس الى انصار ديمتري ، وأصدر البطريق ايوب ، وشويسكي الذي قام بتحقيق جريمة اوجلتش بيانات الى الشعب اكد فيها موت ديمتري ، وان المدعي انما هو أوتر بيف ليس غير . وارسلت مثل هذه التأكيدات الى الملوك والكبراء في الدول الاخرى ، ولكن المدعي ما زال يأخذ في الاهبة حتى حشد قوة كبيرة من المنفيين والمرتزقة . ثم اخترق سهول روسيا . وكان الشعب أينما سار يهرع الى تصديقه وتأييده . ومن الغريب ان الوهم سرى الى ألباب الجند الذين بعثهم جودونوف لمحاربة المدعي فاحجموا عن قتاله بادىء بدء . على ان بوريس جودونوف لم يعش حتى يشهد خاتمة المأساة فتوفي سنة ١٦٠٥ بعد ان أوصى وزيره باسمانوف والبطريق وشعب موسكو خيراً بولده البريء فيودور . ولكن باسمانوف ماكاد يتولى قيادة الجيش حتى آمن بان الجند والزعماء معاً لا يريدون قتالاً من أجل آل جودونوف ، فاعتزم امره وآثر الخيانة قبل ان يغدو لها ضحية ، وانضم سراً الى « ديمتري » وأعلن الى الجند بانه حقاً ولد إيفان الهائل ، وانه سيد روسيا الشرعي ، ثم بادر في طليعة جنده بالركوع أمام المدعي ، فسار ديمتري الى موسكو ، وفي الحال ثار أنصاره في المدينة وذبحوا ولد جودونوف وارمله . وانتهت بذلك أسرته في سيل من الدماء

٣ ـ وفي الحال قبض القيصر ديمتري على كل سلطة . ثم اجتمع بوالدته المزعومة ماري ناجوى فآثرت ان تعترف به اما لتحقيق مشاريع انتقامها أو لأنها اعتقدته حقاً ولدها الحبيب أفلت من يد قاتليه ، فاعترفت بامومته ، وعانقته أمام الناس ، وأغدق « القيصر » عطفه وكرمه على آل ناجوى ، آله المزعومين . وتولى القيصر الجديد تدبير الامور بنفسه ، وكان الامراء والاعيان يعجبون بما يبديه من حزم وكفاية . ولكن ديمتري كان رجلاً مصقولاً وافر الثقافة فكان يؤثر العادات الغربية ، ويؤلم الامراء والاعيان بتهكمه . وكان يؤثر الاجانب ويعلا بهم مناصب الدولة، فلم يمض عام على تربعه عرش القياصرة حتى سخط عليه الامراء والاعيان وأهل موسكو جميعاً ، وحتى كانت الاذهان قد اعدت لثورة جديدة

وكان شويسكي روح المؤامرة الجديدة ، وشويسكي كما تقدم محقق جريمة اوجلتش وصاحب البيان الذي أصدر لتكذيب دعوة ديمتري . وكان فوق ذلك قد حاربه أيام جودونوف وهزمه . وكان باسمانوف قد وشى به لديمتري، فحوكم وقضي باعدامه. ولكن ديمتري عفا عنه في آخر لحظة . فلبث يتربص الفرص ليحقق اطماعه في العرش أيضاً ، وغدا محور الدسائس التي يدبرها في الخفاء خصوم القيصر الجديد . وكان القيصر يثق بمن حوله ثقة عمياء . ففي ذات ليلة وثبت به جماعة من الاعيان في قصر الكرملين ، وألقوه من نافذة غرفته الى ساحة القصر وذبحوه . وذبح باسمانوف الى جانبه ، ثم حملت جثة الدعي ومثل بها واحرقت في الساحة العامة باعتبارها

جثة ساحر ، ثم وضع حطامها في مدفع اطلق صوب بولونيا التي قذفت به الى روسيا !

واضطرب الشعب ، وهاجت الخواطر ، واختلفت الآراء فيمن يلي الملك ، ولكن شويسكي لم يصبر حتى يوليه الاعيان نواب الامة ، فدخل الكرملين وتربع على العرش ، ومن ورائه الشعب الثائر

٤ ـ وكان القيصر فاسيلي شويسكي حازماً قوي العزم والهيبة ، ولكنه كان يؤثر سياسة الدس والايقاع . ولم تكن أسباب الثورة الاخيرة قد هدأت ، بل كانت قد امتدت الى حدود الولايات النائية ونفذت الى جميع الطبقات ، ولم تكن قصة العرش ومأساة ديمتري الزائف قد اختتمت بعد . بل طارت الاسطورة من جديد ، ولم يمض قليل حتى ظهر بدل الدعي دعيان، احدهما قوزاقي من تيريك يزعم أنه ولد القيصر فيودور والثاني أفاق جديد زعم انه ديمتري نجا من خناجر القتلة مرة اخرى ، وكان الشعب قد رأى جثة ديمتري ، ولكن مقنعة، فكان هذا دليلاً في نظر المؤمنين على صدق المدعي الجديد ، وعبثاً حاول شويسكي ان يهدىء الخواطر ، وان يبدد الريب ، بل تفاقم الخطب ، واندلع لهيب الثورة الى كل ناحية وطارت قصة هذا الدعي الجديد في كل مكان

ولسنا نعرف اسم هذا الدعي الجديد ، فهو يعرف في التاريخ فقط بديمتري الزائف الثاني . وسرعان ما هرع لتلبية ندائه القوزاق وجند الولايات الجنوبية . ومن الغريب ان هذا الجيش الثائر ، كان يضم في صفوفه غير هذا الدعي الجريء أربعة أو خمسة ادعياء آخرين ، كل منهم يزعم أنه ولد القيصر ايفان الهائل أو حفيده .

وزحف الدعي بجيشه على موسكو ، وهو يهزم الجيوش القيصرية تباعاً حتى وصل الى توشينو على مقربة من موسكو فاستقر بها ، وأنشأ له فيها بلاطاً وبطانة . ولكن الاعيان والاشراف والعقلاء من الكافة آثروا في النهاية حكم شويسكي على حكم القوزاق والادعياء . ومع ذلك فان الحرب والقلاقل استمرت اعواماً حتى اضطر شويسكي الى التنازل عن العرش ، واعتناق الرهبانية

وكانت بولونيا تشد دائماً ازر الدعاة الذين يهددون عرش القياصرة . فدفعت الى الميدان بدعي جديد ظهر في أقليم بسكوف وزعم انه ديمتري . ولكن تكاثر الدعاة ، وتوالي السفك والارزاء والخطوب ، زعزعت في النهاية ايمان الشعب ، فابتذلت قضية ديمتري الزائف حتى غدت غير بعيد اسطورة ليس غير . ومع ذلك فان التاريخ الروسي يسجل قيام عشرات آخرين من الدعاة الذين زعموا انهم من سلالة « ديمتري » ومن ثم احفاد ايفان الهائل . وقد ظهر هؤلاء في فرص متتابعة وأمكنة نائية من روسيا الشاسعة خلال القرن السابع عشر ، ولكن حركاتهم لم تعد ثورات محلية بسيطة كانت تخمد على الاثر

ومن الصعب ان نقول رأياً حاسماً لا شبهة فيه في امر هذا الشخص المجهول الذي ينعت في التاريخ الروسي « بديمتري الزائف » ونعني به أول الدعاة الذي تربع على العرش، ولكن ليس من ريب في ان الادلة القوية كما رأيت تنهض عليه لا له ، وتميل الى اتهامه والحكم عليه

٥ ـ ولبثت روسيا زهاء قرن تتخبط في غمر الاضطرابات

والزعازع حتى ولي مصائرها بطرس الاكبر، منشيء روسيا الحديثة.
وكان ولده ألكسي يثير جزعه منذ الساعة الاولى إذ نشأ فظاً، غبياً، فاسد الخلال، يفيض ذهنه بالاوهام والتقاليد السخيفة، وسرعان ما غدا محوراً لدسائس الحزب الروسي العتيق الذي حاول ان يتخذه آلة لمحاربة كل اصلاح استحدثه أبوه. ومن ثم كان القيصر قليل العطف عليه، كثير التوجس من سيرته وميوله. وكان أشد ما يخشى بطرس الاكبر دسائس اولئك المحافظين، ولا سيما في الظروف العصيبة التي كانت تجوزها روسيا في


بطرس الاكبر

أيامه، ولم يخف القيصر ريبه في سلوك ولده، فنصحه بالكتابة مراراً وأنذره انه ان لم يقلع عن غيه حرمه من عرشه. ولما يئس من تقويم سيره أراد ان يدفعه الى اعتناق الرهبانية، فأبى واعتذر، فأمره عندئذ بالالتحاق بالجيش. ولكن ألكسي خشي عاقبة غضب والده فآثر الفرار، وفرّ مع خليلته افراجا الى النمسا ثم الى ايطاليا.
فأرسل القيصر رسله في أثره يعده بالعفو وينذره بسوء العاقبة فعاد الى موسكو في فبراير سنة ١٧١٨. ولكن القيصر كان قد اعتزم أمره أزاء ولده، فما كاد الكسي يصل الى موسكو حتى جمع القيصر كبار الامراء والسادة ورجال الدين، وأعلن في مواجهة ولده أنه

يعفو عنه ولكنه يحرمه من ميراث عرشه الى الابد ، واستكتب ولده تنازلا رسمياً بذلك.

وتم ذلك كله طبقاً لبرنامج موضوع . ولكن بطرس لم يرد ان يشمل برأفته أولئك الذين اعتقد انهم محرضو ولده على الائتمار به . وكان الغراندوق (ألكسي) قد صرح في تحقيق بدىء باجرائه بالدور الذي أداه المحرضون في غوايته . والمرجح انه افضى بما أريد ان يفضي به روعة من القيصر . ولكن هنالك ما يدل أيضاً على ان الحزب الروسي المحافظ كان يتصل بالامير أشد صلة ، ويوجهه الى حيث أراد . وقد رأى القيصر في فرار ولده بادرة خطرة وتبين فيه أثر الرجعيين . وعلى أثر ذلك قبض في موسكو على سبعين شخصاً ، وأرسلت أوامر أخرى بالقبض الى جميع أنحاء روسيا . وافضت اعترافات المقبوض عليهم الى القبض على آخرين ، وحقق مع القيصرة السابقة افدتشا والدة الكسي ، ومع الاميرة ماري أخت القيصر . وضبط عند افدتشا أوراق اثبتت فيها تفاصيل مؤامرة ترمي الى عزل القيصر ، واعترفت الاميرتان بان المحرض لهما هو المطران دوسيتي ، والقتا التبعة أيضاً على الغراندوق ، فحوكم دوسيتي وجماعة من الكبراء وحكم عليهم بالموت في ٢٥ مارس سنة ١٧١٨ واعدموا باشنع الاساليب

واستمر التحقيق مع باقي المتهمين في بطرسبرج ، وقامت أدلة جديدة على جرم الغراندوق ترجع بالاخص الى أقوال خليلته وحاجبه . ولكن التحقيق لم يسفر الا عن ان الغراندوق كان يسخط على الاصلاحات التي أدخلها أبوه في الانظمة والحياة العامة ، ويعتزم

هدمها جميعاً متى ولي العرش . وقامت القرائن أيضاً على ان الغراندوق يتزعم في هذه الدعوة الحزب المحافظ ، وان هذا الحزب يلتف حوله منذ أعوام ، وانه يرمي الى قتل كبراء الدولة ، وذبح جميع الالمان المقيمين في روسيا ، وتسليم بطرسبرج للسويد ، وحل الجيش واشراك الغراندوقة ماري في الملك . ولعل بطرس الاكبر كان يؤثر مع ذلك الصفح عن ولده . ولكن بطانة القيصر كانوا أشد قساوة واشد خوفاً من الكسي وأنصاره ، وكانت لهم الكلمة . فامر القيصر بمحاكمة ولده . واستدعيت لذلك الغرض محكمة كبرى من رجالات الدولة واحبار الكنيسة ، فقضت باعدام الغراندوق الكسي رومانوف في ٦ يونيه سنة ١٧١٨ . وأعلن الكسي بذلك الحكم في اليوم التالي . وسرعان ما أصيب بنوبة عنيفة من الصرع . ولم يأت مساء ذلك اليوم حتى أبلغ القيصر ان ولده يحتضر فبادر اليه ، واسترد غضبه ولعناته وباركه وقضى الكسي بعدئذ بقليل ، فامر القيصر ان تعرض جثته في الساحة العامة مدى يومين ، ثم دفن بعد ذلك باحتفال ملكي فخم

وامتدت نقمة القيصر الى عشرات آخرين من الحكام والكبراء والاحبار وغيرهم فعذبوا واعدموا بأروع الالوان والاساليب. ويقول البعض ان موت الغراندوق على ذلك النحو الفجائي لم يكن الا نتيجة لجريمة ، وان القيصر أمر به فقتل غيلة بالسم أو بغيره ، ويزعم آخرون انه أمر بجلده حتى مات . وتذهب رواية ثالثة الى انه اعدم بقطع الرأس . ويرى جمهور من المؤرخين ان في تصرف بطرس الاكبر نحو ولده ما يؤذن بغلظة فؤاده ، ووحشية خلاله ، ولكن مهما كان من حكم التاريخ في ذلك ، فلا ريب ان بطرس الاكبر قد

انقذ روسيا بتحطيم هـذه الجماعة العتيقة ، وان في الظروف الدقيقة التي كانت تجوزها روسيا يومئذ كثيراً مما يخفف سؤله

٦ ـ وتعاقب على عرش القياصرة من بعد بطرس الاكبر : كاترين الاولى فبطرس الثاني ثم حنة بنت بطرس الاكبر ، ثم تولى ايفان السادس طفلا فتولت الوصاية عليه أمه حنة ، وكانت اليزابيث ابنة بطرس الاكبر الثانية ترقب هذه التقلبات بعناية وتتربص من خلالها الحوادث . وكان الالمان قد توغلوا في شئون الدولة يومئذ وذكا السخط القديم على الاجانب بين كبراء الروس . وكانت اليزابيث علم أولئك الناقمين . وكان اسكندر شوفالوف وميخائيل فورنزوف ورازموفسكي وغيرهم من كبراء المعارضين يلتفون حول ابنة بطرس الاكبر ، ويعملون ليل نهار على تقويض الوصاية . وكانوا يعتمدون في ذلك على بعض فرق في الجيش . وكانت سياسة فرنسا في روسيا يومئذ ترمي الى تأييد كل انقلاب يؤدي الى تحطيم نير الالمان وفصم التحالف مع النمسا ، فكان السفير الفرنسي يساعد اليزابيث بالنصح والمال . وكان رجال البلاط من جانبهم يحذرون هذه الدسائس ويدبرون حربتهم لابعاد الفرق الموالية لاليزابيث ، وارسال اليزابيث نفسها الى الدير . ولكن اليزابيث وأنصارها كانوا أشد يقظة وجرأة. ففي ليلة من أواخر ديسمبر سنة ١٧٤٠ ذهبت اليزابيث مع اصدقائها الى الثكنات خفية ، وقالت للجند : « انتم تعلمون ابنة من أنا » فاجابوها : « اماه ، أنا لعلى أهبة وسوف نقتلهم جميعاً » فخطرت عليهم سفك الدماء وقالت: « اني اقسم ان أموت من أجلكم ، فهل تقسمون أن تموتوا من أجلي ؟ » فاقسم الجميع . وفي نفس الليلة قبض على

القيصر الطفل وأمه وجماعة من انصارها من الامراء والكبراء ، وأعلنت اليزابيث بيتروفنا (ابنة بطرس) امبراطورة . وسجن القيصر الطفل وآله . وحوكم بعض رجال الحكم السابقين ، وقضي على بعضهم بالنفي والبعض بالتعذيب والموت

٧ - وحكمت الامبراطورة اليزابيث حتى سنة ١٧٦٢ . فتولى عرش القياصرة من بعدها ولد اختها بطرس الثالث . وكان هذا القيصر مضطرب الذهن، وضيع الميول والاهواء، عاجزاً ، متهتكاً ، وكانت زوجه الامبراطورة كاترين ، واسمها العذري صوفيافون انهالت ، امرأة وافرة الدهاء والذكاء ، تجيش نفسها بالمطامع السامية . وكان بطرس الثالث يعاملها بغلظة ، ويؤثر عليها خليلته اليزابيث فورنزوف جهاراً وكان شقاق الزوجين يتفاقم كل يوم حتى قيل ان بطرس الثالث اعتزم ان يطلق زوجه كاترين ليتزوج من خليلته ، وان يحرم ولده بول من وراثة العرش. وبلغ به النزق من ان أمر بالقبض على زوجه وسجنها في دير ولكن هذا الامر لم ينفذ . ولم تكن صوفيا انهالت ممن يغفرن الاساءة أو ينسين الاهانة ، بل كان ذلك كله ، الى جانب ما تعاني كل يوم من غلظة زوجها واساءاته المتكررة ، يذكي في رأسها القوي نار السخط والنقمة . فكانت تعمل في صبر وروية وتهيء مع أنصارها أسباب الانقلاب الحاسم

وعجل الانقلاب أمر صدر الى الحرس بأن يتهيأ للسفر الى هولشتاين . وكان بطرس الثالث غارقاً في لهوه لا يرى بوادر الخطر تحدق به من كل صوب ، وكان عدد المتآمرين يزداد كل يوم في البلاط ، وفي مجلس الشيوخ ، وفي الجيش ، وكان فريق منهم يرى

ان ينادي ببول ولد بطرس وكاترين ملكا تحت وصاية امه ، ولكن فريقاً كان يرى ان يولي العرش كاترين ذاتها . وكان أنصار هذا الرأي معظمهم من رجال الجيش وفي مقدمتهم جريجوري اورلوف خليل كاترين ، وأخوه الكسي اورلوف وباقي رجال اسرتهم. وكان آل أورلوف يقبضون على زمام المؤامرة وأسرارها ، ويخفونها عن باقي المتآمرين خوفاً من الافتضاح وكان القبض على باسيك أحد المتآمرين اشارة العمل . وكان بطرس يومئذ في أورانينباوم مع



كاترين الثانية

مواطنيه الهولشتانيين ـ وكانت كاترين تقيم في بيترهوف في طريق بطرسبرج . فغادرت كاترين قصرها فجأة يصحبها جريجوري اورلوف وأخوه الكسي وخادمان . وما وصلت الى بطرسبرج حتى ثارت بعض فرق الحرس ، واقسموا لها يمين الطاعة . ثم سارت الى قصر الشتاء ، وأرسل الاميرال تاليسين ليؤكد ولاء قلعة كرونشتات ووزعت منشورات على الجيش والشعب

ثم سارت كاترين على رأس جيش قوامه عشرون الف مقاتل صوب اورانينباوم . وعلم بطرس الثالث بالخطر في آخر لحظة فهرول الى كرونشتات ليقود حاميتها وصاح بالاميرال تاليسين « أنا الامبراطور ! » فاجابه الاميرال : « لم يبق ثمة من أمبراطور » ، ولما رأى بطرس

مدافع القلعة تصوب نحوه عاد الى قصره في اورانينباوم ، وهنالك تنازل عن العرش ذليلا خاضعاً . ثم ارسلته الامبراطورة كاترين الى روبشا على قيد ثلاثين مرحلة من بيترهوف ، وهنالك توفي بعد أربعة ايام . وبدأ في روسيا عصر كاترين الثانية او كاترين الكبرى.

٨ ـ ثم خلف كاترين الكبرى ولدها بول الاول فحكم حتى سنة ١٨٠١ ثم زهق ضحية لمؤامرة شهيرة . وكان الامبراطور بول الاول صارم الاهواء ، عنيفاً في اوامره ووسائله ، وكان رجال البلاط يخشون نتيجة هذه الاهواء العاصفة ، وكان النبلاء من جهة أخرى ينقمون منه سياسته العسكرية التي دفعت بالامة الى محاربة فرنسا ثم الى مخاصمة انجلترا ، وأدى قطع العلائق بين روسيا وانجلترا بالاخص الى خراب الملاك . وكان الامبراطور فوق ذلك كثيراً ما يتحدث عن زوجه وولده اسكندر بلهجة البغض والوعيد حتى قيل انه كان يعتزم تغيير نظام الوراثة. وكان رجال البلاط اول من فكر في تدبير ثورة لعزل بول ، وتولية ولده اسكندر. وكان الكونت بانين سفير روسيا السابق في برلين يفاوض الغراندوق اسكندر في هذا المشروع ، ويعمل على اقناعه بوجاهته وشرعيته . وسرعان ما نضجت الفكرة . وكان روح المؤامرة وساعدها في نفس الوقت الكونت بالين حاكم بطرسبرج ومدير شرطتها. ونما الى بول الاول طرف من خبر المؤامرة ، ولكن الكونت بالين استطاع بدهائه وثباته أن يبدد شكوكه . وكان بالين فوق ذلك ينفذ كل أوامر الامبراطور مهما كانت من الغرابة والشذوذ ليزيد بذلك في أعدائه . وكان من جهة أخرى يذكي ريب الغراندوق في نيات القيصر . ثم استمال اليه كثيراً من رجال الجيش ، وبعض

الكبراء الذين اشتركوا في مؤامرة سنة ١٧٦٢ ، وكان ساعده الايمن مغامر الماني جريء يدعى بنجسن . وكان بين المتآمرين أيضاً بلاتون زوبوف آخر محب للامبراطورة كاترين ، وكثير من رجال البلاط الذين اغتنوا من اسلاب بولونيا الاخيرة وخشوا ان يغير بول سياسته نحو بولونيا فينكبهم . ففي ليلة ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ ، نفذ المتآمرون الى قصر الامبراطور ، وكان بعض ضباط الفرقة التي تتولى الحرس تلك الليلة قد انضم الى المؤامرة . واحاط الكونت بالين وبعض رجاله باروقة القصر الخارجية ليقوم بالرقابة ، بينما نفذت شرذمة من المتآمرين الى جناح الامبراطور . ثم دنا بنجسن الى الامبراطور شاهراً سيفه ، وقدم اليه تنازلاً مكتوباً ، فوثب الامبراطور من سريره للدفاع عن نفسه ، فوقع المصباح وانطفأ ، وسقط الامبراطور في الظلماء بطعنة من نقولا زوبوف أو البرنس ياكفيل ، ثم أجهز عليه أحد الضباط



اسكندر الاول

وفي صباح اليوم التالي نودي باسكندر الاول أمبراطوراً . وقوبلت هذه الجريمة في انجلترا بالارتياح والرضى ، ولكن وقعها

كان سيئاً في نفس بونابرت ، فقد كان يرى بحق ان اختفاء بول الاول من الميدان ضربة لمشروعاته ، وفوز لانجلترا . وقد أمر أن ينشر عن ذلك الحادث في جريدة « المونيتير » هذه الكلمات المعنوية : « ان على التاريخ أن يجلي غوامض هذه الجريمة المؤسية ، وأن يقول ما هي تلك السياسة التي من مصلحتها أن تدبر مثل هذه النكبة »

٩ - وفي أواسط القرن التاسع عشر ظهرت دعوة « النهليزم » ولم تكن في مبدئها سوى نزعة الى الاصلاح ، ودعوة الى التجديد السياسي والعقلي والاجتماعي ، فذاعت نظرياتها بسرعة مدهشة ولا سيما بين طبقات المتنورة كالنبلاء والموظفين وضباط الجيش والشباب المتعلم . وكان ذلك في عهد القيصر اسكندر الثاني . وكان أخص ما يميز الدعوة الجديدة على قول شتبنياك في كتابه « روسيا الدفينة » : « هو انكار كل ما يفرض على الفرض انكاراً مطلقاً يسند الى الحرية الفردية ، وقد كانت النهليزم ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسي ، ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة ». ولم تأت سنة ١٨٧٠ حتى كانت النهليزم قد جازت مرحلتها الاولى ، وخرجت من طور الدعوة الى طور العمل . ذلك ان اسكندر الثاني لم يحقق كل وعود الاصلاح الدستوري والاقتصادي ، هذا الى أن القيصر ارتاع لتقدم الحركة الثورية ، فعدل عن الاصلاح فجأة ، وارتد الى النضال ونشطت شرطة البلاط الى القمع والمطاردة . يقول شتبنياك : « ولكن هذه النزعة النبيلة - النهليزم - ما لبثت أن تكسرت على صخرة الحقيقة ، ذلك ان الدعاة استطاعوا أن يحشدوا جيشاً أعزل من انصار النظريات الجديدة ، ولكنهم رأوا أنهم انما

يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد ، ولا سبيل لهم أن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة ، سيما وقد ضوعفت اجراءات القمع ، ومالت الحكومة بالمطاردة والاضطهاد على أولئك الرجال والنساء والفتية الذين يتجاهلون لحقيقة الحياة والنظم القومية الروسية ». وهنا تحرك المضطهدون ليأخذوا بالثأر ، وبدأ عهد القتل السياسي الذي اقترن باسم النهليزم

وكان أول مظهر عنيف للخصومة بين القيصرية والنهليزم هو اقدام القيصرية في سنة ١٨٧٧ على القبض على خمسين شخصاً من انصار النهليزم ومحاكمتهم في موسكو بتهمة التآمر . وكان بينهم كثير من الطلبة الذين تخرجوا في سويسرا ، ومن هؤلاء صوفيا باردين الشهيرة . ولما اشتدت الحكومة في مطاردة الاحرار والثوريين ، عمد هؤلاء الى الدفاع عن انفسهم بالارهاب الثوري والاغتيال المنظم ، وبدأت بين الفريقين معركة هائلة ، فأمعنت الحكومة من ناحيتها في القبض على النهليست وسجنهم وتشريدهم ونفيهم الى سيبيريا وشنق كثيرين منهم دون محاكمة ، وأمعن النهليست من جانبهم في اغتيال رجال الشرطة والقضاء والنيابة ومن اليهم من مطارديهم . فلما تفاقم النضال اعتزم النهليست أن يستأصلوا الشر من جذوره ، وأن يقتلوا القيصر نفسه مصدر كل بطش وارهاق ، ودبروا لذلك عدة محاولات متوالية اخفق عدد منها ولكن وقع القضاء أخيراً في أول مارس سنة ١٨٨١ ، وجرح اسكندر الثاني جرحاً ذهب بحياته من شظايا قنابل القيت عليه ، فقبض على ملقي القنبلة ، وعلى أربعة آخرين

من النهليست وشنقوا بعد أيام قلائل . ثم شنق منهم عشرة آخرون في سنة ١٨٨٢

وثبت المحاولات الدموية التي دبرتها النهليزم في أواخر القرن الماضي حافل يضيق المقام عن تفاصيله ، ويكفي أن نذكر بعض الحوادث والتواريخ ، ففي نوفمبر سنة ١٨٨٢ قتل سترلنكوف النائب العام لمحكمة « كيف » العسكرية ، وفي ديسمبر سنة ١٨٨٣ قتل مدير الشرطة سوندكين ، وحدثت محاولتان لاغتيال القيصر اسكندر الثالث : الاولى في مارس سنة ١٨٨٧ ،والثانية في أكتوبر سنة١٨٨٩ ولكن الحركة هبطت تدريجياً ، وركدت ريح النهليزم بعد ما لقيت من الخيبات المتوالية ، وبعد ان هلكت زهرة دعاتها وأنصارها

ثم استعادت النهليزم شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن ، وعادت الى القتل المنظم ، فقتل سيباجين وزير الداخلية في سنة١٩٠٢ ثم عادت الى الركود بعد ان اعتزمت القيصرية أمرها ، في إقامة النظم الدستورية في روسيا

على ان النهليزم اذا كانت قد أخفقت في أغراضها الثورية فقد مهدت السبيل الى وثوب دعوة ثورية جديدة كانت تجثم في الخفاء ـ دعوة ذات مثل شاسعة ، لا تقف عند تغيير نظام أو حكومة ، بل ترمي الى سحق جميع النظم القديمة من أساسها

تلك هي الشيوعية التي حطمت روسيا القيصرية ، وأقامت على أنقاضها شبحاً من المثل المركسية [1]

---

(١) فصلنا مبادىء النهليزم واطوارها فى فصل مستفيض فى كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية »

خاتمة

فى بعض المؤامرات الشهيرة

التي لم يرد ذكرها في فصول خاصة

١ — مؤامرة الدون كارلوس

ما أفاضت سيرة من سير القصور في القرن السادس عشر على دولة الخيال والشعر قدر ما أفاضت سيرة الدون كارلوس ، وما تبعث الى النفس من روعة وكآبة قدر ما تبعث أساطير هذه القصة العجيبة وأي سيرة أدعى للروعة والوحشة من سيرة ملك يقضي بالموت على ولده لمؤامرة قيل أنه دبرها لقتله ثم يذهب في بطشه الى حد تنفيذ هذا الحكم ؟ هذا ما يحفظ التاريخ من سيرة فيليب الثاني ملك اسبانيا وولده الدون كارلوس ، ولكن



فيليب الثانى

القصة تسبغ على تلك السيرة طائفة من الاساطير الخلابة ، فتقول

ان الامير الفتى هام بحب زوج أبيه الملكة ازابيل ابنة هنري الثاني وكانت يومئذ صبية أو طفلة ، وانها بادلته هذا الهوى ، وان فيليب الثاني لم يغفر لولده هذا الانتهاك لشرفه، فنسب اليه أنه يدبر مؤامرة لقتله ، وأمر به فاعتقل وحوكم ، وقضي عليه بالموت واعدم . ونحن لا نعنى هنا الا بالتاريخ . واليك خلاصة السيرة طبقاً لاصدق المصادر والروايات

ولد الدون كارلوس سنة ١٥٤٥ ، ونشأ سقيما في الجسم والخلال واخفقت كل محاولة في تربيته تربية سليمة وفي صقل خلاله الجافة الشاذة ، فكان مضطرب الذهن كثير النزعات ، عنيف الاهواء ، وكان أبوه فيليب الثاني يرقب سلوكه وتصرفاته بأسف وحذر . وفي سنة ١٥٦٥ ، اعتزم الدون كارلوس ان يسافر سراً الى الفلاندر ، ولكن فيليب الثاني الذي لم يكن يغفل حركة من حركاته حال دون تنفيذ هذا المشروع المريب ، ثم اعتزم مكسيمليان الثاني امبراطور المانيا وعم الدون كارلوس ان يزوجه من ابنته الاميرة حنة ، ووافق فيليب الثاني على هذا الزواج ، ولكنه تمهل في تنفيذه حتى يرى ماذا يكون من أمر ولده . ولكن الدون كارلوس ما كاد يعلم بهذا المشروع حتى اعتزم ثانيـة أن يسافر إلى المانيا لتحقيق أمنيته . وعكف على تنفيذ مشروعه خفية ، وهو يستمد النصح والمعونة من أمير أورانج ، والمركيز دي برج ، والكونت هورن والكونت اجمونت والبارون دي مونتيني زعماء الفلاندر وخصوم فيليب الثاني. وكان دي برج ، ودي مونتيني قد قدما الى مدريد نائبين عن الفلاندر ليفاوضا فيليب الثاني في أمور تتعلق بما حدث هنالك من اضطراب

فلما علما ان الدون كارلوس يعنى بمشروعه المتقدم تقربا اليه وعرضا عليه المساعدة ، ووعداه أن يناديانه ملكاً للاراضي السفلى (الفلاندر) ولكن هذا التحالف لم يطل أمده ، إذ قبض على زعماء الفلاندر بتهمة التآمر في الاراضي السفلى على قلب الحكومة الاسبانية ، فاعدم أجمونت وهورن ، واميرِ أورنج ، وسجن كل من برج ومونتيني في قلعة منفردة

أما الدون كارلوس فلبث يسعى في جمع المال اللازم لتنفيذ مشروعه ، فكتب إلى كثير من كبراء اسبانيا يستمد معونتهم فاجاب كثيرون بالتأييد ، ولكن بشرط ألا يكون المشروع موجهاً ضد أبيه الملك . ولكن واحداً منهم هو أميرال قشتالة رابه صمت الامير وخشي أن يكون المشروع جنائياً ، فأبلغ فيليب الثاني الامر واطلعه على كتاب ولده . وكان الدون كارلوس قد أفضى في نفس الوقت بمشروعه إلى عمه الدون جوان ، فنقله الدون جوان في الحال إلى فيليب الثاني

وسرعان ما تطور هذا المشروع ـ مشروع السفر إلى المانيا ـ تطوراً غريباً ، واستحال إلى وجهة خطرة ، وجاشت مخيلة الدون كارلوس المضطرمة باحدى هذه النزعات الجنائية الفجائية . ولم تكن هذه النزعة الغريبة ، على ما يقول معظم الثقاة ، سوى اعتزام الدون كارلوس أن يقتل والده فيضع بذلك حداً لما يعتقد انه عسف منه بحياته واسترقاق لحرياته . والمرجح ان هذه الفكرة ولدت في ذهنه في أواخر ديسمبر سنة ١٥٦٧ . والغريب في الامر ان ذلك الامير الطائش الذي اعتقد انه ينزع إلى العلياء بارتكاب هذه الجريمة ،

لم يستطع أن يكتم مشروعه الهائل ، فاعترف به لواعظ الاسرة الملكية وطلب اليه البركة والمعونة الروحية معتمداً في الكتمان على سر الاعتراف ، وافضى به أيضاً إلى عمه الدون جوان ، وكان يثق به ثقة عمياء . وكان أوزوريو ، حاجب الدون كارلوس قد جمع له في ذلك الحين مبلغاً وافراً من المال ، فاعتزم الامير السفر في منتصف يناير سنة ١٥٦٨ ، وأفضى بذلك إلى عمه الدون جوان وطلب اليه أن يرافقه . وكان الدون جوان يوهمه بانه مؤيد له مستعد للتنفيذ معه ، ولكنه كان ينقل كل شيء في حينه إلى فيليب الثاني . وكان فيليب الثاني مازال مقيما في الاسكوريال في ضاحية مدريد ، فاستشار جماعة من علماء الدين والمشترعين في أمر ولده فكان الرأي الغالب ان يحول الملك دون تحقيق المشروع اتقاء لوقوع الحرب الاهلية

وفي ١٧ يناير أرسل الدون كارلوس الى مدير البريد ان يعد له جياداً في مساء اليوم التالي ، فارتاب في الامر ، واخطر الملك من فوره . وعندئذ أسرع فيليب الثاني الى مدريد . فاضطرب الدون كارلوس وعدل عن طلب الجياد في تلك الليلة . وفي الحال استشار الملك أعضاء مجلسه الخاص ، فقر الرأي على اعتقال الدون كارلوس وقبض عليه فعلاً في مساء ذلك اليوم ، وضبطت أسلحته ونقوده وأوراقه . وابلغ الملك الحادث الى الجهات الكبرى صائغاً إياه في ثوب رزء ألم نزل بقصره وشعبه . وانتدب محكمة عليا برياسته لمحاكمة ولده . واستمر التحقيق حتى يولية سنة ١٥٦٨ . والدون كارلوس أثناء ذلك يرسف في سجنه ، وتتناوبه فورات اليأس ، والغضب ، والحمى . ورأت المحكمة في النهاية ان ما كشف عنه التحقيق يكفي

لاصدار الحكم دون سماع المتهم ، وانه يجب طبقاً لما ثبت ان يصدر حكم الاعدام على الدون كارلوس اذ ثبتت ادانته في تهمة الاعتداء على الذات الملكية بوضعه مشروعاً لاغتيال أبيه أولاً ، وثانياً لانه حاول ان ينزع سيادة الاراضي السفلى . ووافق فيليب الثاني على هذا الحكم بطريقة غامضة ، وأصر عليه ، ولما رأى البرنس ايفولي كبير الامناء أن لا مناص من التنفيذ ادرك ما يريده الملك مما تضمره لغة القصور الغادرة ، وخاطب الدكتور أوليفاريس في الامر في خفاء وغموض ايضاً فادرك الطبيب ما يطلب اليه ايضاً ، وهو أن ينفذ حكم الموت بحيث يبقى شرف الامير مصوناً ، وان تشبه الجريمة الموت الطبيعي . وفي ٢٠ يولية سنة ١٥٦٨ أمر الدكتور أوليفاريس بدواء تناوله الدون كارلوس . وتقول معظم الروايات ان اعراضاً خطيرة ظهرت على الامير عقب تناوله هذا الدواء ، ولم يمض يومان حتى دخل في دور النزع ، واملى وصيته واعترف ، وزهق في اليوم الرابع والعشرين من يولية سنة ١٥٦٨

وهكذا ، حوكم الدون كارلوس واعدم بتهمة التآمر على أبيه ، كما حوكم الكسي رومانوف وأعدم بعد ذلك بنصف قرن ، في ظروف مماثلة . ويفسر بعض المؤرخين قسوة فيليب الثاني بان الدون كارلوس كان يميل خفية الى البروتستانتية ويزمع السفر الى الفلاندر ليعلن ارتداده هنالك . وفي روح العصر ، وما عرف به فيليب الثاني من عميق تعصبه للكثلكة ، ومطلق خضوعه لمجلس التحقيق الاسباني ، ما يلقي على هذا التفسير طرفا من التأييد والضياء

٢ ـ مؤامرة الاراضي السفلى

في الوقت الذي وقع فيه حادث الدون كارلوس وقعت مؤامرة الاراضي السفلى أو بالحري تلك المحاولة الشهيرة التي أراد بها اشراف الفلاندر ان ينقذوا وطنهم من بطش السياسة الاسبانية وعسفها الدموي . وكانت الاراضي السفلى (هولندة والبلجيك) من أملاك التاج الامبراطوري ، ومن نصيب العرش الاسباني . وكان شارل الخامس يتجنب الاعتداء على امتيازات هذه الولايات ، ولكنه لم يحسن السياسة الدينية لان الاراضي السفلى كانت ميداناً خصيباً لتقدم البروتستانتية . فلما تولى فيليب الثاني ، نشط الى المطاردة الدينية ، وعين للاراضي السفلى حاكماً اسبانياً عاماً ، فسلب بذلك البقية الباقية من استقلالها المحلي ، واعتدى على امتيازات الولايات ، وحقوق أبنائها . وكان انشاء هذه الحكومة الاجنبية ، واستئثارها دون مجلس الولايات بكل نفوذ وسلطة أول باعث الى الهياج والثورة



ولم امير اورانج

ولما شعر السادة والاشراف أنهم حرموا حقهم في حكم بلادهم نهضوا للاخذ بزمام الثورة وفي طليعتهم رجال ثلاثة هم ولم أمير اورانج ، والكونت اجمونت ، والاميرال هورن . وكان ولم من

ولد اسرة ناساو الالمانية التي ملكت جزءاً كبيراً من الاراضي السفلى ، وكان أعظم سادة الولايات ، وأرفعهم خلالاً وكفاية . التحق منذ حداثته ببلاط شارل الخامس ، وعين وصيفاً في البلاط الامبراطوري ، فلم يلبث ان قربه شارل الخامس واصطفاه ، ولبث حيناً يختاره لأهم سفاراته . وأما اجمونت وهورن فكانا من أعظم جنود عصرهما ، ظهرا الى جانب الامبراطور (شارل الخامس) في حروبه ضد فرنسا وبالاخص في واقعتي سان كانتان وجراقلين . وفي حكم فيليب الثاني ، عين اجمونت قائداً للفرسان . وكان هورن بالاخص من أعظم سادة الولايات وأوفرهم جاهاً وغنى ، تدرج في المناصب الكبرى حتى صار رئيساً للحرس الهولندي لملك أسبانيا ، ثم رفع أميراً للفلاندر . ظهر هؤلاء الزعماء الثلاثة على رأس الحركة التحريرية . وكان يشد أزرهم جماعة أخرى من الزعماء مثل المركيز دي برج ، والبارون دي مونتيني وكان الاشراف يحاولون في المبدأ تفاهما مع فيليب الثاي ، فاوفدوا أجمونت وبرج ومونتيني الى أسبانيا في سنة ١٥٦٥ ليقنعوه بسوء عاقبة سياسة العسف والمطاردة ، فردهم بالوعود ، واستطاع الزعماء في نفس الوقت ان يقنعوا الاميرة مرجريت أخت فيليب الثاني وحاكمة الاراضي السفلى بحل مجلس التحقيق . ولكن فيليب الثاني أبى ان يقر سياسة التسامح ، وأوفد الى الاراضي السفلى الدوق آلفا ليخمد الهياج بكل الوسائل . وكان آلفا جندياً قاسياً ، وفظاً غليظ القلب ، فاطلق العنان لبطشه وقسوته ، فاشتد السخط ، وذكت أسباب الثورة ، ورأى أمير اورانج فشل مساعية في التوفيق فانسحب الى أراضيه الالمانية وكان انسحابه في الوقت المناسب ، اذ سرعان ما أصدر آلفا

أمره بالقبض على اجمونت وهورن مع انهما ساعدا الحكومة في مواقف كثيرة ، وانشأ محكمة هائلة كان يعرفها الاهلون «بالمجلس الدموي». وكان آلفا يخشى بالاخص نفوذ اجمونت وهورن ، فاراد ان يزيلهما من طريقه . ووجهت الى الزعيمين الوطنيين تهمة التآمر الخالدة ، ونسب اليهما أنهما يأتمران بالعرش الاسباني وسيادته ، فاحتجا ببراءتهما . ولكن « المجلس الدموي » أصدر حكمه باعدامهما فكتب اجمونت الى فيليب الثاني يحتج على هذا الجور في خطاب يفيض نبلا وكرامة ، وتدخل للعفو عنه كثير من عظماء الدولة . ولكن العرش الاسباني كان ظمئاً الى دماء أولئك الذين اجترأوا على مقاومته ، فاعدم أجمونت وهورن في سنة ١٥٦٨ . واهتزت أوربا كلها لذلك الحادث الرائع ، وهرعت الجموع الى النطع الذي زهق عليه الزعيمان الوطنيان لتظفر بقطرات من الدم الذي يسفك من اجل الاستقلال القومي ، واستخرج جيته من ذلك المنظر الدموي طائفة من أبدع قطعه المسرحية

٣ – مؤامرة في مالطة

في أوائل سنة ١٧٤٨ ، تمرد بحارة سفينة مصطفى باشا حاكم جزيرة رودس ، وحملوه مصفداً الى جزيرة مالطة ، حيث أسلموه أسيراً الى فرسان القديس يوحنا سادة الجزيرة يومئذ ، فأكرم ولاة الامر وفادته ، وأسكن جناحاً في مقام الحاكم في قلعة سان الم ، وسمح له رغم اعتقاله ان يستبقي خدمه ، وأن يستقبل زواره من كبراء الجزيرة ومن مواطنيه الترك . وكان أستاذ الفرسان الاعظم يحسن معاملته ويواسيه . ولكن مصطفى باشا لم يكن يفكر في الخلاص

من أسره قدر اهتمامه بالاعتذار لدى السلطان عما وقع وان رغماً عنه . فما كاد يستقر في منفاه حتى جالت بذهنه فكرة غريبة لارضاء مولاه وهي أن يدبر مشروعاً للاستيلاء على نفس الارض التي يعتقل فيها وضمها الى أملاك السلطان

فبدأ يتلمس حماية البلاط الفرنسي خفية ، وأخذ يعامل زواره من الفرسان بكبرياء وخشونة حتى قاطعوه ولم يبق حوله الا جماعة من المسلمين من حشم وأصدقاء . ثم أخذ يستميل اليه من في الجزيرة من المعتقلين وسواهم من المسلمين بالوعود والتحف والهدايا حتى جذبهم اليه . وعقد أسير يدعى ميشو الصلة بينه و بين اسميتي حاجب الاستاذ الاعظم ، ووعده قبطان سفينة يدعى علي احمد بالمؤازرة والمعونة . ثم عقد مجلس سري من بعض المشايخ الترك وقباطنة السفن وقاضي المسلمين في الجزيرة وميشو . وقال لهم ابراهيم حاجب الباشا : « انه من العار أن يبقى المسلمون تحت نير النصارى ، وانه من السهل أن يستولي المسلمون على الجزيرة » فأجمع الحضور على وجوب اضرام الثورة تحقيقاً لهذه الغاية ، وأخذ المشايخ يبثون تلك الفكرة في نفوس الاسرى . ثم عقد مجلس آخر برياسة الباشا صودق فيه على الفكرة ، وأقسم المتآمرون بالكتمان ، واختاروا للتنفيذ يوم ٢٩ يونيه سنة ١٧٤٩ وتعهد اسميتي وجماعة من الاسرى بقتل الاستاذ الاعظم ، وتعهد آخرون بتدبير ما يلزم لاقتحام الترسانة والاستيلاء على الاسلحة ، وكسر ابواب السجن العام ، والاستيلاء على قلعة سان الم . ورأى المتآمرون في نفس الوقت أن يبحثوا عن عضد في الخارج ، فأنفذ الباشا كتباً الى أمراء الجزائر وتونس

وطرابلس وسوسة يطلب اليهم مدداً من المال والذخائر ، وحمل رسائله جماعة من التجار الترك واليونانيين . وكتب الباشا أيضاً الى زميله والي المورة ، وأبلغ هذا خلاصة المشروع الى ولاة الامر في استانبول ، فتقرر ان تبحر بعض سفن الاسطول التركي الى مالطة وأن تنزل رجالها الى البر متى صدرت الاشارة اليها من قلعة سان الم

وكانت الاوامر قد صدرت فى ذلك الحين بالافراج عن الباشا بسعي فرنسا ، ولكن الباشا لبث يؤجل سفره من موعد الى آخر محتجاً بمختلف المعاذير

بيد أن الكتمان المطلق في مؤامرة شاسعة النطاق صعب دائماً مستحيل في الغالب . فان جندياً من المتآمرين ، ذهب ذات يوم الى قصر الاستاذ الاعظم ، وأفضى اليه بكل ما رأى وسمع ، فألقت أقواله ريباً على جندي فارسي ورجل عربي فقبض عليهما في الحال ، ثم قبض في أثرهما على جماعة كبيرة ، وانتدب الاستاذ الاعظم أربعة من الفرسان لتحقيق الحادث . وسرعان ما ثبت ان روح المؤامرة ومدبرها الحقيقي مصطفى باشا بنفسه . ولكن الباشا أقسم بالقرآن في حضرة السفير الفرنسي انه لا يدري شيئاً عنها ، ولكنه مع ذلك نقل الى قلعة سان الم ، وفرضت عليه مراقبة شديدة . وزج باقي المتآمرين الى الاصفاد ، وعذب جماعة منهم ، ولا سيما اسميتي وميشو بأروع صنوف العذاب ، وأنكر الباب العالي كل علاقة أو معرفة بالحادث وأخيراً أفرج عن الباشا ثانية ، وأرسل الى استانبول على ظهر مركب فرنسي في مايو سنة ١٧٥١

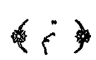
٤ - بونتياك

في أواسط القرن الثامن عشر كانت الحرب تضطرم في كندا بين الفرنسيين والانجليز، وكانت المعركة الهائلة من أجل استعمار العالم الجديد بين ذئاب العالم القديم. فاستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين مدى أعوام، ثم انتهت بانتصار الانجليز، واستيلائهم على معاقل كندا وثغورها. ولكن القبائل الهندية، أصحاب البلاد الاصليين، كانت ما تزال تجيش ببقية من شغف الحرية وحماسة الذود عن الوطن. وكان رسول هذه الحركة التحريرية زعيم هندي يدعى بونتياك، وكان بونتياك قد أدرك منذ الساعة الاولى ما يهدد وطنه وأمته من خطر الفناء، فحالف الفرنسيين، وقاتل الى جانبهم أملاً باستبقاء شيء من تراث الوطن الذاهب. فلما انتصر الانجليز وخاب هذا الامل، ارتد بونتياك الى وطنه أتاوا، واستطاع ان ينظم نوعاً من التحالف بين كبرى القبائل الهندية، وان يضع نفسه على رأس الحركة، وأنفذ رسله الى جميع الانحاء يدعون القبائل سراً الى حمل السلاح والدفاع عن أوطانهم وحرياتهم. فلبت دعوته جماهير وقبائل حاشدة. وفي ابريل سنة ١٧٦٣ اجتمعت قوات كبيرة من الهنود على نهر اركوس بالقرب من مدينة دترو‌ا، فخطب فيهم بونتياك، وحثهم على استعادة وطنهم، واستبقاء تقاليدهم، وذكريات آبائهم، وطرد البيض مضطهديهم وقاتليهم، ثم وضع خطة لمهاجمة الانجليز واعتزم ان يزحف على دترو‌ا بادىء بدء وان يقتحم قلعتها بالمفاجأة ولكن الماجور جلادوين قائد القلعة وقف على سر هذا المشروع من خليلته وهي فتاة هندية، وذهبت حيل الهنود في مباغتة القلعة

سدى . فلجأ بونتياك عندئذ الى القوة ، وحاصر القلعة . وفي نفس الوقت اضطرمت نار الثورة في كل ناحية ، وسقطت معاقل وقلاع عديدة في أيدي الهنود ، وقتل جميع من كان فيها من الانجليز بلا رأفة . وحاول المحصورون في دترو الخروج والهجوم فمزقوا وردوا الى القلعة . وأثارت هذه الانتصارات في القبائل الهندية روحاً جديدة ، وذاع اسم الزعيم الوطني في كل ناحية ، وتقاطرت الجموع الى لوائه من كل صوب

وكان بونتياك يعتمد في تحقيق غايته الكبرى على مساعدة الفرنسيين الذين حالفهم وقاتل تحت لوائهم ، ويذيع في أنصاره ان ملك فرنسا سيرسل جيشاً لمساعدتهم ، ولكن الفرنسيين أبوا مساعدته في المأزق الحاسم ، وكذب القائد الفرنسي في اللنوا هذه الاشاعة ، ونصح الى الهنود ان يكفوا عن محاربة الانجليز ، فانفض عن بونتياك معظم أنصاره وجنده ، فارتد عن دترو حاسراً مهزوماً واستطاع الانجليز ان يهدئوا معظم الانحاء الثائرة ، ولكن بونتياك أبى ان يلقي سلاحه وما زال يقاتل في سبيل وطنه على رأس عصبة من الرجال البواسل . فارتد الى ناحية « اللنوا » وجمع قبائلها حوله وطلب الى الحاكم الفرنسي سانت أنج ان يمده بالذخائر ، وان يحالفه على قتال الانجليز . ولما لم يحصل منه على جواب حاسم ، أرسل رسله الى نيو اورلنس حيث قصر الحاكم العام المستعمرات الفرنسية يستمده القوت والمعونة ، فابى ، وعاد الرسل الى زعيمهم خائبين وعندئذ رأى بونتياك عبث المقاومة ، فعقد الصلح مع الانجليز وألقى سلاحه وأوفى بعهوده . ولكن الانجليز كانوا دائماً يخشونه ويرتابون في صدق

خضوعه ، ويتلمسون الوسائل الى محوه من الميدان بالمرة ، ويدسون القتلة في أثره واحداً بعد الآخر . ففي ذات ليلة من سنة ١٧٦٥ ، كان بونتياك ينام وحده في الغابة وقد أثقل الشراب رأسه ، فانقض عليه رجل من « اللنوا » وحطم رأسه ، وزهقت بذهابه آخر نزعة الى الحرية والاستقلال في هاتيك الاقطار التي غدا الهنود وهم بنوها الاوائل ، فيها اليوم ، شريدين غرباء في بلاد الآباء والاجداد ، مهاد حريتهم التي غاضت الى الابد ، لتفسح الى الاستعمار الحديث الشره الباغي ، مجال الرفاهة والسلطان



فهرس

الكتاب الرابع

المؤامرات السياسية في العصر الحديث

صفحة

